نظرات في التاريخ الاسلامي

تأليف
ابراهيم الأبياري

المجلد الثاني

الناشرون
دار الكتب الاسلامية
دار الكتاب المصرى — القاهرة
دار الكتاب اللبنانى — بيروت

نظرات
في
التاريخ الإسلامي

دار الكتاب المصرى
القاهرة ج.م.ع.
٣٣ شارع قصر النيل - ص.ب ١٥٦
ت ٧٤٤٢١٦٨/٧٥٤٣٠١ - برقيا (كتامصر)
TELEX: 21581
ATT:134 K.T.MCAIRO

دار الكتاب اللبنانى
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقبة الخامسة :

الدولة الإخشيدية

- ١ -

لم تبعد مصر بمكانها فى إفريقيا عن الجزيرة العربية - التى هى إلى اليمين منها فى آسيا - فكراً ولا رُوحا ، وكأنّ هذا البحر الأحمر حين انبسط طولا ولم ينبسط عرضاً أحبّ ألاّ يشُق على القُطرين فيزيد فى شُقة البُعد بينهما ، وكأنه حين انبسط ماء ولم ينبسط أرضاً أحبّ أن يُخالف بينهما شيئا فيُغرى أحدَهما بالآخر .

ومنذ أن رَكب هؤلاء البحر وأولئك البحر حَطّ المصريون بسواحل الجزيرة العربية وأوغلوا ، وحطّ العرب بالسواحل المصرية وأوغلوا .

وحين اجتمعت قريش لبناء الكعبة ، وهم على جاهليتهم قبل أن يبعث الله رسوله فيهم بخمس سنين ، تزيد شيئاً أو تنقص شيئاً ، كان بين أولئك القرشيين قِبطٌ بمكة يحترفون صناعات ، وكان من بينهم نَجّار وَكَل إليه القرشيون تَسقيف الكعبة .

وحين اجتمع المصريون لعيدٍ لهم كانوا يُقيمونه فى الإسكندرية يَلهون فيه ويلعبون ، فإذا ماأوشكوا أن ينفُضوا أيديهم من لَهوهم ولعبهم بَرز أبناء الأمراء يترامَوْن بكُرة بينهم ، فمن وقعت فى حجره كان مُلك الإسكندرية له .

حين اجتمع المصريون لهذا العيد ، وحين كان أبناء الأمراء فى تَراميهم بالكُرة ، كان عمرو بن العاص حاضرَهم . وكان بين النَّظارة . جاء مصر تاجراً مع تُجار ، وأقام فى مصر كما يُقيم التجّار لحين ، ثم يرحلون ، ومنهم من يبقون .

وكما دخل ذلك القبطى فى حياة العرب فشارك فى بناء البيت ، دخل عمرو بن العاص فى حياة المصريين فشارك فى المُلك .

فالمؤرخون يَرْوون ، ولعلهم يصطنعون هذا الذى يروون ، ليُضْفوا على التاريخ مِسحة من الإغراء ، أحبُّوا ألا يعرضوا التاريخ دونها ، فهم يروون أو يصطنعون أن عمراً حين كان بين النظّارة يشاهد مايشاهدون وقعت الكرة فى حجره . فهال ذلك المصريين وخالوا أن ظنّهم كذبهم فى كُرتهم وأنكروا أن يكون ملك الإسكندرية لعربىّ طارئ .

وتمضى الأيام تحفظ لنا مثلاً يؤكد لنا تلك الصلة الفكريّة الروحية بين هذا القطر وذاك القطر ، فنسمع لها وهى تروى للمقوقس صاحب مصر إهداءه إلى رسول الله ﷺ مارية القبطية ، وسيرين أختها ، وغلاماً معهما خصيًّا هو مأبور ، وذلك سنة سبع من الهجرة .

وإذا هذا الإهداء يربط مابين القطرين بصهر ، فيتزوج الرسول ﷺ مارية ، ويُولدها ابنه إبراهيم . وماعُمِّر إبراهيم غيرَ عام وبعض عام ، وماندرى كيف كانت تجرى الأمور بين هذين القطرين ، لو عاش هذا الصغير ، غير أنه على الرغم من اختطاف الموت له فثمّة صهر لايُنسى . ذكره رسول الله ﷺ بعد موت ابنه فقال : إذا دخلتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحما . وذكر به الحسنَ بن على معاويةَ فجعله يضع عن أهل حفن من كورة أنصنا - حيث ولدت مارية - خراج الأرض .

صهر مع أشرف من دبّ على الجزيرة العربية ، يزكّيه صهر آخر لشاعر النبىّ المنافح عنه بلسانه حسان بن ثابت ، فقد أهداه رسول الله ﷺ وسلم سيرين أخت مارية .

وكما ولدت ماريةُ للرسول ولدت سيرين لحسان ، ولكن ولد الرسول مات ، وبقى ولد حسان عبد الرحمن ، ثمرةً لهذا الصهر عُمراً طويلا .

وماندرى متى ماتت سيرين ، ولكننا ندرى أن مارية بقيت بعد رسول الله ﷺ إلى خلافة عمر ، وأنها ماتت بالمدينة ، وأنها حين ماتت رُئى عمر يحشد الناس لحضور جنازتها ، وأنها حين دُفنت .. دُفنت بالبقيع ، وأنها حين خلَّفت الحياة خلّفتِ فى العالية بالمدينة مشربة تحمل اسمها ، هى مشربة أُم إبراهيم ، وماكان أولى المصريين والعرب بأن يرعَوْا لأُم إبراهيم مارية أول مكان نَزلت به ، ليرعوا صهراً كان لهم رباطا . ثم ماكان أولى المصريين أن يرعوا لأُم إبراهيم مكاناً وُلدت به ليرعوا صهراً كانت مارية سببه ، ومامثل هذه وهذه باليسير نسيانها ولاباليسير إهمالها على من يحرصون أن يتمثّلوا الأسباب ، وعلى من يعتزون بتلك الأسباب ، وعلى من يُحبون أن تحيا بينهم معالم تلك الأسباب ، ليلقن عنها الأبناء بأعينهم فوق مايلقنون بآذانهم . ثم مامِثل هذه وهذه باليسير إهمالها على من يحرصون أن يعيش بينهم تاريخهم حيًّا بمعالمه .

- ٢ -

وحين يفتح الله على المسلمين الشام يخلو عمرو بن العاص . بُعمر بن الخطاب يزيّن له فتح مصر . يتأبّى عمر ولاييأس عمرو ، وإذا إلحاح عمرو يغلب تأبّى عُمر ، وإذا مصر تَفتح له أبوابها ، تَمُد يداً إلى أصهار لهم هم العرب ، لتقوى بهم على الخلاص من أعداء لهم هم الروم ، وإذا مصر مع العام المُتم للعشرين من الهجرة موصولة مع أصهارهم العرب بصلات : يُصهر إليهم العرب ويُصهرون هم إلى العرب على مر الأيام ، فتتسع رابطة الإصهار ويُمازج دم دماً ، وإذا هم يشاركون العرب مُعتقدهم الجديد فتتآلف الروحان ، وإذا هم يشاركون العرب لسانَهم فيستقيم للمصريين لسانهم بما استقام به لسان العرب ، ويوثّق مابينهم هذا اللسان العربى ، وإذا هم معاً على عِلم واحد وفكرة واحدة ، فيجمع مابينهم الفكر بعد ماجمع بينهم المُعتقد واللسان ، وإذا هاتان الأمتان اللتان عاشتا على صلات قليلة تعيشان

على صلات كثيرة ، تختفى معها الصفات المفرّقة لتحل مكانها الصفات الجامعة ، وإذا المصريون أقرب الشعوب إلى العرب ، وإذا العرب أقرب الشعوب إلى المصريين ، وإذا مصر مَلاذ العربية حين عزّ الملاذ ، وإذا هى حامية العروبة حين عزّ الحامى .

ويتعاقب على مصر الولاة بعد عمرو ، تستقبل مصر للخلفاء ولاة هم : ابن أبى سرح ، وابن أبى حذيفة ، وقيس بن سعد بن عُبادة ، والأشتر بن مالك ، ومحمد بن أبى بكر الصديق .

ويستأثر الأمويون بالأمر فيجعلون على مصر ولاة لهم ، كلما عُزل والٍ أقاموا مكانه والياً غيره ، فإذا الولاة يبلغون العشرين يزيدون قليلا أو ينقصون ، ومصر فى كل هذا تُعطى ولا تأخذ خلال قرن وربع قرن ، تمكّن فيهما اللسان العربى من ألسنة أبنائها أو كاد ، وتمكّنت فيهما العقيدة من قلوب أبنائها أو كادت ، وشاع فى رؤوسها الفكر العربى أو كاد ، ولكنها على هذا عاشت يعرفها العرب ولاية يولّون أمرها نفراً منهم ، وما حاولوا أن يعرفوها جزءاً من هذا المُلك الواحد فيولّوا أمرها نفراً من أبنائها .

وكما فعل الأمويون فعل العباسيون من بعدهم ، فحين آل إليهم الأمر ، وغلبوا الأمويين على ما غلبهم عليه الأمويون ، أخذوا يُرسلون ولاتهم إلى مصر ، وإذا ولاتهم يُجاوزون الثلاثين بقليل ، وإذا هم حين بلغوا ذلك المَدى كانت مصر قد قطعت مع العرب فى ذلك الشوط أمداً بعيداً ، وطوت مع العرب نحواً من قرنين ونصف القرن ، مكنّت فيها للسانها العربى ، ومكنت فيها لفكرها العربى ، وكادت تنسى مالها ، لا تذكر إلا ما يتصل بعربيتها التى أشربتها نفوسها ، ولا تذكر إلا معتقدها الذى جمع تحت ظله سوادَها .

ولكن العباسيين أنسوا هذه كما أنسيها الأمويون . وظلوا ينظرون إلى

مصر ولاية ، ولم ينظروا إليها جزءا من تلك المملكة ، لها حق المشاركة الكاملة ، فلم يلتفتوا إلى أهلها يعينون منهم والياً عليها .

والمصريون على هذا قانعون ، يعنيهم أن تمضى الأمور بما يحقق للدولة كلها الكلمة الموحدة والسيادة الشاملة ، فلقد نظروا لتلك الأمور نظرة عامة ، ولم ينظروا إليها نظرة خاصة . إذ قد أصبحت الدولة العربية فكرة تناهضها فكرة أخرى ، ولقد عز على المصريين أن تُهزم الفكرة العربية إزاء هذه الفكرة الأخرى ، ففكروا فيما يبذلون ولم يفكروا فيما يأخذون ، يُنسيهم الغرض العام الغرضَ الخاص ، وإذا هم مخلصون لهذا الغرض العام ، لا يَثنيهم عن هذا الإخلاص ما عساه يثور فى نفوسهم حول الغرض الخاص ، يصبرون لويلات كثيرة يصبها عليهم الولاة إن جاروا ، ويصبرون لبلبلة كثيرة يسوقها إليهم الخلفاء حين يطيشون عن القصد ، لأنهم كانوا يرون الأمر أجل من هذا وذاك ، وكانوا يرون هذا الأمر لهم كما هو لغيرهم ، لا يفصلهم عنه نظرة غيرهم لهم ، وإنما تربطهم به نظرتهم هم إليه ، فقد دخلوا إليه بتلك الأسباب التى عرفوها ، دخلوا إليه مصاهرة ، ودخلوا إليه لساناً ، ودخلوا إليه معتقداً ، ودخلوا إليه فكرا ، وأصبحوا بعد هذا كله من أصحابه ، وكانوا على هذا كله أسمى ما عرف التاريخ تضحية ، وأكرم ما عرف التاريخ نفوساً ، وأفسح ما عرف التاريخ صدورا .

– ٣ –

ولقد كان اختيار الولاة أيام بنى أمية من بين العرب عامة ، ومن بين الموالين لهذا البيت الأموى خاصة ، أعنى من أهليهم ، أو من ذوى قُرباهم أو ممن تربطهم بهذا البيت وشيجة ، وكان اختيار هؤلاء الولاة أيام بنى العباس من بين العرب عامة ، ومن الموالين لهذا البيت العباسى خاصة ، أعنى من أهليهم ، أو من ذوى قرباهم أو ممن تربطهم بهذا البيت وشيجة .

ولكن الدولة الأموية بدأت عربية وانتهت عربية ، والدولة العباسية بدأت عربية وانتهت غير عربية .

نعنى أن الدولة الأموية بدأت عربية خلفاء ووزراء وقادة ، وانتهت عربية خلفاء ووزراء وقادة ، ولكن الدولة العباسية بدأت عربية خلفاء ووزراء وقادة ، ثم انتهت غير عربية محضة فى بعض من خلفائها ، وفى بعض من وزرائها وقادتها .

وكما أملت الدولة الأموية فى اختيار الولاة عن هذا الطابع العربى الخالص ، أملت الدولة العباسية فى اختيار الولاة عن هذا الطابع العربى غير الخالص ، فإذا الولاة المختارون برأى الأمويين غير الولاة المختارين برأى العباسيين ، وإذا الدولة العباسية كما انتهت آخر الأمر غير عربية خالصة ينتهى ولاتها آخر الأمر عرباً غير خُلَّص ، وإذا هذه الدولة العباسية تتعرض لمحنٍ كثيرة ، وتتعرض مصر معها لتلك المحن الكثيرة .

يمضى هذا كله ومصر صابرة لهذا كله ، يؤذيها ألا يُلتفت إليها فيختار واليها من بين أهليها ، ولقد كانت هذه الأعوام المئتان من بعدها خمسون كفيلة بأن تقفها فى صفّ العرب ، إن كانت العربية شرطاً للاختيار ، ثم كانت كفيلة بأن تقفها فى صف الموالين ، إن كانت الموالاة شرطاً للاختيار ، ما دام قد استوى فى الولاء العربى بغير العربى .

ولكن مصر على هذا الأذى لم تؤثر قصيتها الخاصة على قضيتها العامة ، وظلت ترى الأمر أجل من أن يحتمل فُرقة ، وأجل من أن يتعرض لانفصال ، إذ باتت القضية العربية أكثر خصوماً وأكثر عدوا وأكثر طامعاً فيها .

ولكن الذى لم تفعله مصر فعله الولاة بمصر ، فلقد سولّت لهم أنفسهم أن يقتطعوها عن الدولة العامة فاقتطعوها ، يُغريهم بذلك طمع فى الاستئثار

بالسلطان ، ويغريهم بذلك ضعف الخلفاء ، ويغريهم بذلك فوضى فى الحكم ، اتّسع خُرقها على الراتق ، فلقد أغرت هذه الفوضى الخلفاء بأن يكون لهم جند من غير العرب ، فاتخذوهم من الأتراك وغير الأتراك .

وكبر شأن هؤلاء الجند وكاد الأمر يؤول إليهم مع الخليفة أولا ، ثم دون الخليفة ثانياً . فلقد كانت إليهم القيادة أولا ، ثم كانت إليهم الولاية ثانياً .

وكان هؤلاء الولاة من الأتراك إذا آلت اليهم ولاية ينيبون عليها من يثقون به ، لايُحبون أن يُبعدوا عن مقر الخليفة حتى لايُكاد لهم ، إذ كان الكيد شيمة ذاك العصر ، وأفسدت الدنيا على الناس قلوبهم ونفوسهم ، وباتوا لا يعرفون غير أطماعهم الخاصة ، لايُبالون أية سبيل يركبون .

وتؤول مصر أيام المعتز الخليفة العباسى إلى كبير من قواد الترك هو بايكبال . ومافكّر بايكبال فى أن يرحل إلى مصر يستقبل ولايته وتستقبله ولايته . فينظر إلى رعيته وتنظر رعيته إليه . يعلم عنهم ويعلمون عنه .

ولكن بايكبال آثر ، كما آثر غيره من هذا الصنف من الولاة ، أن يبقى إلى جانب الخليفة يدفع ماعساه يُحاك حوله ، فبقى بايكبال حيث هو فى الحضرة لايتحول . ومانظن بايكبال كان يفكر فى غير تُركى يُنيبه عنه على مآآل إليه من ولاية . ولقد أشاروا عليه بأحمد بن طولون . ورضى بايكبال أحمد بن طولون ، فأرسله إلى مصر لينوب عنه فى حكمها .

ويموت المعتز ويلى المهدى الخلافة ، ويقتل المهدى بايكبال ، وتصبح مصر بعد بايكبال لقائد تركى من هؤلاء القواد المقربين للمهدى ، هو بركوج .

وكان بركوج غير بعيد من ابن طولون صلة ومودة ، فيبقيه على مصر ويضم إليه من شئون الحكم مالم يضمه إليه بايكبال . ويصبح أمر مصر إلى

ابن طولون كله . بعد أن كان إليه بعضه ، وتقوم فى مصر دولة هى الدولة الطولونية ، أمرها إلى أحمد بن طولون ثم لولده من بعده .

وتعيش مصر طولونية الصفة فترة غير طويلة ، يحكمها فيها أربعة من هذه الأسرة ، هم أحمد ، ثم ابنه خمارويه من بعده ، ثم ابنه هارون بن خمارويه ، ثم شيبان بن أحمد بن طولون ، فترة تبدأ بدخول أحمد بن طولون مصر سنة أربع وخمسين ومائتين ، وتنتهى بنزول شيبان عن الأمر سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

— ٤ —

وتعود مصر إلى العباسيين ثانية يولّون عليها من يشاءون ، ومانبّهت الأحداث الخلفاء ليلتفتوا إلى مصر يختارون من أهلها والياً عليها ، بل ظلوا على ماكانوا عليه يولونها عربيا مرة ، وتركيا مرة ، وروميّا أخرى ، إلى أن يؤول أمر مصر إلى تكين الحربى ، ويليها تكين مرات أربع . كانت الأخيرة منها سنة إحدى عشرة وثلثمائة من الهجرة . ولاّه الخليفة المقتدر حين اضطربت الأحوال على ابن « كيغلغ » فى مصر ، وخرج الجند عليه .

وبقى « تكين » والياً على مصر يشهد على البعد اضطراب الأحوال فى بغداد والثورة بالمقتدر . يخلعه خادمه « مؤنس » ليولى مكانه المعتضد . ثم يثور الجند فيخلعون المعتضد ليعيدوا المقتدر إلى الخلافة . وبين هذا وذاك تذهب ضحايا كثيرة من جند وأعوان .

وكما شهد « تكين » هذا وسمع به على البعد كان يشهد من القرب فيما حوله هذا الخلاف الذى دب بينه وبين محمد بن طغج أمير الحوف فى مصر . ثم يشهد محمد بن طغج يخرج من مصر سرا خوفاً من أن يناله أذاه . ومايكاد يهدأ « تكين » شيئاً حين تهدأ الأمور فيما حوله بعد خروج ابن طغج عنه إلى الشام ، وحين تهدأ الأمور شيئاً فى بغداد برجوع المقتدر إلى

الخلافة ، وهو صاحب أمره وصاحب الفضل عليه ، حتى يقلق ثانية حين ثار « مؤنس » الخادم بالمقتدر مرة ثانية . وحين قَتل واحد من برابرة مؤنس - وكانوا عسكره - المقتدر . ومامنع هذا القاتلَ قولُ المقتدر له حين رآه يُهم به رافعاً سيفه : « ويلك أنا الخليفة ! » فقال هذا البربرى القاتل : « أنت المطلوب » وذبحه بالسيف ورفع رأسه على رمح ثم جرده من ثيابه وتركه مكشوف العورة .

ولكن المقتدر مايكاد يمضى مقتولا حتى يمضى وراءه تكين ، ولقد مات المقتدر بعد أن قضى على كرسى الخلافة خمسة وعشرين سنة إلا أياماً قلائل ، حفظ له فيها التاريخ إسرافاً بلغ حد التبذير فى المجون والترف ، حتى ليقال إنه أنفق فى ملاذه أيام خلافته من مال المسلمين الذى ائتمنوه عليه نحوا من ثمانين ألف دينار ،نال النساء من ذلك شىء ، ونال غلمانه من الصقالبة - الذين بلغوا أحد عشر ألف غلام خصى - شىء .

وخَلف المقتدرَ على هذا الكرسى المضطرب أخوه القاهر . ليلقى مالقيه أخوه من قبله على صورة أشنع ، بعد أن قضى سنة وشهراً أسير حياة أشنع ، فلقد كان هو الآخر قبيح السيرة ، مدمناً للخمر ، أحمق ، ضعيفاً . وكان إذا لعبت الخمر برأسه ذهب عقله فيمضى يسفك الدماء فى غير وعى ولاحذر .

والشعوب إن رعت للوالى حقه فهى ترعى لنفسها حقها . تحب الطاعة لأن نفعها لها قبل أن يكون للوالى . فتصبر للظلم حرصاً على ألاتُفسد طاعتها . وحين تصبر لهذا الظلم تُطغى الظالم . يظن صبرها استكانة فيمعن فى إسفافه . فإذا الشعوب ترى طاعتها انقلبت مضرة لها وللوالى . لأنها تخسر بها كما يخسر الوالى . فتثور عن كره منها لاعن رضا . إذ ماأكره الشعوب للثورة لأنها تكلفها كثيراً . وتعرضها لبلبلة طويلة . قد يمر ردح كبير من الدهر قبل أن تستقر . وتقذف بها إلى حرج واسع قد يطول الزمن قبل أن تَسلم منه . ويفتح عليها فَتقاً من الشك والوسوسة عظيما قد يمتد به الدهر دون أن يُرتق .

ولكن القاهر كان طاغية وكان ظالماً . وكان فوق هذا شبه مجنون . من أجل ذلك كان الشعب حين ثار به طاغياً وظالماً وشبه مجنون . فسمل عينيه حتى سالتا على خديه . وتركه يحيا بينهم فردا معذباً لاخليفة هانئاً .

وكان أول خليفة يفعل به ذلك . ولقد عاش القاهر اسماً المقهور حقا ، على حاله تلك المؤلمة سنين طويلة كادت تبلغ العشرين ، إلى أن مات سنة أربعين وثلثمائة ، قضى بعضَ تلك الأعوام محبوساً ، وقضى بعض تلك الأعوام طليقاً شبه محبوس .

ويترك القاهر الخلافة بعد ما لقى فيها ما لقى ليّليها من بعده ابنُ أخيه الراضى بن المقتدر ، فيجلس على هذا الكرسى المضطرب فترة لا تطَول ، وهى على قِصرها كانت مليئة بالفتن والقلاقل ، فالشعب الذى ثار بالعم لم يكن قد هدأ ليستقبل ابن الأخ هادئاً .

وما طالت الحياة بالراضى لينعم أو ليشقى ، ولكن الموت عاجله فمات فى ربيع الآخر من سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة ، وكان قد بويع له بعد خلع عمه فى جمادى الأولى من سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة .

وعلى هذا الكرسى المضطرب جلس المتقى أخو الراضى ، جلس عليه ليُخلع عنه فى جمادى الآخرة من العام نفسه ، وبعد أن سُملت عيناه كما سُملت عينا أخ له من قبل ، وليتركه للمستكفى ليجلس عليه سنة وأشهراً ، يتركه بعدها مخلوعاً ليجلس عليه المطيع لله . ولكن المستكفى لم يُخلع إلا بعد أن سُملت عيناه ، وبعد أن سُملت أعين أخوين له من قبل ، وكان ثالث خليفة سُملت عيناه .

ويثبت هذا الكرسى للمطيع أعواماً بعد أعوام ليشهد أحداثاً بعد أحداث ، إلى أن ثقلت به العلة ، فخلع نفسه وأسلم الأمر إلى ابنه القانع ، بعد ما ذرع ثلاثين عاماً قضاها خليفة .

- ٥ -

ولقد حدثناك حديث محمد بن طغج حين كان أميراً على الحوف فى مصر ، وحين فسد ما بينه وبين تكين ، وحين خرج من مصر بعد ما فسد ما بينه وبين تكين خائفاً يترقب يقصد الشام .

ولقد لبث محمد بن طغج بالشام أعواماً تكاد تتم أربعة ، فلقد خرج من مصر سنة سبع عشرة وثلثمائة ، وبقى بها إلى أن مات تكين سنة إحدى وعشرين وثلثمائة . وخلت السبيل أمام ابن طغج ليعود إلى مصر والياً . فسعى سعيه لدى القاهر ليولِّيه إياها . ولم يعدم من يزكيه لدى القاهر . إذ كان لجده ماض ملحوظ . ستعرفه بعد قليل . فولاّه القاهر مصر .

ولكن الطمع الذى امتلأت به قلوب الولاة لم يفرغ منه قلب تكين . فلقد كان بمصر مشغولا منذ أن ولاه المقتدر إياها سنة سبع وتسعين ومائتين . وبقى عليها والياً خمس سنين . ما قصر فى استرضاء الخليفة يُهدى إليه ويناصره . ولكنه قصر فى استرضاء مؤنس الخادم . ولم يكن مؤنس عندها هيناً أمره . فإذا هو يكيد له عند المقتدر . وإذا المقتدر يعزل « تكين » . وإذا مؤنس فى مصر طامع يريدها له ولاية . وحَسِب أنه غالب عليها الخليفة . فأقام بمصر بعد عزل تكين لا يبرح . يحمل الناس على الدعاء له ويلقب نفسه بالأستاذ . غير أن المقتدر لم يهمله ليمكن لنفسه فيما أراد . فولى مصر ذكا الرومى .

ورأى تكين ما يغلب به الطامعون فلم يُهمل نفسه مما يغلب به الطامعون . ولبث إلى جوار الخليفة يسعى ويترقب . يطمع فى أن يحمل الخليفة على عزل ذكا الرومى . وحين لم يفلح لم ييأس ولبث يسعى ويترقب . فإذا القدر الذى مكَّن لمؤنس يمكن له . ولكن على صورة غير التى مكن بها لمؤنس . فلقد مات ذكا الرومى بعد سنين أربع قضاها واليا على مصر ، وإذا تكين يعود إلى مصر واليا للمرة الثانية سنة سبع وثلثمائة ،

غير أن مؤنسا الخادم كان لتكين بالمرصاد ، فلقد عد رجوعه إلى مصر خذلانا له ، وما كان مؤنس بالرجل الهين ، فإذا هو يسعى سعيه لدى المقتدر ، وإذا هذا السعى يطول شيئا ولكنه ينتهى آخر الأمر بالنّجح ، وإذا تكين معزول عن مصر بعد أن قضى عليها واليا عامين .

وما أراد مؤنس مصر هذه المرة له . فلقد جرب حظه فى الأولى فلم يفلح وخرج من مصر سالما . وخاف أن يُجربه فى الثانيه فلا يفلح ، وقد لا يخرج من مصر سالما . فدفع لهذا الأمر غيره . وحَسْبه أن يكيد لتكين . وحسبه أن يهزم تكين . وإذا مصر تستقبل أبا قابوس واليا عليها بعد تكين . غير أن المصريين كانوا يحبون فى تكين أشياء كثيرة :

أحبوا فيه ورعه . فلقد كاد يرتفع إلى طبقة المحدثين ، إذ حدثّ عن القاضى يوسف وغيره ، وأحبوا فيه هيبته .. فلقد كان مهيبا ذا وقار . وما أعلق القلوب بكل ما هو جليل وبكل ما هو مَهيب . وأحبوا فيه فضله . فلقد كان ذا خُلق وذا مبدأ ، وما أثبت الناس على حب من يثبتون على رأيهم وعلى مبادئهم .

من أجل هذا الحب الذى انطوت عليه قلوب المصريين ثارت تلك القلوب لعزل تكين . وضيق الجند الخناق على أبى قابوس وهوّنوا من شأنه . ولم يفلح أبو قابوس كما لم يفلح مؤنس الخادم الذى عرّض أبا قابوس لتلك المهانة . لم يفلح هذا ولا ذاك فى أن يُعيدا الأمن إلى نصابه ولا فى أن يردّا المصريين إلى قبول ورضا . والذى لا شك فيه أن ثورة المصريين كانت عنيفة عُنف حبهم لتكين ، يدلنا على ذلك أن هذا الوالى أبا قابوس لم يستطع البقاء فى ولايته أكثر من أيام ثلاثة . وإذا هو بعدها ناج بنفسه خارج من مصر .. ليفسح السبيل أمام تكين ليعود إلى مصر واليا عليها للمرة الثالثة .

ولكن مؤنسا على هذا لم يهدأ وبقى يكيد لتكين . واحتال فأَوهم

الخليفة بما سيكون فى مصر من فتنة إن بقى تكين فيها . وجازت هذه الحيلة على الخليفة . فإذا هو يأمر بإخراج تكين إلى الشام فى جمع كبير من أهل الديوان . وإذا هو يولى على مصر هلال بن بدر مكان تكين .

ولكن تكين – كما قلت لك – قد أحب مصر وأحبته مصر ، ومن أحب لا يهدأ حتى يحقق ما يحب . يستهين بالعقبات ولا يأبه للصعاب ، ولا يخاف النذر ولا يثنيه الإبعاد . فمضى يسعى . وقد جرب السعى فلم يخنه السعى ، فامتلأ ثقة ولم يغتر ، ولبث يترقب ، فإذا مصر لا تستقيم لهلال بن بدر كما لم تستقم لأبى قابوس ، ولكن أبا قابوس خرج عن مصر بعد ثلاثة أيام من ولايته مطرودا وخرج عنها هلال بن بدر بعد عامين من ولايته معزولا .

وما كاد تكين يفرح بعزل هلال حتى اهتم بتولية أحمد بن كيغلغ . فرح حين عُزل هلال لأنه ظن أن الأمر سيؤول إليه . واهتم حين ولى أحمد بن كيغلغ لأنه ظن أن الأمر قد خرج من يديه ولكن تكين يحب مصر وتحبه مصر – كما قلت لك – فلم ييأس ولبث يترقب . وكان تكين كبير الثقة فى المصريين يعرفهم على الولاء له .

وما كذب المصريون تكين ولا كذب تكين ظنه بالمصريين ، وإذا المقتدر يخضع لهذه القوة الثائرة فيعزل ابن كيغلغ كما عزل أبا قابوس من قبل ، خضوعاً لتلك القوة الثائرة .

ولقد عرف المقتدر أن المصريين حين ثاروا بأبى قابوس كانوا يطلبون تكين فأجابهم إلى ماطلبوا ، ولقد علم المقتدر أن المصريين حين ثاروا بابن كيغلغ كانوا يطلبون تكين فأجابهم إلى ما طلبوا .

وعاد تكين إلى مصر ليلى أمرها للمرة الرابعة .

وتطول ولايةَ تكين على مصر هذه المرة ويبقى والياً عليها تسع سنين ،

من سنة اثنتى عشرة وثلثماثة إلى أن مات فى ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلثمائة .

وهكذا شُغف تكين بحب مصر ، وهكذا عنّاه هذا الشغف كثيراً ، فما إن وليها للمرة الرابعة وطالت بها إقامته .. حتى فكر فى أن تكون له ولولده من بعده . فإذا هو يوصى لابنه محمد ، لايريد أن يجعل الأمر للخليفة يولِّى عليها من يشاء . وإنما يريد أن يجعله له هو يولى من يشاء ، يملى عليه هذا الحب لمصر الذى عرفت مكانه من قلب تكين ، فإذا هو حين همّ أن يودع الحياة يجعلها لابنه .

– ٦ –

ولقد مر بك أن القاهر ولّى محمد بن طغج مصر بعد موت تكين ، ولكن مصر كما علمت .. كان كرسى الولاية فيها مشغولا بابن لتكين ، كان غير وال بل متغلِّب على الولاية ، عهد بها أبوه إليه وما عهد بها إليه الخليفة ، كما مرَّ بك .

ومضى ابن تكين يحكم ، يعينه على ذاك الحكم المغتصب صاحب الخراج محمد بن الحسين الماذرائى . وبقى محمد بن طغج بدمشق لم يدخل مصر ، يُدعى له على منابرها وهو مُقيم بدمشق .

وما استمتع ابن طغج بهذه الولاية الرسمية غير اثنين وثلاثين يوماً ، ثم عزله بعدها القاهر وولى مكانه أحمد بن كيغلغ .

وكانت الحرب بين الوالى الجديد وبين ابن تكين ، وكما اجتمع الناس حول ابن تكين ، انفضوا من حوله ليجتمعوا حول ابن كيغلغ ، وإذا ابن تكين قليل بمن بقوا معه . وإذا ابن تكين يرى أمره فى إدبار ، فيعزم على الفرار ، ويخرج من مصر ليلا . وإذا ابن كيغلغ يرى أمره فى إقبال فيعزم على الدخول ، ويخرج والٍ ليدخل والٍ .

وما تم هذا فى يسر . فلقد كان عسيراً على الخارج خروجه . كما كان عسيراً على الداخل دخوله ، ولكن الشيء الذى مرّ أعسرَ من هذا وذاك ما ذاقه المصريون فى هذه الفتنة وفى هذه الحروب من أجل الفتنة ، فلقد قتل منهم كثير ، وعذب منهم كثير .

ولكن هذا الخارج حين خرج لم يفقد الأمل ، وهذا الداخل حين دخل لم يطرح الوجل ، فحين خُلع القاهر ووُلّى الراضى - فى ذلك الحديث الذى مر بك - رجع ابن تكين إلى مصر يدّعى أن الراضى ولاّه .

وهكذا كانت تجرى الأمور تمليها روح السلب وروح الاغتنام ، من ظفر غلب ، ومن احتال كسب ، ليس ثمة نظام وليس ثمة حكم يُرعى .

ولكن المصريين كانوا فى ظل هذه الفوضى الضارية يملكون أمرهم ، ويملكون أسباب النظام ، طاعتُهم لصاحب الأمر وإن جار ، لا يبيعون تلك الطاعة بقليل أو كثير ، لأنهم كانوا أحرص ما يكونون على أن يتهيأ للدولة فى ظل الوحدة والكلمة المجموعة شيء من الخير ، وكانوا أحرص ما يكونون على أن تبقى الكلمة للخليفة ، لا يحبون أن ينفكوا عنه .

وما ثاروا على أبى قابوس إلا لأنهم رأووا الخليفة مغلوباً على أمره حين عَزله ، وأن الذى قضى بذاك مؤنس الخادم لا الخليفة ، وهم حين رأوا ابن تكين لايلى أمرهم باسم الخليفة ، نفضوا أيديهم من طاعته ، مع حبهم لأبيه وحربهم من أجله ، وحين رأوه يدخل عليهم مصر بدعوى كاذبة لم ينطق بها الخليفة ، ولم يَقُلها .. انضموا إلى من ولاّه الخليفة وتركوا من لم يولّه ، فحاربوا مع ابن كيغلغ ولم يحاربوا مع ابن تكين .

ولقد خرج ابن كيغلغ لقتال ابن تكين ، حين رجع إلى مصر يطلبها باسم تلك الدعوة المريفة ، وهزموه وأسروه وجاءوا به أسيراً إلى ابن كيغلغ ، فنفاه ابن كيغلغ إلى صعيد مصر .

غير أن الأمور ماكادت تصفو لابن كيغلغ حتى التبست عليه ، فإذا الراضي الذى ادعى ابن تكين أنه ولاّه مصر زوراً ، يعزل ابن كيغلغ حقّا ، وإذا كتاب الخليفة يأتيه بالعزل وولاية محمد بن طغج .

وكانت كبيرة على نفس ابن كيغلغ ، فخرج للقاء ابن طغج فى جيش كثيف ، واذا بينهما حرب ، عسكر ابن كيغلغ فيها جموع من المصريين ، وعسكر ابن طغج فيها جموع من الوافدين .

وإذا الحرب تدور ، ولكنها حين دارت لم تلبث غير قليل حتى تكشفت عن هزيمة ابن كيغلغ ونصر ابن طغج .

ومانهزم المصريون عن ضعف ، ولكنهم كانوا كما قلت لك يدينون للخليفة بالطاعة ، ولايحبون أن يخرجوا عن هذه الطاعة ، لأنهم كانوا يؤثرون القضية العامة على القضية الخاصة . ومأشك فى أنهم خرجوا لهذه الحرب مكرهين ، وقاتلوا مكرهين ، من أجل ذلك لم يمضوا فى الحرب طويلا .

وحين أدرك ابن كيغلغ إفلات الامر من يديه أسلم الأمر إلى ابن طغج ، وأخذ يعتذر إليه بأنه ما أراد حربه ، ولكن المصريين خرجوا لحربه بغير إرادته .

هكذا اعتذر ابن كيغلغ لابن طغج . يريد أن يغرى صدر ابن طغج على المصريين ، ومأظنك يغيب عنك لم أراد ابن كيغلغ هذا ، ومأظنك تؤمن أن المصريين كانوا يقوون على الخروج للقاء ابن طغج قهراً عن ابن كيغلغ ، ومأظنهم حين خرجوا قهراً عنه قهروه على الخروج على رأسهم . ولكنها كلمة جاءت على لسان ابن كيغلغ لتدلك على صدق مادعيته أنا للمصريين ، وأنهم حين خرجوا على ابن كيغلغ لخروجه على الخليفة ، كاد لهم ابن كيغلغ ، يريد أن يوقع بهم وأن يعرضهم لبلاء شديد .

ولقد آن لك أن تعرف مزيداً عن الإخشيد محمد بن طغج قبل أن نأخذ فى حديثه والياً على مصر ثم صاحب دولة .

والمؤرخون ينسبون ابن طغج هذا إلى فرغانة - كورة فيما وراء النهر متاخمة لتركستان ، ويزيدون فيقولون : إنه من أولاد ملوكها مستأنسين بلقبه الذى كان له : « الإخشيد » إذ هو لقب ملوك فرغانة ، كما كان « أصبهبذ » لقب ملوك طبرستان ، و« صول » لقب ملوك جرجان و« خاقان » لقب ملوك الترك ، و« الأفشين » لقب ملوك أشروسنه ، و« سامان » لقب ملوك سمرقند ، و« قيصر » لقب ملوك الروم ، وكسرى » لقب ملوك العجم ، و« النجاشى » لقب ملوك الحبشة ، و« فرعون » لقب ملوك مصر . ويتبعون هذه فينسبونه قائلين هو : « محمد بن طغج بن جف ابن بلتكين بن فوران بن مورى ، أبو بكر الفرغانى التركى » .

ولايعنينى من هذا كله غير أنه واحد من هؤلاء الأتراك الذين دخلوا على الدولة العربية مع من استجلبهم الخلفاء جنداً لهم ، لمَّا أن فسد مابينهم وبين الشعب ، وباتوا يخشون هذا الشعب الذى خلافتهم إليه ومنه ، وخالوا أنهم حاكموه بالمأجورين من غيره ، فإذا هم والشعب محكومان بهؤلاء المأجورين ، وإذا ماأرادوه لأنفسهم من حماية على أيدى هؤلاء المأجورين كان أول من انتهكها هؤلاء المأجورون ، وإذا هم حين أرادوا أن يأمنوا خافوا ، وحين أرادوا أن يعزوا بهؤلاء على الشعب صغروا بهؤلاء فى أعين الشعب ، وإذا هم قد عرضوا أنفسهم والشعب لمحن كثيرة .

نعم . لقد كان الإخشيد واحداً من هؤلاء ، وكان المعتصم قد جلب إليه من فرغانة جملة ، وكان جف فيمن قدِموا من هؤلاء الفرغانيين .

ولقد أفسح المعتصم لهؤلاء المجلوبين صدره ، وعدهم جنده الذين بهم

يقوى على أهله ، وأقطعهم قطائع بُسر من رأى ، ولقد بقيت لجف قطائع تحمل اسمه بسر من رأى إلى أمد طويل بعد وفاته .

وعاش جف بُسر من رأى خلافةَ المعتصم ثم المتوكل إلى أن مات ، وكان موته ليلة قُتل المتوكل ، ابن المعتصم ، سنة سبع وأربعين ومائتين ، قتله مماليك أبيه الأتراك بإيعاز من ابنه محمد المنتصر ، إذا كان أبوه المتوكل أراد إقصاءه عن ولاية العهد .

وحين مات جف وقتل المتوكل ، لم يجد أبناء جف فى ظل المنتصر ، قاتل أبيه المتوكل ، ماكان يجده أبوهم جف عند المعتصم ثم المتوكل . بل لعلهم وجدوا شيئاً يخيفهم ويحذرونه ، لما كان لأبيهم من صلة وثيقة بالمتوكل بعد المعتصم .

من أجل ذلك خرج أولاد جف يلتمسون الحياة فى غير بغداد ، وفى ظل رجل غير المنتصر ، فاتصل طغج بن جف بلؤلؤ غلام ابن طولون ، ووصله هذا بأحمد بن طولون صاحب مصر ، فكان من قواده ، وبقى كذلك إلى أن مات أحمد بن طولون ، فضمه إليه أبو الحسن خمارويه بن طولون ، وبقى مع خمارويه إلى أن قتل خمارويه سنة اثنتين وثمانين ومائتين . عندها عاد طغج إلى المكتفى بالله ، وكان المكتفى بالله على نمط آباء له مكتفياً بغير الله ، وبغير أهله فقربه إليه وخلع عليه .

وكان وزير المكْتفى عند ذاك .. العباس بن الحسن ، وكان هذا الوزير ذا كبْر وذا غطرسة ، يحب أن يرى الناس من حوله أتباعاً مُلجؤون إليه ، وكما أراد هذا للناس أراده لطغج ، ولكن طغج لم يكن ممن يرضون هذا الذى رضيه الناس .

وحين أحس العباس هذا من طغج أغرى به المكتفى ، والملوك إما أن يملكوا أمرهم كله ، وإما أن يفقدوه كله مع رجالهم والمحيطن بهم . وكان

المكتفى قد فقد أمره كله مع العباس ، فما إن أغراه بطغج حتى استجاب له ، فإذا هو يمسك بطغج ويمسك بابنه محمد ، وإذا هو يودع الوالد والولد السجن ، وهو الذى استقبل الوالد والابن منذ قليل بالإجلال والإكبار .

وما قوى طغج على السجن فمات فيه ، وبقى الولد محبوساً مدة إلى أن أتاح الله له من يشفع فيه عند الخليفة ، فأطلق سراحه وخرج من السجن منعماً عليه .

ولكن الابن لم يَنْس ثأره ولا ثأر أبيه عند العباس ، فما زال يترصده حتى رآه مقتولا على يد الحسين بن حمدان ، عندها اطمأنت نفسه وشفى حقده .

ولكن ابن طغج خاف ما فعل ، وخاف معه أخوه عبدالله ، فخرجا فارين ، عبيد الله إلى ابن أبى الساج ، ومحمد إلى الشام ، وأقام محمد مختفياً فى البادية سنة . ثم اتصل بأبى منصور تكين ، فكان من أجلّ أعوانه ، وبقى معه إلى أن فسد ما بينهما ، كما مر بك ، وخرج عن مصر وعن تكين هارباً إلى الشام .

ولقد كان لابن طغج محمد شأن أى شأن مع الذين كانوا يقطعون الطريق على الحُجاج ، أيام كانت عمان وجبل الشراة لتكين ، ذاع بهذا الشأن صيته حتى بلغ الخليفة المقتدر ، حدثته به عجوز كانت فى الحج ، فأنفذ الخليفة المقتدر إلى ابن طغج خلعة وزاد فى رزقه .

ولقد ذكَّر الخليفةَ بهذه محمد بن طغج حين خرج عن ابن تكين فارا ، وذكَرها له الخليفة فولاه الرملة ثم ولاه دمشق ، فلم يزل بها إلى أن ولاه القاهر مصر سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ، بعد موت تكين ، كما مر بك .

وهكذا خلصت مصر ولاية لمحمد بن طغج بعد هذا الكفاح الطويل الذى مر بك . ولقد دخلها محمد بن طغج يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة .

ولاه إياه الخليفة الراضى . ويقولون : إن الخليفة الراضى هو الذى لقبه هذا اللقب « الإخشيد » . لم يحمله معه « جف » جد محمد بن طغج من « فرغانة » حين خرج منها إلى بغداد ، وإنما منحه إياه الراضى فيما يقولون .

والذين يقولون إن الراضى لقّبه به سنة سبع وعشرين وثلثمائة ، أى بعد نحو من أربع سنين من ولاية ابن طغج مصر . يدلوننا على شىء ، يدلوننا على أن الراضى كان راضيا عن محمد بن طغج مكرماً له .

وما خفى على الراضى معنى هذا اللقب حين لقب به محمد بن طغج ، فلقد كان يعلم أنه لقب ملوك « فرغانة » ولعل الراضى حين لقّب محمد بن طغج هذا اللقب .. كان يريد أن يؤمن الناس بما آمن هو به حقًّا أو باطلا ليجمع الناس على تبجيل ابن طغج والتمكين له فى القلوب .

وما إن عُرف محمد بن طغج بهذا اللقب حتى دُعى به له على المنابر ، وحتى اشتهر به فدعاه الناس بهذا اللقب ، وأنسوا اسمه ، وأصبح هذا اللقب علماً عليه ، يقول الناس : الإخشيد ، ولا يقولون : محمد بن طغج .

وهكذا بدأت الأحوال تخدم محمد بن طغج حين ولى مصر ، وبدأت تمهد السبيل أمامه إلى شوط بعيد . وما كان محمد بن طغج رجلا خاملا لا يفيد من الظروف المتاحة له ، بل لقد كان يقظاً وكان حازماً وكان مدبراً ، وكان بعد هذا كله ينظر نظرة بعيدة إلى هذا الأفق البعيد . ومن مَلك الحزم واليقظة والتدبير ملك أن يحمى نفسه ، ويمهّد لأمله ويحوطه

بما يضمن له التحقيق . من أجل ذلك .. التفت محمد بن طغج إلى جنده يكرمهم ويؤثرهم على من سواهم ، ويسبغ عليهم من فضله وإحسانه ، إذ هم عدتُه التى سوف تثبِّت له ما يريد تثبيته ، والتى سوف تحقق له ما يريد تحقيقه ، إن هم كانوا معه على الشوط .. ضَمن هذا الشوط ، وإن هم تخلفوا معه عن المضى فى هذا الشوط .. تخلف هو ولم يبلغ ما يريد .

عرف ابن طغج هذه الحقيقة فلم يقصر فى حق جنده ، بل لقد جاوز ما يفعله مثله إلى غيره ، حتى تعلق به جنده وأصبحوا به مغرمين .

ولعل شيئاً آخر قَرّب ما بين الجند وبين محمد بن طغج ، إذ الجندية فيما سلف .. كانت تحيا على الشجاعة والفتوة والإقدام ، وكان مَنْ يُعرف بهذا يُغْرَى الناسُ به إكباراً وإجلالا ، وينال صاحبه بين أنداده من الجنود أمثاله ألواناً كثيرة من التأييد ، وألواناً كثيرة من النصرة ، ولقد كان محمد بن طغج قويا جلداً عنيفاً فى تلك القوة كل العنف ، لا يكاد يجر قوسه التى يرمى بها غيرُه ، فلعل تلك الصفة ، صفة القوة التى تميز بها ابن طغج ، هى التى مكنت له فى قلوب جنده وجمعت جنده على إكباره .

بهؤلاء الجند الذين لفهم حوله ابن طغج والتفوا هم حوله استطاع ابن طغج أن يقضى على تلك الثورة التى أثارها عليه ابن كيغلغ وأصحابه ، كما استطاع أن يقضى على الفتنة التى تحركت بتحرك جموع القائم بأمر الله ، ابن المهدى عبيد الله العبيدى ، من برقة يقصدون مصر ، يغريهم بذلك أصحاب ابن كيغلغ الذين فروا من مصر عقب هزيمتهم الأولى ، كما استطاع ابن طغج بهؤلاء الجند أن يلقى ابن رائق الخارج على الخليفة فى العريش ، حين قصد ابن رائق إلى مصر .

غير أن الاثنتين الأولين مرتا وابن طغج سيدهما وصاحب الأمر فيهما ، أعنى تلك المعركتين اللتين كانتا بينه وبين ابن كيغلغ ، ثم بينه وبين القائم بأمر الله بن المهدى ثانياً . أما هذه المعركة الثالثة التى كانت بين ابن طغج

وبين ابن رائق فلقد دارت فيها الدائرة على ابن طغج مرة ، ثم دارت فيها الدائرة على ابن رائق مرة ، ولقد قُتل الحسين بن طغج ، أخو محمد بن طغج فى هذه المعركة ، وانفصل المعسكران بعد أن تصالحا ، ومضى ابن رائق إلى الشام . وعاد ابن طغج إلى مصر .

والمؤرخون يروون أن ابن رائق حزن لمقتل الحسين بن طغج ، وأنه أخذه فكفنه وحنطه وأنفذ معه ابنه مزاحماً إلى ابن طغج ، وأرسل معه كتاباً يعزيه فيه ويعتذر إليه ويقسم له أنه ما أراد قتله ، ولقد أرسل مع هذا الكتاب ابنه مزاحماً إلى الإخشيد ليفتديه بأخيه الحسين إن أحب .

ولقد أرضى الإخشيدَ هذا الذى فعله ابن رائق ، فتلقى مزاحماً بالترحيب ، وخلع عليه وردّه إلى أبيه .

واصطلح القائدان على أن ينزل ابن رائق للإخشيد عن الرملة ، وعلى أن يحمل الإخشيد إلى ابن رائق فى كل سنة مائة وأربعين ألف دينار ، وعلى أن يكون سائر الشام فى يد ابن رائق .

ولكن الذى خسره ابن طغج حرباً كسبه قضاء وقدراً ، فلقد قتل ابن رائق فى معركة كانت بينه وبين بنى حمدان بالموصل ، وما إن انتهى هذا إلى ابن طغج حتى شمر على رأس جنده إلى الشام فضم دمشق إليه .

– ٩ –

وقبل أن أمضى فى وصلك بالدولة الإخشيدية بمصر ، ثم وصلك بأبى المسك كافور ، أحب أن أذكِّرك بأشياء .

أحب أن أذكرك بأن ثمة دولة قامت فى مصر قبل الدولة الإخشيدية ، وهى الدولة الطولونية ، اقتطعت مصر لها من الدولة الإسلامية العامة نصف اقتطاع ، أعنى أنها جعلت مصر لها ، يليها الابن عن الأب دون أن يدخل

الخليفة العباسى فى شيء من ذلك ، فملكت بذلك النصف الحقيقى ، ثم ظلت تلك الدولة تدعو للخليفة العباسى على المنابر ، تقرن اسمه باسم السلطان الطولونى ، فنزلت بذلك عن النصف الاسمى ، والخلفاء العباسيون على ذلك راضون ، لأنهم كانوا ضعفاء مختلفين ، وكانت الدولة العامة ضعيفة بضعفهم مختلفة باختلافهم ، فلم يقو الخلفاء ، ولم تقو الدولة على غير هذا الرِّضا .

وأحب أن أذكرك أنه حين اختلف الطولونيون على أنفسهم ، وقَتل شيبانُ بن أحمد بن طولون .. ابنَ أخيه هارون بن خمارويه ، سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، ليظفر بسلطان مصر دونه ، أيقظ ذلك الخلافةَ العباسية الغارقة فى سبات من الضعف ، وأيقظ ذلك الطامعين من القواد حول الخليفة الضعيف المستسلم لمن حوله ، فإذا محمد بن سليمان الكاتب يدخل مصر ويقبض على شيبان ، ويقبض على كل من تربطه بالطولونيين صلة من قرابة أو عون ، لينفيهم جميعاً عن مصر إلى بغداد على أقبح وجه ، وإذا الدولة الطولونية أثر بعد عين ، وإذا أهلها مشردون ، وإذا دورهم وما شيدوا من ميادين وقصور خراب تنعى من أقامها وبناها ، وإذا مصر تعود بنصفيها الحقيقى والاسمى إلى الخليفة العباسى ، سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

وأحب أن أذكرك بشيء قدمته عن طغج أبى الإخشيد محمد بن طغج فى ظل هذه الأسرة الطولونية ، أجمله شيئاً وأزيد فيه شيئاً ، فلقد خدم طغج خمارويه ، وخرج على ابنه أبى الجيش ، وكان طغج عندها أميرا لأبى الجيش على دمشق ، لأنه لم يكن يراه أهلا لذلك . وكان يميل مع المائلين إلى تولية نصر بن أحمد بن طولون ، وحين قَتل أبو الجيش عمه نصر بن أحمد بن طولون .. قوى طغج فى خلافه على أبى الجيش مع المخالفين عليه . وما إن قتل أبو الجيش وآل الأمر إلى هارون حتى استعمل هارون على دمشق طغج بن جف . ولقد بقى على الشام والياً

للطولونيين ، وحين قَتل شيبانُ بن أحمد بن طولون ابنَ أخيه هارون ، كان طغج من الناقمين على شيبان ، وكان طغج فيمن أعان محمد بن سليمان على الدخول إلى مصر يؤيده بما يملك .

وأحب أن أذكرك أن محمد بن سليمان حين خلا له الأمر فى مصر وخلص من الطولونيين .. رغب فى أن يخلص من هؤلاء القواد والأمراء الذين كانت لهم سابقة مع الطولونيين ، لا يعنيه أنهم أعانوه وخرجوا معه عليهم ، ولكن تعنيه أطماعهم التى قد تكون موصولة بأطماع الطولونيين ، ويعنيه أنهم قد يذكرون ما قدموا له من عون فيدخلون به إلى أطماعهم ، فينتقضون عليه ويحركونها فتنة جديدة .

ولكن محمد بن سليمان لم يُسفّ مع هؤلاء القادة الخارجين على الطولونيين إسفافه مع غيرهم ممن لم يخرجوا عليهم ، ولكنه كما أبعد الطولونيين ومن ينتمى إليهم عن مصر .. أبعد هؤلاء عن مصر .. أبعد الطولونيين والمنتمين إلى الطولونيين إبعاد تشريد ، وأبعد هؤلاء الخارجين على الطولونيين والمنضمين إليه إبعاد تكريم ، فولى طغج بن جف والياً على قنسرين ، وولى بدرا الحمامى والياً على دمشق ، يريد بذلك أن يأمن الأمن كله ، يدبر لأمره بما أوتى من عقل وفطنة ودهاء ، والقدر وراء هذا العقل وتلك الفطنة وذلك الدهاء .

وأحب أن أذكرك أن محمد بن سليمان هذا الذى أراد أن يخلص له أمر مصر ، أو أن يخلص أمر مصر للخليفة العباسى المكتفى ، بعقله وفطنته ودهائه ، لم يستطع أن يمضى يُمد فى إقامته على مصر أكثر من أشهر أربعة ، أُخرج عنها بعدها ليليها عيسى بن محمد النوشرى . فلقد أراد ابن سليمان ، وأراد غير ابن سليمان ممن هم محيطون بالخليفة من ذوى الأطماع .. فإذا إرادة ذوى الأطماع تغلب إرادة ابن سليمان ، فيخرج عن مصر مقطوعاً عليه أمله مُصاباً فى أعز أمانيه .

وأحب أن أذكرك أن النوشرى أقام والياً على مصر خمس سنين ، ثم توفاه الله ، وإذا مصر يليها أبو منصور تكين ، ولاه إياها المقتدر ، وكانت تلك ولايته الأولى على مصر ، وأنه بقى فيها خالياً خمس سنين ، ثم عزل عنها ووليها بعده ذكا الرومى أربع سنين ، بعدها عاد تكين ليلى مصر الولاية الثانية سنتين ، ثم ليعزل عنها بعد هاتين السنتين ليليها أبو قابوس أياماً ثلاثة ، خرج بعدها عن مصر بعد ثورة المصريين به ، كما مر بك .

ولكن تكين لم يعد إلى مصر وإنما عاد إليها هلال بن بدر ليليها سنتين ، يليها بعده ابن كيغلغ عاما وبعض عام ، ثم يعود تكين ليلى مصر الولاية الثالثة تسع سنين .

وأحب أن أزيدك بعد هذا الذى أحببت أن أذكرك به أن طغج بن جف كان له من الأولاد سبعة ، كان أكبرهم محمد بن طغج ، وأن محمداً هذا كان أبوه يستخلفه على دمشق حين يغيب عن دمشق . وحين مات أبوه وصل محمد حبله بحبل عامل الخراج على الشام أحمد بن بسطام ، وكان له نعم العون فى خرجاته إلى الصيد ، حتى غلب عليه اسم « بازيار » ، أى الذى يحمل على يده جوارح الطير التى كانوا يستعينون بها على الصيد .

وحين ولى ابن بسطام خراج مصر صحبه محمد بن طغج إليها . وحين مات أحمد بن بسطام ، وقام ابنه علىّ بولاية الخراج على مصر من بعده ، ظل محمد بن طغج موصولا حبله بحبل الابن ، كما كان موصولا بحبل الأب ، وحين عزل الابن عن خراج مصر ورحل عنها .. بقى محمد بن طغج بها ، بعد أن وصل حبله بحبل تكين واليها ، وتوثقت صلته به حتى أصبح منه بمثابة الابن من الأب ،

وأحب أن أزيدك بعد هذا أن تكين حين عزل عن مصر فى ولايته الأولى وولى دمشق أناب عنه محمد بن طغج فى عمان ، ثم كان هذا

الحادث الذى مر بك حين قضى محمد بن طغج على قطّاع الطرق ، فلفت الخليفة المقتدر إليه ، وخلع عليه المقتدر وزاد رزقه .

وحين عاد تكين إلى ولاية مصر فى ولايته الثانية رأينا ابن طغج يلى الحوفين الشرقى والغربى فى مصر ، قلّده إياهما تكين .

ولكن هذا الصفاء الذى جمع بين تكين وابن طغج لم يلبث أن فسد ، أفسده ابن طغج أولا بأطماعه ، حين استولى على تركة والى الإسكندرية أبى اليمن أحمد بن صالح بعد وفاته ، ولم يُرض هذا تكين فغضب وأساء الظن بمن كان يتخذه ابنا ، وماترك المحيطون بتكين والناقمون على ابن طغج الأمور لتستقيم بينهما بل لقد مكنوا لهذا الخلاف ليزداد ، وإذا الرجلان يحذر أحدهما الآخر ، يدبر ابن طغج لأمره على خفية دون أن يعلن شيئاً ، ويدبر تكين لأمره على خفية دون أن يعلن شيئا ، فلقد كان ابن طغج ولىّ نعمة ومايحب أن يشيع عنه أنه كافر بهذه النعمة ، وكان تكين قد جرى فى ثقته بابن طغج إلى شوط بعيد ، وماكان باليسير عليه أن يرتد عن هذا الشوط فى يوم وليلة .

وهكذا بقي الرجلان يخشى أحدهما الآخر ، وإذا مؤنس الخادم الذى عرفت بُغضه لتكين يعيِّن محمد بن جعفر القرطى على خراج مصر ، بعد أن يصرف عنه الماذرائى ، وإذا الماذرئيون يهيجون لهذا ويثيرونها فتنة على القرطى ، وإذا الخليفة المقتدر يعزل القرطى بعد أن ولاه مؤنس ، وكان ابن طغج موصول الحبل بمؤنس ، موصول الحبل بأعوان مؤنس ، طامعاً فيما عند مؤنس بعد ماكان طامعاً فيما عند تكين ، يرى ماعند تكين قد انتهى بهذا الذى نال منه ، ويرى ماعند مؤنس سوف ينتهى بولاية مصر ، وهاهو ذا قد غاضب تكين فما باله لايُرضى مؤنسا ، من أجل ذلك .. أجار القرطى ، يخفيه عنده حتى لايصيبه مكروه ، وهو حين أجار القرطى يحميه .. كان يرجو أن يبلغ ذلك مؤنسا فيرضيه عنه .

وماكان مؤنس يترك نصيراً له دون أن يمد له يد العون وكأنى بهذا العون قد رسم بين ابن طغج والقرطى ، فلقد كان عوناً محدوداً هذه المرة ، عوناً يخرج به ابن طغج عن مصر آمناً من شر تكين . إلى عمل آخر يليه خارج مصر ، إذ لم يكن عزل تكين عن مصر وتولية ابن طغج مكانه بالأمر اليسير .

ولقد ولّى مؤنس الرملة ابنَ طغج ، ولاه إياها بأمره أو بأمر الخليفة ، يستوى هذا وذاك ، فلقد كان الأمر لمؤنس ، كما كان للخليفة ، يقضيه مؤنس بعلم الخليفة إن صحا الخليفة ، وبغير علمه إن غفل ، ولاأدرى كيف أمضى مؤنس هذا الأمر ، أأمضاه على حين صحوة من الخليفة أو على حين غفلة ؟ وأكاد أميل إلى أنه أمضاه على حين غفلة من الخليفة فما أكثر ماكان الخليفة يغفل .

ولقد انتهى هذا التقليد إلى ابن طغج سرا ، وخرج به ابن طغج إلى الرملة سرا ، وإذا ابن طغج قد ترك ولاية الحوفين إلى الرملة وأصبح بعيداً عن تكين قريباً من مؤنس .

ويرى تكين الشر وهو الذى قد جرب أوله ، فيحاول أن يضم إليه ابن طغج فيرسل إليه ، (ألم نُربِّك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين) ، فيرسل إليه ابن طغج : (ففررتُ منكم لما خفتكم) .

وبهذا انكشف مابين الرجلين وغدا علنا ماكان سرا ، وبات تكين حذراً على ولايته وبات ابن طغج متطلعاً إلى تلك الولاية ، طامعاً فى أن تؤول إليه ، وماأظنه كان يعنيه على أية صورة يتم له ذلك ، غير أن الزمن لم يمتد بتكين طويلا ، فمات قبل أن يلقى ابن طغج يدخل عليه مصر .

وإن الذين يروون لعمرو بن العاص تلك القصة التى سبقت دخوله إلى مصر واليا ، وأنه فى قدمة له إلى مصر تاجرا .. حضر حفلا لأهلها فى

الإسكندرية ، وأن الكُرة التى كان يتقاذفها أبناء الأمراء ، مَن وقعت فى حجره كانت الإمارة له ، فوقعت فى حجر عمرو ، فاستنكر الناس أن يكون هذا العربى أميرا عليهم .

إن هؤلاء الذين يروون هذه لعمرو يروون .. مثلها لابن طغج فيقولون : إن الإخشيد كان يجلس فى دمشق يوما .. فرأى طائرا كان الناس يقولون عنه : إنه حين يدور حول رأس إنسان مرات ثلاثا ويتمنى هذا الإنسان شيئا يجاب إليه . ولقد دار هذا الطائر حول رأس الإخشيد ، واستمع الناس إلى الإخشيد فإذا هو يتمنى مُلك مصر .

وهكذا كان الإخشيد مشغوفا بمصر ، مانظن هذا الشغف كان جديدا عليه ، بل نظنه كان شغفا قديما صحبه حين دخلها مع أحمد بن بسطام ، وصحبه حين كان مع على بن أحمد بن بسطام ، وصحبه حين عاش فى ظل تكين ، ولكن هذا الشغف حين زكاه ماكان لابن طغج من نصر على اللصوص الذين كانوا يقطعون الطريق على الحجاج ، وماكان لابن طغج من بأس فى طرد الفاطميين ، استحال قويّا ، فإذا هو يحركه للخروج على ولىّ نعمته تكين .

ومانظن الذى فعله ابن طغج حين خالف عن أمر تكين ، وحين استولى على تركة والى الإسكندرية ، وهو يعلم أن ولى نعمته يأبى ذلك ولايرضاه ، مانظن هذا إلا كان استملاء من هذا الأمل ، واستملاء من هذا الطمع . ومانظن ابن طغج حين وصل حبله بحبل مؤنس يجير القرطى ويحميه ، إلا كان ينفذ هذا الأمل ويحقق هذا الطمع .

— ١٠ —

وكان على محمد بن طغج – قبل أن تخلص له مصر – أمور ذكرت لك منها شيئاً ولم أذكر لك الباقى .

فما أظننى ذكرت لك أن الإخشيد رشا كاتباً من كتاب الخليفة ليظفر بتقليد زائف يلى به مصر. يذكر ذلك بعض المؤرخين ليدلونا على مبلغ الطمع لحكم مصر فى نفس الإخشيد، وليدلونا على مبلغ الفساد فى البلاط الخليفى. ويستوى أن يكون الإخشيد حاول هذه، ويستوى ألا يكون حاولها، فهى حين تجرى بها أقلام المؤرخين تشير إلى هذين الشيئين اللذين أشرت إليهما: طمع الإخشيد طمعاً أفسد عليه نفسه، وإسفاف البلاط الخليفى إسفافاً أفسد عليه أمره، سواء أوقعت تلك التى أشار إليها المؤرخون فعزوها إلى الإخشيد، أم لم تقع.

وما أظننى ذكرت لك أن الإخشيد اشترى ولاية مصر بثمن آخر غير هذا الثمن الذى يُشك فى أنه دفعه.

فلقد ندب الخليفة الراضى رجلا من رجاله لينظر فى أحوال مصر بعد أن بلبلت عليه لبه تلك الأحوال، وكان هذا الرجل الذى ندبه الخليفة لهذا الغرض هو الفضل بن جعفر.

ولقد أراد الفضل أن تكون كلمته الفاصلة، لا ندرى أحرصاً على الحق أم حرصاً على شىء آخر غير الحق.

ولكن الذى نعلمه أن ابن طغج زوّج ابنته من ابن للفضل هو محمد، وإذا الفضل يُملى اسم ابن طغج على الخليفة، يمليه والياً على مصر.

سبق هذا كله أو بعضه ولاية الإخشيد على مصر، وإذا الإخشيد بعد هذا كله أو بعضه يلى أمر مصر ليؤسس فيها دولة له ولأهله من بعده، على نمط تلك الدولة الطولونية، لينتزع مصر من أحضان الدولة العباسية كما انتزعها ابن طولون، لتكون له ولأهله حقيقة، ولتكون للخليفة العباسى اسماً.

وما انتهى سعى الفضل بن جعفر عند تلك الأولى التى مرت بك، بل

مضى يؤيد للإخشيد بعد أن ولى الإخشيد مصر، ويثبت أقدامه فيها خوفاً من أن ينتزعه الخليفة عنها كما انتزع غيره . فما كان للولايات عرف محفوظ ، ولا كانت لها سُنة متبعة ، بل كانت شيئاً يُبرمه النهار وينقضه الليل ، يجرى رضا ساعة ويجرى نقمة ساعة أخرى ، لا تعرف ساعة الرضا من ساعة النقمة ، ولا ساعة النقمة من ساعة الرضا .

من أجل ذلك كان على الوالى الحريص أن يُمهد لأمره ، وكان عليه أن يحوط هذا الأمر ، ثم كان عليه أن يحوط نفسه مع هذا الأمر .

لهذا كله عمل الإخشيد يمهد بشىء ، ويحوط هذا التمهيد بشىء ، ثم كان عليه أن يحوط نفسه فاستقدم الفضل بن جعفر ليبرّه ويكرمه برا واسعاً وإكراماً كبيراً ، أو قل بَر الفضل بن جعفر وأكرمه الإكرام كله حين قدم إلى مصر .

لقد كان الإخشيد يضمن الفضل بمصاهرته التى مرت بك ، وها هو ذا ضمنه أخرى بهذا الذى استقبله به فى مصر وأعده له ، يدفعه الإخشيد راضياً ويتقبله الفضل راضياً ، وينظر إليه الشعب ساكتاً ، لا ندرى أكان على الرضا أم على السخط .

ولقد حمل الفضل معه قبل أن يقدم إلى مصر هذه القدمة الثمن الذى أخذ به ما أخذ من الإخشيد ، حمل معه خلعاً من الخليفة تشير إلى رضاه عن الإخشيد .

ولقد دفع الإخشيد هذا الثمن الذى نال به الرضا من الخليفة ، دفعه غالياً من أرزاق الشعب وقوته .

وكما دفع الشعب هذا من رزقه وقوته دفع غيره قبل ذلك من دمه وروحه ، حين قتل منه الإخشيد من قتل ليدخل مصر .

وهكذا كان الشعب هو الغارم على صور مختلفة ، إلا أنه على هذا كان ينشد مثلا أعلى ، كان ينشد أن يرى أمر هذه الدولة إلى التئام ، وكان يؤثر أن يرى كلمتها إلى إجماع ، فهان عليه ما بذل ، وأقبل على الإخشيد يمد يده إلى يده . ليستقبل عهداً جديداً يلقى فى ظله كسباً جديداً .

– ١١ –

لقد ولي الإخشيد محمد بن طغج مصر سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ، ولاه إياها الخليفة الراضى كما مر بك . وفى سنة تسع وعشرين وثلثماثة مات الراضى وخلفه أخوه المتقى ، فأَقَرَّ الإخشيد على مصر . وكما اشترى الإخشيد الراضى أو كاد .. اشترى المتقى وأفلح .

فلقد استقبل الخليفة المتقى حياة مضطربة ، طمع فيه القواد ، وطمع هو فى القواد ، فإذا هم فى حرب بيْنَه ، وإذا هو فى حرب معهم ، وإذا هو فى هذه الحرب لا ينجو منها .

وفى غمرة هذه الفتن القائمة استنجد المتقى بالإخشيد ، والتقى المتقى بالإخشيد ، فرأى المتقى من الإخشيد شيئاً يعطفه عليه ويؤنسه به .

رآه يجله إجلالا كبيراً ، ورآه يخضع له الخضوع كله ، ورآه يهدى إلية النفيس والغالي ، ورآه يحمل إليه الأموال حملا ، ويكدس له الطيب تكديساً ، ويحزم إليه المنسوجات حزماً ، ويسوق إليه الدواب سوقاً .

فعل هذا كله الإخشيد حين لقى المتقى ، فعله لاليجله أو يكبره ، ولكن ليخدعه عن نفسه كما خدع غيره من قبل ، فعله ليشتريه كما اشترى غيره . ومابال الإخشيد لايفعل ماينتهى به إلى غرضه ، ثم ماباله لايفعل ماجرّبه ولم تخطئه التجربة فيه .

ولقد رشا الإخشيد الراضى فنال مصر ، ثم رشا الفضل فثبتت قدمه فى مصر ، وهاهو ذا يرشو المتقى ليكتب له المتقى ولاية مصر ثلاثين عاماً .

وهكذا أصبحت مصر تباع وتشترى ، يدفع عنها الولاة الثمن ، ويساوم الخلفاء فى هذا الثمن ، إن رضوا باعوا وإن لم يرضوا قبضوا أيديهم .

وهكذا ضمن الإخشيد ولاية مصر بهذا الثمن الذى دفعه للمتقى ، ضمنها له ولأبنائه من بعده ثلاثين عاماً .

ولقد كان الإخشيد فى غنى عن أن يدفع هذا الثمن الغالى ويوفره على نفسه ، ولاأقول على أصحاب هذا الثمن ، وأعنى بهم الشعب ، فلقد سلب هذا الثمن من هذا الشعب ، وكان هذا الشعب أولى به من الخليفة . كان الإخشيد فى غنى عن هذا الثمن الذى دفعه إلى الخليفة وإلى من حول الخليفة ، لو أن الشعب عدل عن نظرته إلى الخلافة ، وعدل عن نظرته إلى مثله الأعلى ، وعدل عن تقديسه لهذا الحق العام . ولكن الشعب كان لايزال طامعاً فى أن يستقيم للخلافة أمرها ، فحرص على أن تحفظ لها هيبتها لاتفريط فيها .

وهكذا كان الشعب ممعناً فى التضحية ، يدفع عن هذا كله دون ضجر ولاملل .

وحين عاد الإخشيد بهذه - أى بولاية ثلاثين عاماً - أحب أن يعود بالخليفة نفسه إلى مصر ، يجعله إلى جانبه وفى ظله ، فيضمن مصر ويضمن غير مصر ، إذ بقاء الخليفة بعيداً عنه فى بغداد ، وبقاؤه هو بعيداً عن الخليفة فى مصر ، يتيح للحاقدين أن يغيّروا الخليفة عليه . ومانظن الإخشيد كان كبير الثقة بهذا العهد الذى ناله - أعنى ثلاثين عاماً فى ولاية مصر - فهو كان يعرف أن الخليفة الذى أعطاه هذا .. هو الخليفة الذى قد يمنعه هذا ، لاعبرة بوعد ، ولاعبرة بكلمة ، ولاعبرة بعهد ، ولاعبرة بمكتوب .

وانتهز الإخشيد مابين الخليفة المتقى ومابين قائد له يدعى توزون من

نُفرة ، ليجعل الإخشيد من ذلك وسيلة لإقناع الخليفة بالعودة إلى مصر ، إلا أن الخليفة أبى على الإخشيد هذه الدعوة ولم يرحل معه إلى مصر .

وما كان الإخشيد أول من فكر فى هذه ، فقد سبقه إليها ابن طولون ، وماكان غرض الإخشيد ببعيد عن غرض ابن طولون ، وكما أراد ابن طولون أن يؤيد ملكه بوجود الخليفة فى ظله يضمن به لأمره الثبات ، ويضمن به لأمره القوة ، أراد الإخشيد أن يؤيد ملكه بوجود الخليفة إلى جانبه ، يضمن به لأمره الثبات ، ويضمن به لأمره القوة .

وكما انتهز ابن طولون خوف المعتمد من أخيه الموفق ، الذى كان له الأمر فى الجيش ، انتهز الإخشيد حذر المتقى من قائده توزون ، وكما أخفق ابن طولون أخفق الإخشيد ، وكما رفض المعتمد رفض المتقى ، ولقد مات المعتمد قهراً من أخيه الموفق ، وحين عاد المتقى إلى بغداد أكحله توزون فأذهب عينيه ، ونادى بالمستكفى خليفة .

وكما أقر المتقى الإخشيد .. أقر المستكفى الإخشيد سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة . ولاندرى بما اشترى الإخشيد الخليفة الجديد ، فلقد رأينا الخليفة الجديد يعرض عليه إمارة بغداد بعد أن مات توزون . ولكن الإخشيد أبى هذه الإمارة يؤثر عليها ولاية مصر .

ويعزل المستكفى ، ومامضى على خلافته غير عام ، ويخلفه المطيع لله ، فإذا هو يسرع بإقرار الإخشيد على مصر ، ولاندرى كم دفع الإخشيد لهذه أيضاً ، ولكن الإخشيد كما دعا للمستكفى على منابر مصر ، دعا للمطيع على منابر مصر ، يجعل هذه الطاعة الظاهرة ثمناً ثانياً لبقائه على عرش مصر . لايعنيه أن يلقى كل يوم على كرسى الخلافة خليفة جديداً ، مادام يملك أن يدفع ، ومادام يملك هذه الطاعة الظاهرة التى لاتدل على شىء فى القلب .

غير أن الإخشيد لم يترك ماكان يدفع يمر سدى ، ولم يترك ضعف الخلفاء يمر سدى ، وحين أغرى المتقى بهدايا ، وحين استنقذ من المتقى هذا الحق فى الحكم ثلاثين عاماً ، حين ملك الإخشيد هذا كله .. أخذ ينقش اسمه إلى جانب اسم الخليفة على الدنانير منذ سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، يرى مصر له وللخليفة ، لم يرض أن يشاركه الخليفة فى هذا المظهر الاسمى ، بعد أن غلبه على المظهر الفعلى ، والناس حين لايملكون .. يقنعون بأن يكون لهم شىء قليل ، فإذا وقع فى أيديهم هذا الشىء القليل .. طمعوا فيما فوقه . وهكذا إلى أن يخلص لهم الأمر كله . ومانظن الإخشيد كان سيقف عند هذه التى انتهى إليها حين شارك الخليفة فى كتابة اسمه معه على الدنانير ، لو أن الزمن امتد به ، ومانظنه إلا كان يطمع فى أن يستأثر بذلك كله دون الخليفة ، وينال ملك مصر حقيقة واسماً ، خالصاً له كله من دون الخليفة .

– ١٢ –

وفى ذى الحجة من سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ودع الإخشيد الحياة ، بعد أن امتد به العمر إلى أن بلغ السادسه والستين ، فلقد كان مولده فى رجب من سنة ثمانية وستين ومائتين ، قطع من ذلك العمر نحوا من اثنى عشر عاماً على مصر ، استقبل تلك الأعوام الاثنى عشر والياً من الولاة يعطى الخليفة أكثر مما يأخذ ، ثم توسطها يأخذ من الخليفة أكثر مما يعطى ، ثم استدبرها يزحم الخليفة عليها ، فإذا هو صاحب الحظ الأوفر ؛ ثم ضمنها له ولولده من بعده عن رضا من الخليفة لاقهراً عنه ، فإذا مصر له باسم الخليفة ، وإذا هو رب أسرة عرف التاريخ مصر بها ، وما ندرى هل كان يطمع فى غيرها فيقطع هذا الخيط الواهى الذى كان يربطه بالخلافة أم أنه قنع بما انتهى إليه . ويكاد يكون ضعف الخلافة عن أن تنازعه فى قليل أو كثير ، قد أرضاه بالأولى فلم يفكر فى الثانية .

ولكنا على هذا لا نعفيه من أنه كان سيقدم على الثانية لو امتد به الزمن ، فلقد بدأ طامعاً ، والطمع يهوّن على صاحبه العقبات ، ولقد خطا الإخشيد من عقبة إلى عقبة لم يلق كيداً ، من أجل ذلك لا نظنه مات راضياً بما نال ، بل نظنه مات وفى نفسه طمع إلى ما لم ينل ، وما نظنه كان بينه وبين أن يخطو إلى هذا الذى لم ينله إلا تقدير وتمهيد ، عَجِل الزمن به دون أن يتهيأ له ما قدّر ، ودون أن يتم له ما أراد أن يمهد به .

ولكنه على هذا لم يترك الحياة إلا بعد أن ترك ابنه « أونوجور » والياً على مصر من بعده ، وإلا بعد أن عهد إليه بها .

ولقد مات الإخشيد فى دمشق ، وكان ابنه أونوجور عندها خلفاً له على مصر ، أقامه الإخشيد فى مقامه هذا قبل أن يترك مصر إلى الشام .

وكان أنوجور عندها فتى فى الخامسة عشرة من عمره ، ولقد كاد الأمر يضطرب عليه أول الأمر ، كادت أن تخرج ولاية مصر من يديه لسببين : أولهما سن هذا الفتى التى لا تهيئة للحكم ، وثانيهما سعى عمه الحسن بن طغج لينال الأمر دون ابن أخيه .

ولكن هذا الفتى الصغير على هذا أُدخل الحكم لسببين : أولهما هذا العهد الذى أعطاه الخليفة المتقى للإخشيد : قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لذلك أونوجور ، وثانى السببين أن الفتى الصغير كان إلى جانبه فى هذه المحنة رجال يساندونه ، لهم حجتهم فى أن صغر السن لا يحول بين الصغير وبين أن يلى .. فمن قبله ولى أمر مصر هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ، وكان أصغر منه سنا .

ولقد كان الخليفة المعز فى شغل يضعفه عن أن يعيد النظر فيما أعطى سلفه المتقى فيغير ويبدل ، فأقر أونوجور على ولاية مصر والشام ، لم يأخذ منه شيئاً مما كان لأبيه الإخشيد .

وحين غلبت كلمة المساندين لأونوجور كلمة المخالفين عليه ، وحين جاءت كلمة الخليفة تعطى أونوجور وتحرم عمه ، سكن المصريون لا يقولون شيئاً ، لأنهم كانوا يحبون أن تمضى أمورهم بعيدة عن فتنة ، سوف لا ينالهم منها إلا الضر الشديد ، ولأنهم كانوا أحرص ما يكونون على أن تستقيم أمورهم الخاصة فى ظل استقامة الأمور العامة . وما عليهم فى أن ينزلوا عن شىء خاص ليحموا شيئاً عاما .

وما نظن أن المصريين كانوا يجهلون الفتنة التى أوشكت أن تُطل عليهم برأسها ، وما نظنهم كانوا لا يقدّرون ما سيجره عليهم هذا الخلاف حول هذا العرش ، يصور لك هذا قول شاعرهم ابن طباطبا :

مـات إخشيـدنـا فهـا نحن فى أمر مريـج وكـل كف تُمـد
كلكم طـالب بجـد وحرص إنمـا الشـأن أن يـوافـق جـد
يـا ولاة الأمـور إن لم تنيبـوا لانتظـام فقـد تنـاثر عقـد

فها أنت ترى أن الأمر كان على أن يثير محنة من المحن الكبيرة التى شقى بها المصريون حول هذه الولاية ، وذاقوا من ولاياتها الموت والجوع ، من أجل ذلك .. سكتوا أولا : على هؤلاء المختلفين الطامعين حتى يفرغوا من خلافهم ، ثم سكتوا ثانياً : حين رأوا كلمة الخليفة المعز تقضى فى هذا الخلاف ، واستقبلوا الأمر يعطون ولا يأخذون ، ليعينوا هذه الخلافة على أن تمضى ، وليعينوها على أن تحمل عبئها الكبير ، وليعينوها على أن تشق طريقها وسط هذه المصاعب المحيطة التى كادت تعصف بالدولة العربية العظيمة ، لا يعنيهم أنهم باذلون ولكن يعنيهم أن تستقيم الأمور .

وما ساند الساندون أونوجور إلا وهم طامعون فى صغر سنه لينالوا هم من ورائه كسباً ، لا يقوى هذا الصغير على منعهم منه ، ولقد رأوا إن هم ساندوا الكبير - أعنى العم - لن يستطيعوا أن ينالوا شيئاً .

ولقد ارتضت أم الصغير عمل المساندين فنزلت عن الكثير لتجزيهم أجر ما فعلوا .

وأحب قبل أن أمضى معك فى الحديث عن أونوجور أن أصلك بحديث رجلين ، كان لهما الفضل فى التمكين لهذا الفتى الصغير ، هذان الرجلان اللذان أحب أن أحدثك عنهما هما الماذرائى أبو بكر محمد بن على ، وكافور الإخشيدى ، وسأحدثك عن أولهما أولا لأفرغ من شىء سبق ، كان له أثر فيما لحق .

ولكنى قبل أن أدخل فى هذا الحديث أحب أن أختم صفحة الإخشيد ، وأحب أن أسوق لك ما انتهى إلى المؤرخين عنه مما يتصل به رجلا من الرجال فيه ما فيهم من إقدام وإحجام ، وجرأة وخوف ، وشجاعة وجبن ، وحرص واستهتار ، وبخل وجود .

– ١٣ –

لقد كان هذا الرجل القوى – أعنى الإخشيد – الذى عرفت شيئاً عن قوته ، تلك القوة التى لم يلحقه فيها معاصر ، كان هذا الرجل القوى جسما عليل النفس سوداى الطبع ، يعاوده فى الحين بعد الحين صرع ، يهيج به فيعدو طوره ، ويخرج به عن سكونه ، وإذا هو عنيف بمن معه بعد رفق ، غليظ بعد حلم ، هائج مائج بعد وقار واتزان .

والويل للناس إن ألموا به حين تثور مرته ، عندها يستقبلون النكر ممن لا يليق أن يصدر منه النكر، أعنى والياً ترده الولاية إلى وقار واتزان .

فإنهم يحكون أن مجلسه ضم يوماً قاضيين من القضاة ، قاضياً للشافعية هو أبو بكر بن الحداد ، وقاضياً للمالكية هو أبو الذكر محمد ، ويدور بين القاضيين نقاش يرتفع معه صوتاهما شيئاً . وكان مثل هذا اللغط يهيج الإخشيد ويخرجه من دعة إلى ثورة ، ولقد هاج الإخشيد وثار لا لأن شيئاً مما وقع كان يمسه فيغضب ، ولكن ما وقع كان فيه ما يحرك نفسه المُعتمة ، فإذا هو هائج ، وإذا هو قد أنسى أن بين يديه قاضيين من جلة

القضاة ، وأنهما لم يفعلا غير هذا الذى بدا على لسانيهما عالياً شيئاً ، فإذا هو يكاد يأمر بأخذ عمامتيهما ونزعهما عن رأسيهما ، امتهاناً لهما وتشهيراً بهما .

من أجل ذلك كان الإخشيد يركن إلى الأماكن البعيدة عن الجلبة حيث السكون والدعة ، يفعل ذلك أو يُفعل به ذلك ، حين يحس أو يحس من معه أن به مسّا من صرع .

ويختلف المؤرخون بعد ذلك فى الإخشيد ، يصفه بالشجاعة قوم ويصفه بالجبن قوم آخرون . ولقد صدق هؤلاء كما صدق أولئك ، غير أنهم أنسوا أن الرجل كان مريضاً يصدر عن طبيعتين : طبيعته الصحيحة ، وطبيعته المريضة ، وكان مع طبيعته الصحيحة يصدر عن حزم ويقظة وحسن تدبير وشجاعة ، تلك هى الطبيعة التى بلغ بها مآربه . وكان مع طبيعته المريضة يصدر عن قلق وغفلة وبلبلة وجبن ، وتلك هى الطبيعة التى أفسدت رأى الناس فيه .

وكما قالوا إنه شجاع قالوا إنه جبان . وكما قالوا إنه حازم قالوا إنه أخرق ، وكما قالوا إنه مدبر قالوا إنه مخلط . عرفوه فى صحته فوصفوا الجانب الحق منه ، وعرفوه فى مرضه فوصفو الجانب غير الحق منه . ولكن الرجل كان حقه معزوا إليه وكان غير حقه معزواً إليه أيضا ، ولهذا وذاك أثره فى الحياة وأثره فيه ، فلقد كان والياً يحسب ما له وماعليه ، ولم يكن فرداً من عامة الناس لا يحسب ما له وما عليه .

يروون أن هذا الرجل الذى عُرف شجاعاً فى الحرب حين كان يصح عرفوه جباناً فى غير الحرب حين كان يمرض ، فكان له ثمانية آلاف مملوك ، يحرسه فى كل ليلة منهم ألفان ، وكان إذا سافر جعل خيام الخدم إلى جانب خيمته ، وكان على الرغم من تلك الحيطة البالغة لا يهجع فى خيمته ولا يبيت فيها ، بل كان يمضى سرا فينام فى خيمة من خيام

الخدم ، لايستقر فى خيمة ليلة كاملة ، بل كان يفزع فيترك خيمة إلى خيمة ، وهو قلق هلع .

بهذه عرفه الناس وما استطاعوا أن يحكموا عليه حكما واحداً ، بل اختلف حكمهم ، ومن أجل ذلك رأينا محمد بن عبد الرحمن الروذبارى نائب الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات فى مصر يقول للإخشيد ، حين شاوره فى أمر من أموره : فيك أيها الإخشيد خلتان مذمومتان : البخل والجبن .

وما نظن الروذبارى حكم على الإخشيد إلا وهو ينظر إلى طبيعة من طبيعتين ، أعنى تلك الطبيعة المريضة ، التى خلقت من الإخشيد رجلا جباناً ثم رجلا بخيلا .

وكما كان يرد هذا المرض الإخشيد إلى جبن .. كان يرده إلى بخل . ولقد رووا له فى ذلك مُلحاً كثيرة . عاش الناس يتندرون بها أيامه وما بعد أيامه .

يروون أن مزاحم بن محمد بن رائق زوج ابنته دخل عليه لابساً فروا ثميناً ، فأعجب الإخشيد بالفرو ، وما كان يعز عليه وهو ملك وفى يده السلطان والمال أن يحصل على مثل هذا الفرو ، أو ما هو أغلى منه وأثمن . ولكن بخل الإخشيد كان فوق ملكه وفوق سلطانه وفوق ماله . يذعن لهذا البخل يملى عليه ولا يذعن لما يمكنه منه ملكه بسلطانه وماله . يصرفه هذا البخل عما لا يليق .. فيوعز إلى رجل من رجاله بأن يحتال على مزاحم يوهمه أن الإخشيد يريد أن يخلع عليه . ويوهمه أن تلك الخلعة التى يريد أن يخلعها عليه الإخشيد تقتضى مزاحماً بأن يخلع فروه .

وما ظن مزاحم أن الإخشيد يريد غير ما أنهاه إليه هذا الرجل من

رجاله . وما ظن مزاحم أن الإخشيد يريد أن يمكر به مكراً دنيئاً لا يليق بملك ، إذ المُلك يقتضيه أن يترفع عما يقع فيه السوقة المعوزون ، ولا يليق برجل موسر .. بله ملك يمكنه يساره الواسع من أن ينال ما يحب . من أجل ذلك خلع مزاحم فروه . ومن أجل ذلك لبث مزاحم ينتظر الخلعة التى وعُد بها والتى خَلع من أجلها فروه . ويطول الوقت بمزاحم دون أن يُخلع عليه ودون أن يُرد إليه فروه ، وحين يقلق مزاحم يساوره الشك ، وحين يساوره الشك يبحث عن ذلك الرسول الذى أخذ فروه يستنجزه ما وعد ، وإذا هذا الرسول يذهب ويعود دون أن يقول شيئاً أو يأتى بشىء ، فيشتد على الرسول ، فلا يجد الرسول مناصاً من أن يقول شيئاً ، فيقول لمزاحم : إن الإخشيد قد غلبه النوم فنام .

ويمضى مزاحم حزيناً ليعود من الغد إلى الإخشيد حزيناً ، وحين يدخل مزاحم على الإخشيد يجد الفرو عليه ، فيستخزى مزاحم وما أستخزى الإخشيد ، استخزى مزاحم فلم يقل شيئاً ، وما أستخزى الإخشيد فقال : ماأصفق وجهك ؟ لقد أبديت لك إعجابى بالفرو فلم تنزل عنه لى ، ولو قد فعلت لشكرتك . وها أنت ترى أنى أخذته منك دون أن يكلفنى هذا الأخذ شكرك .

أرأيت إلى هذا الذى رووه عنه ، فهو إن صح دلّك على أن الإخشيد كان بخيلا ، وأن هذا البخل أفسد عليه نفسه ، وأفسد عليه أمانته ، وأفسد عليه خلقه . ولقد كدنا نكذب هذا الذى رووه عنه لولا شىء آخر يكاد المؤرخون يجمعون عليه ، ويكاد هذا الشىء الذى يجمعون عليه يؤيد ما لم يجمعوا عليه ، فإن المؤرخين يروون أن الإخشيد كان كأبيه يحب الطيب ، ويحب من هذا الطيب العنبر ، وكان يُلزم الناس أن يُهدوا هذا إليه حين يحبون ، أو حين يُحملون على أن يهدوا إليه .

ولو أن أمر هذه انتهى إلى هذا لانتهت بسلام أو شبه سلام ، ولم تؤكد

عليه الأولى ، ولكن المؤرخين يزيدون أن الإخشيد كان إذا جاء موسم الإهداء – أعنى موسم إهداء الطيب أو العنبر الذى كان يؤثره على غيره – كان يُخرج ما فى خزائنه من هذا العنبر فيبيعه إلى التجار بثمن غال ، ثم يتلقاه هو منهم هدية ، يفعل هذا حُبا منه فى المال ، واحتيالا منه لجمع هذا المال ، الذى تَتوق إلى جمعه وكنزه نفوس البخلاء أمثال الإخشيد .

وقد يختلف هؤلاء البخلاء شيئاً عن الإخشيد ، وقد يتفقون شيئاً مع الإخشيد ، ولكن الإخشيد كان ملكا ، وكان ذا جاه ، وذا سلطان وذا مال ، وكان أحرى به أن يخالف البخلاء شيئاً فلا ينحدر إلى ما ينحدر إليه طغامهم ، ومن لم يرزقوا أسباباً مثل أسبابه تُوفر عليهم هذا الانحدار .

أرأيت إلى أن الأولى التى فعلها الإخشيد مع مزاحم ، بعد هذه التى أجمع عليه المؤرخون ، لم تكن غلوا من الغلو ، وإنما كانت حقا من الحق .

ولكنى على هذا أقول : إن الإخشيد كان فى مثل هذا يُملى عن نفسه السقيمة التى تجعله يرى الأشياء بعينه السقيمة التى تصور له الأشياء مخوفة مفزعة فيخاف ويفزع ، ويملى عليه هذا الخوف وذاك الفزع أن يحتاط ، ثم تملى عليه الحيطة أن يشتط ويغلو فى الشطط .

ويؤيد رأينا هذا فى الإخشيد ، وأنه كان ذا نفسين : نفس مريضة وأخرى سليمة ، وأنه كان إذا سلمت نفسه استقامت أحواله الاستقامة كلها ، فإذا هو ورع ، وإذا هو يخشى ربه ، ويخشى أن يفعل ما يفسد عليه تلك الصلة التى تربطه بربه .

يقولون : إنه فى عام من الأعوام ، وفى رمضان من ذلك العام ، وفى اليوم التاسع والعشرين منه ، أحس بشىء من الفتور بعد أن أفطر ، فاسترخى للراحة ولم يخفّ لحضور الختم فى المسجد . ودخلت عليه

جاريته تستنهضه للذهاب ، وحين وجدته مثقلا قالت : سوف أعتق عنك غداً عشر رقاب .

هنا يحس الإخشيد شيئاً يغلب ثقله فينبسط للنهوض ، وإذا هو يقول للجارية : ويحك ، أترين عشر رقاب تغنى عن حضورى الختم ؟ لعل رجلا صالحاً مستجاب الدعوة يكون حاضر تلك الجماعة يدعو فيقول : اللهم اغفر لجماعتنا . ويستجيب الله إليه ، فما بالى لا أكون بين هذه الجماعة فيغفر الله لى معهم ، ثم مضى إلى الجامع العتيق فحضر الصلاة والختم .

وهكذا أملت عليه نفسه السليمة أن يستجيب لغير ما تمليه عليه نفسه المريضة ، فآثر أن يخالف هواه الذى يحقق له تلك الراحة الذاتية التى يحسها حين يجرى وراء مطامعه ووراء رغباته ، واطرح تلك المطامع والرغبات الحسية التى إذ دخلت على النفوس ملأتها مرضاً مثل ذلك المرض الذى عانى منه الإخشيد كثيراً مما هو شائن ، وحركه لكثير مما هو شائن .

ومثل هذه التى رووها له عن استقامة نفسه ، هناك أخرى جرت له مع امرأة من النساء أخذوا منها ابنها ، فاعترضت طريقه وهو يسير فى شارع من الشوارع تقول له فى جرأة ، وإذا قدر لامرأة من الشعب أن تعترض السلطان وتحدثه جريئة غير هيابة ، دلّك على عظم ما نالها فاندفعت لا تبالى موتاً أو حياة ، وإذا هذه المرأة التى عظم خطبها فلم تبال العرش أو الجاه تقول للإخشيد : أذكرك بموقفك هذا منى موقفك بين يدى الله . وحين ذكّرت هذه المرأة الإخشيد بالله اختفت فيه نفسه المريضة ، واستقبل المرأة بنفسه السليمة ، فإذا هو ينزل عن دابته ، وإذا هو يرفع إليها وجهه ، وكأنها هى السلطان وهو هذه المرأة بين يدى السلطان ، وإذا هو يستمع لشكواها ، وإذا هو بعد أن يستمع إلى شكواها يعطيها صرة فيها مائة دينار ، ويأمر بإخلاء سبيل ابنها .

وما مائة دينار بهينة على الإخشيد حين تمرض نفسه ، ولمثل هذه

المائة حين تمرض نفس الإخشيد يحتال ويسعى فى الاحتيال ، ولكنه كان كما حدثتك حين تسلم نفسه ينسى طغيانه الذى يغريه بألا يعبأ لمظلوم وألا يعبأ لمكدود . وألا يعبأ إلا بما يشبع أطماعه ويحقق رغباته ، وإذا هو بعد هذا مع هذه النفس السليمة يقول للمرأة غير ما قال لمزاحم فى ذلك الحديث الذى مر بك عن مزاحم ، لم يقل لها قول المتشفى حين ينال الحق ، بل قال لها قول الذليل للحق المذعن لهذا الحق : خذى هذه الصرة فعسى الله أن يرحم ذل موقفى بين يديه .

قد تقول : إن الإخشيد كان ديّناً يحرص على معالم الدين ، من أجل هذا فعل هذه وتلك ، ولكنا نقول : إن الإخشيد حين غلب مزاحماً على فروه ، وحين كان ينال ما ينال من تجار العنبر ، كان يفعل شيئاً يحرمه عليه الدين ، ويحرمه عليه هذا التدين .

إذن فالإخشيد ، كان يدين حين تسلم له نفسه ، وكان لا يدين حين لا تسلم نفسه ، وكان الإخشيد - كما قلت لك - هذا الرجل الذى يعيش بنفسين نفس مريضة ونفس سليمة ، كان إذا خشى الله ، أو ذُكر به ، تعود إليه نفسه السليمة فيملى إملاء سليما ، ولو أن مزاحماً ذكره الله حين أخذ منه الإخشيد فروه ، لذكره وخشى وارتدت إليه نفسه السليمة ، ولو أن التجار ذكروه الله .. لخشى وارتدت إليه نفسه السليمة ، ولكنه كان حين يفقد من يذكره الله .. لا يخشى .. فلا ترتد إليه نفسه السليمة .

وما يدرينا لعل حوادث أخرى مرت بالإخشيد ومر بها الإخشيد ، لم يذكرها لنا المؤرخون ، ولعل تلك الحوادث الأخرى التى مرت بالإخشيد ومر بها الإخشيد مما عابه المؤرخون على الإخشيد ، لم يجد معها الإخشيد من يذكره الله ، وكانت نفسه المريضة غالبة ، وكانت مستعصية ، فمضى الإخشيد يستملى عن تلك النفس المريضة وما ثاب إلى نفسه السليمة .

على هذا التناقض ، وفى ظل ذلك التردد بين نفسيه .. عاش الإخشيد لا تكاد تعرفه طيباً ، ولا تكاد تعرفه غير طيب .

فلقد ساقوا إليه يوماً شيخاً مقامراً كان يغرى اللاعبين معه ويطمعهم إلى أن يجردهم من كل ما يملكون ، فإذا حاز ما يملكون أغراهم وأطمعهم فى أن يقامروا بما يلبسون ، ولا يزال بهم حتى يجردهم من كل ما يلبسون ، فإذا هم قد خرجوا خالية جيوبهم ، عارية أجسامهم . وحين يمثل هذا الرجل بين يدى الإخشيد يغريه بالتوبة إلى الله ، فيتوب الشيخ إلى الله ، ويرضى الإخشيد ما كان من الرجل إليه ، ويرضى الرجل ما كان من الإخشيد إليه ، ويخرج الرجل عن الإخشيد بعد أن يأمر له الإخشيد بثوب ورداء وألف درهم ، وإذا الإخشيد يقول لجنده : خذوا ما أعطيناه واطرحوه أرضاً واضربوه مائة عصا .

وكأنى بالإخشيد حين قبل توبة الرجل وحين أعطى الرجل ما أعطى كان يستملى عن نفسه السليمة . ولكن الرجل ما كاد ينصرف عنه حتى عز عليه ما بذل من مال ومن كسوة ، وإذا هو يرتد إلى نفسه المريضة فيأمر بما أمر . لا يعفى الإخشيد من هذا الحكم ما رووه له تتمة لهذه القصة ، فإنهم يروون أنه قال للرجل بعد ما أخذ منه ما أعطاه ، وبعد ما طرحه أرضاً ، وبعد أن ضربه مائة عصا : أين هذا من إغرائك وأطماعك ؟ .

لو كان الإخشيد أراد درساً ليقيم الشيخ على الطريق السوى ، فلقد كان حسبه ما فعل أولا ، فهو إن كان طامعاً حقا فى صلاح الشيخ فلقد وعده الشيخ بأنه سيصلح ، وما كان على الإخشيد إلا أن يتربص بالشيخ ليعرف صدقه من كذبه . ولكن الإخشيد بدأ جادا حين استملى عن نفسه السليمة ، ثم ثَنَّى هازلا حين استملى عن نفسه المريضة ، فذكر ماله الذى نزل عنه وعاد بخيلا شحيحاً بتلك الدراهم والدنانير المعدودة .

وما أكثر ما كان الإخشيد مريض النفس ، تملكه مآربه الدنيوية فتهون

فى نفسه المريضة كل الضوابط ، وتخرج أيضا عن كل الضوابط ، يرى ماله على الناس ولا يرى ما للناس عليه ، وهو سلطان .. ما علا هذا الكرسى إلا ليرعى ما للناس أولا ، وهو حين يرعى ما للناس أولا ويرعى ماله ثانياً ، قد ثبت بتثبيت ما للناس عليه ، فيثبت ماله على الناس ويقيم الناس ، على محبته ولا يقيم محبته على الناس ، والمحبة فى النفوس نائمة يوقظها عدل الوالى ورفقه ، وتوقظها رعاية الوالى لحقوق الناس ، ويوقظها نسيان الوالى لنفسه وذكره الناس . وإذا سلك الوالى غير هذا دفن هذه المحبة النائمة وأيقظ فى النفوس الكراهية النائمة ، فإذا هو قد خسر الناس وخسر نفسه من حيث أراد أن يكسب الناس ويكسب نفسه .

وما طمع الإخشيد فى مال الناس بجمعه له دونهم إلا وهو طامع فى أن يجرد الناس من كل مالهم ، ينفس على الناس أن يشاركوه رغد الحياة وجاه الدنيا ، يريد هذا وذاك له وحده دون رعيته ، شأنه شأن المستبدين الذين لا يريدون أن تشيع الاشتراكية بين الناس ، يشاركون جميعاً فى عز الحياة وفى جاه الحياة ، بل لقد كان الإخشيد مَلَكِّى النفس حين تمرض نفسه ، يطمع فى أن تكون الدنيا كلها بين يديه ، ويحب أن يتخلف الناس عنه ، فمن كان ذا مال سلبه ماله ، ومن كان ذا جاه سلبه جاهه ، حتى لا ينغص عليه غنى الناس غناه ، وحتى لا ينغص عليه جاه الناس جاهه ، وإن وجد أن حياة الناس تنغص عليه حياته عدا على تلك الحياة فأخمدها .

عرفنا ذلك للإخشيد حين كان نائباً عن أبيه طغج فى حكم طبرية ، فلقد كان إلى جانبه فى طبرية أبو الطيب العلوى . وكان أبو الطيب العلوى رجلا ذا جاه بين الناس يحبه الناس ويبجلونه ، يكاد الناس يعرفونه ولا يكادون يعرفون الإخشيد . ولكن أبا الطيب على هذا الذى يعطيه إياه الناس لم يكن يعطى الإخشيد غير ما يعطيه إياه الناس ، فكان هو الآخر يكرم الإخشيد ويبجله . ولكن نفس الإخشيد المريضة ما كانت لترضى هذا الذى يحظى به أبو الطيب العلوى دونه . وكان الإخشيد عندها

لا يملك أن يقضى فى أمر دون أن يرجع إلى أبيه ، فكتب إليه يذكر له شأن أبى الطيب فى عزه بين الناس وشأنه هو فى هوانه بين الناس ، فإذا أبوه يكتب إليه : أعز نفسك .

ما ندرى ما أراد طغج بكلمته إلى ابنه . ولكن الإخشيد فهمها بما تحب له نفسه المريضة أن يفهمها . ولعل الأب كان يريد هذا الذى فهمه الابن ، ولعل الأب كان هو الآخر يعرف طريقه فى الحياة ، يريد أن يمهد هذا الطريق له ولابنه ، ولا يريد أن يمهد للناس معه ومع ابنه . من أجل ذلك أمره بأن يعمل لإعزاز نفسه ، ولم يأمره بأن يعمل ما يعز به نفسه والناس . فإذا الإخشيد ينقضّ على أبى الطيب ليلة وهو فى شأن له فيقتله .

وما أمر الدين بهذا القتل الغادر ، وماهكذا يدخل الولاة إلى الحكم ، وهم إذا دخلوا إليه من هذا الطريق الظالم أرضوا أنفسهم ولم يرضوا الناس . وماأظن الولاة إن عقلوا فى غنى عن أن يرضى بهم الناس . والولاية للتاريخ قبل أن تكون للوالى ، يمضى الوالى بما نال ، ويبقى التاريخ بصفحاته حياة ثانية ممتدة ، فتلك الحياة القصيرة التى عاشها الوالى ، إن طابت تلك الصفحات .. طابت له حياته القصيرة على الألسنة ، وطابت فى الأسماع وطابت فى الأنفس ، وإن ساءت حياته تلك القصيرة .. ساءت على الألسنة ، وساءت فى الأسماع ، وساءت فى الأنفس ، وماأظن الإنسان خلق إلاليكون صفحة من صفحات التاريخ الطيبة ، فإن سجل غيرها ناسياً الخلود يحب العاجلة فقد خسر نفسه . وماوُجد التاريخ إلا ليعظ هؤلاء الذين ينزلقون مزالق الخسران .

وعلى هذا فقد مضى الإخشيد يحب نفسه ولا يحب الناس ، فمات لم ينتفع بحبه لنفسه ولا بحب الناس له . وعاش المصريون فى ظله صابرون على ما أصابهم من ضيق ، لأنهم كانوا - كما قلت لك - لم ينظروا إلى الإخشيد ، وإنما كانوا ينظرون إلى تلك القضية العامة ، ورأوا إن هم ضاقوا

بالإخشيد .. ضاقوا بتلك القضية العامة . ولكنهم على هذا كانوا يتنفسون ، وكان يعنيهم أن يحس الإخشيد تنفسهم ، فلقد استطاع كاتب من كتابهم أن يسطر رقعة بما يحس ويحس إخوانه من حوله ، وأن يترك هذه الرقعة فى دار الإخشيد ليقع عليها ، وإذا فى هذه الرقعة :

قدرتم فأسأتم ، وملكتم فبخلتّم ، ووسع عليكم فضيّقتم ، وأدرّت لكم الأرزاق فضيقتم أرزاق العباد ، واغتررتم بصفو أيامكم ولم تفكروا فى عواقبكم . واشتغلتم بالشهوات واغتنام اللذات ، وتهاونتم بسهام الأسحار ، وهى صائبات - يقصد دعاء الداعين بالسحر - ولاسيما إن خرجت من قلوب قرّحتموها ، وأكباد أجعتموها ، وأجساد أعريتموها . ولو تأملتم هذا حق التأمل لانتبهتم ، أو ما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل ما وصل إليها الجاهل ، ولو دامت لمن مضى ما نالها من بقى ، فكفى بصحبة ملك يكون فى زوال ملكه فرح للعالم ، ومن المحال أن يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى منهم أحد ويبقى المنتظر به . افعلوا ما شئتم فإنا صابرون ، وجوروا فإنا بالله مستجيرون . وثقوا بقدرتكم وسلطانكم فإنا بالله واثقون . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ويعنينى من تلك الرقعة ختامها ، فهذا الختام يدلك على ما تذرع به المصريون من صبر ، وما تحلوا به من استمساك بحقهم العام ، وما اتصفوا به من نسيان لحقهم الخاص ، يرون القضية العامة أجل من الإخشيد ، وأجل من ذلك الحق الخاص ، الذى ظلمهم عليه الإخشيد .

والرقعة قبل هذا الختام تعطيك صورة واضحة لحكم الإخشيد ، وتعطيك صورة واضحة عما كانت تحمل نفوس المصريين للإخشيد ، وهذا الشعور الذى أملى على هذا الكاتب المصرى هذه الرقعة كان يملى على عامة المصريين أكثر مما فى هذه الرقعة . كتب هذا الشعور هذا الكاتب فأبرزه فى رقعة ، وكتبه المصريون فى صفحات صدورهم فوعوه وعبّروا

عنه ، فكانوا لا يصطفّون لموكبه الكبير حين كان يخترق هذا الموكب الكبير الشوارع .

ولقد مضى الإخشيد بعد أن حقق لنفسه ما شاء من متاع ولهو وأبّهة ، ولكنه مضر ولم يحقق شيئاً فى قلوب رعاياه ، فمضى رجلا عاش لنفسه ولم يعش لأمته . وفى هذه المنزلة التى وضع نفسه فيها مات ، لم تذكره أمّته وتركت التاريخ يذكره .

- ١٤ -

وأحب بعد هذا أن أعود بك إلى الحديث عن هذين الرجلين اللذين وعدتك بالحديث عنهما ، وهما أبو بكر محمد بن على الماذرائى ، ثم أبو المسك كافور ، فلقد كان لكليهما شأن فى تولية أونوجور وتثبيت ملكه ، وأولهما مضى محسوباً على هذه الدولة ، وثانيهما مضى معدوداً فى هذه الدولة . من أجل ذلك سوف أبدأ بهذا المحسوب وأثنّى بهذا المعدود ، أذكر من أخبار الثانى هذا القليل الذى شارك به فى هذا التمهيد لأونوجور ، وأترك الكثير من أخباره لمكانه المخصص له من هذا الكتاب ، لتستقبل معى حياة كافور كاملة ، وتعرف كيف استأثر هذا الخصىّ بالملك ، وجمع تاريخ هذه الدولة الإخشيدية كله حوله .

وأبو بكر الماذرائى هذا الذى نحب أن نبدأ الحديث به .. هو فَرْد من أفراد الأسرة التى عرفت باسم الماذرائيين - نسبة إلى قرية من قرى البصرة اسمها ماذرايا - تلك الأسرة التى ظلت فى مصر فترة طويلة تقيم وتعزل وتنهى وتأمر .

ولسنا ندرى على التحديد متى كان رحيل جد هذه الأسرة إلى مصر ، كما لا ندرى من كان أوّلهم قدوماً إلى مصر ، غير أننا نكاد ندرى أن جدًّا لهذه الأسرة لا نعرف اسمه .. قدم إلى مصر حين قدم إليها أحمد بن

طولون ، حين أصاب هذا الجد فى مصر حظا من الثراء ، وحظا من الجاه ، أرسل يستقدم أهله ، فإذا هو بهم أسرة ، وإذا هذه الأسرة يكتب لها تاريخ طويل ممدود ، تشارك به فى كل دولة ، وتشارك به مع كل والٍ من ولاتها .

وكان هذا الجد الذى أسس لهذه الأسرة فى مصر هو أحمد بن إبراهيم – وقيل ابن محمد – فلقد ولى هذا الجد خراج مصر سنة ست وستين ومائتين أيام أحمد بن طولون .

وحين كتب لهذا الجد أحمد الماذرائى هذا لفّ حوله أهله ، فكان فترة ينيب عنه أخاه ، وأخرى ينيب عنه ابنه عليا . وتشيع الشائعات أن أحمد الماذرائى قد مد يده إلى أموال الدولة فاختلس منها شيئاً كثيراً ، وينبرى علىّ للدفاع عن والده دفاعاً دل على سعة حيلته ، وتوقد ذهنه ، وحضور بديهته ، وإذا هو بهذا الدفاع يبرىء أباه ويبعد عنه مالصق به ، لاندرى أكانت تلك التبرئة لأن الأب لم يختلس حقا .. أم كانت تلك التبرئة لأن الابن كان يعرف مداخل تلك الأمور المالية التى كانت تدق على عقول الكثيرين . وسواء أكانت هذه أم تلك .. فلقد برىء الوالد مما نسب إليه ، وبدأ نجم الابن يتألق ، فإذا هو مقرَّب من السلطان وإذا أحمد بن طولون يعطيه فوق ماكان فى يديه ، وإذا هو مطلق اليد فى إدارة مصر .

ومأنسى علىّ آله كما لم ينس أبوه آله ، فإذا علىّ يفرض على ابن طولون ماذرائيّا آخراً هو أخوه الحسين بن أحمد ، وإذا ابن طولون يجعل للحسين بن أحمد تدبير الأمور فى الشام .

وتمضى الأيام وإذا علىّ هذا وزير لخمارويه ، وإذا هذا الوزير يستأثر بخمارويه يصرفه كيف شاء ، وإذا هو يغريه بالحسين بن مهاجر ، وكان أقرب الناس إلى أحمد بن طولون ، إذ كان ابن مهاجر يحتفظ بأموال كثيرة

لأحمد بن طولون . ولقد استولى خمارويه على هذه الأموال ، استولى عليها ليجعلها فى يد على الماذرائى . وهل أغرى الماذرائى خمارويه إلا ليضمن هذه التى كان يطمع فيها .

وكما مهد أحمد لابنه علىّ ومهد على لأخيه الحسين ، عند أحمد بن طولون أخذ على يمهد ثانية لولديه . أبى بكر محمد بن على . وأبى الطيب أحمد بن على ، فاستقدمهما إلى مصر وأفلح فى أن يولى ابنه أبا بكر محمدا على الخراج ، ثم على ديوان الرسائل .

وتمضى الأيام فيموت خمارويه ، ويؤول الأمر إلى أبى العساكر جيش بن خمارويه . وحين آل الأمر إلى أبى العساكر آل إلى على ، فأصبح الأمر دون أبى العساكر . وكما لم يرض الجند أبا العساكر لم يرضوا عليًّا ، وكما ثاروا بأبى العساكر فقتلوه ثاروا بعلى فقتلوه .

ولكن هذه الثورة التى قضت على أبى العساكر لم تقض على الأسرة الطولونية ، كما أن هذه الثورة التى قضت على علىّ لم تقض على الأسرة الماذرائية ، فإذا هارون بن خمارويه يخلف أباه ، وإذا أبو بكر الماذرائى يخلف أباه ، يخلفه وبين يديه ثروة كبيرة تركها له أبوه ، ولم يستطع الثوار أن يقعوا عليها .

وحين خرج الطولونيون من مصر خرج معهم أبو بكر فيمن خرج من عمال الطولونيين ، تاركا أخاه أبا الطيب على خراجها ، ثم عاد أبو بكر ليخلف أخاه عليا على خراج مصر بعد وفاته ، وظل بها يجمع الأموال إلى أن ضاقت بها خزائنه ، ويجمع فى يده السلطان حتى لم يبق لغيره سلطان ، وإذا الخلافة النائمة تستيقظ قليلا ، فتستدعيه لتطالبه بأداء أموال كثيرة كانت عليه ، وتصادر جزءاً كبيراً من أملاكه ، وتصادر جزءاً كبيراً من أملاك أسرته .

وكما خرج أبو بكر من مصر عاد إلى مصر بعد أن ظل أربعة عشرة عاماً بعيداً عنها ، عاد إليها ليلى خراجها مرة أخرى . وكأن الخلافة لم تكن معه جادة . وتحس الخلافة مرة ثانية أن أبا بكر الماذرائى يختان أموال الدولة ، وتحب أن تستبدل به فتكتب إلى تكين والى مصر أن يضع يده على أبى بكر إلى أن يحضر عامل الخراج الجديد . ويرى أبو بكر أنه على أن يُحاسب ، وأنه على أن يؤخذ مافى يده مما جمع ، فيسعى سعيه للخروج عن مصر بما يملك من مال ، ويسعى سعيه إلى أن يدخل إلى ضمير تكين يغريه بالرشوة ، فيهدى إليه وإلى زوجته هدايا يقدرها المؤرخون بنحو من عشرين ألف دينار ، أى مايعدل عشرة آلاف من الجنيهات .

ويخدم الجَد أبا بكر فيموت عامل الخراج الذى أرسلته الخلافة ليحل محل أبى بكر فى الطريق ، فإذا أبو بكر على عمله لم يُخلع عنه ، ولم يغادره .

ويموت تكين وتضطرب الأمور على محمد بن تكين - كما مر بك - ويثور الجند على أبى بكر مطالبين بعطائهم ، ويحرقون داره ودور كثير من أتباعه ، ويخرج محمد بن تكين إلى الشام ، ويختفى أبو بكر فى دار من دور أصدقائه .

ويكتب محمد بن تكين من الشام إلى الخلافة فى بغداد ليلى مصر ، كما يكتب أبو بكر الماذرائى من مخبئه فى مصر إلى الخلافة ببغداد لتقره على عمله بمصر . وتستجيب الخلافة فى بغداد لمحمد بن تكين كما تستجيب للماذرائى ، ولاندرى كم دفع ابن تكين ثمناً لهذا ، ولكننا نخال أنفسنا ندرى بأن الماذرائى أغلى فيما دفع وغالى ، فلقد كتبت إليه الخلافة فى بغداد تفوض إليه أمر مصر ، وتكل إليه من يختار لولايتها ، كتبت بهذا الخلافة فى بغداد إلى الماذرائى ، وهى التى كتبت مع هذا الذى كتبته إلى الماذرائى عهداً إلى ابن تكين توليه مصر .

ونكاد نظن أن الخلافة فى بغداد كان لها حينذاك بابان ، باب دخل منه ابن تكين فنال ولاية مصر ، وباب دخل منه الماذرائى فنال الحق فى أن يولى مصر من يختار ، ونسيء الظن بالخلافة فنقول : لعل الباب الذى دخل منه ابن تكين كان هو الباب الذى دخل منه الماذرائى ، فدفع ابن تكين شيئاً فنال على قدر مادفع ، ودفع الماذرائى شيئاً أكثر فنال على قدر مادفع. وماعلى من هم حول الخلافة من البائعين إلا أن يقبضوا ، وماعليهم بعد أن يقبضوا على أية صورة يقع الأمر ، ولعلهم أرادوا بذلك مكراً وأرادوا حيلة ليعود إليهم المختلفون ، فتكون لهم معهم مساومة ثانية ، ويظل هذا الباب - باب الأخذ والعطاء - مفتوحاً لاينغلق .

ونحسن الظن بالخلافة شيئاً فنقول : لعل الخلافة أرادت هذا لتفيد من خلاف الناس بعضهم على بعض ، فتضمن فى آلا يخرج أحد عليها ويستقل بالأمر كما حدث مع الطولونيين .

ولقد وصل إلى ابن تكين جواب ماأراد ، كما وصل إلى الماذرائى جواب ماأراد ، فخرج الماذرائى من مخبئه يصرف أمور مصر بهذا الجواب الذى وصل إليه ليلى أمره فيها ، ولكن الماذرائى كان لايحب أن يلى ابن تكين مصر فيطمع فى شيء فوق مانال ، يكون من ورائه إقصاؤه هو ، لم يذكر ماكان لأبيه تكين معه من سابقة ، أعنى تلك التى مرت بك حين هيأ له أن يخرج بماله لما غضبت عليه الخلافة . ولكن الماذرائى كان لايراها سابقة تُرعى وتذكر لتحمد ، وإنما كان يراها سابقة من تلك السابقات التى يبدو صاحبها متفضلا وهو مُشترًى ، فلقد اشترى الماذرائى تكين بثمن غال ، وأعطى تكين ماأعطى بهذا الثمن الغالى ، من أجل هذا لم يذكر الماذرائى ماكان من تكين إليه على أنه فضل يحمد ويرعى ، ولكنه نظر إليه على أنه بيع وشراء . ولعله حين نظر إليه تلك النظرة ، وجد نفسه قد غُبن حين دفع هذا القدر الكبير فى هذا البيع والشراء ، فلم يؤيد ابنه محمداً .

وحين لم يحب الماذرائى أن يدخل ابن تكين مصر خرج إليه فى جيش من المغاربة وصده عن دخول مصر ، وبقيت مصر فارغة من وال ، أو قُل بقيت مصر وعلى ولايتها الماذرائى نحواً من اثنين وثلاثين يوماً ، إلى أن وليها الإخشيد ولايته الأولى .

ويثور الجند ثانية على أبى بكر يطلبون أرزاقهم ، ويمضون فى ثورتهم فيحرقون دوره ودور أهله ، وتحمَى الفتنة بين المغاربة جند الماذرائى وبين المصريين جند الدولة ، وما ندرى كما ذهب ضحيتها من هؤلاِء ومن هؤلاء ، ولكنها على كل حال كانت فتنة قوامها السلاح لا الأيدى ، وما ضحايا السلاح كضحايا الأيدى .

وفى ظل هذه الفتنة القائمة سعى ابن تكين لدخول مصر ، فدخلها مستنصرا بجماعة من المصريين ، وتثور الحرب بين ابن تكين وجنده المؤيدين له ، وبين ابن كيغلغ وجنده المناصرين له ، وكانت الخلافة أعطته مصر بعد أن أعطتها الإخشيد للمرة الأولى ، كما مر بك . وما خمدت الحرب بين الجيشين إلا بعد أن فرَّ ابن تكين عن مصر ومإن خُلع الخليفة القاهر ووَلى الخليفة الراضى حتى عاد ابن تكين إلى مصر يدّعى أن الخليفة الجديد جعل مصر إليه ، وتقوم الحرب ثانية بين ابن كيغلغ وبين ابن تكين ، يصلَى المصريون شرها مرة ثانية ، إلى أن ينهزم ابن تكين ويعود من حيث أتى .

وأبو بكر الماذرائى من وراء هذا كله يثبت لنفسه ، ويثبت لأهله ، يخسر الناس ويكسب هو ، ويفقد الناس ويجمع هو ، وإذا ابن كيغلغ الوالى الإسمى والماذرائى الوالى الفعلى .

وما فعلته الخلافة مع ابن تكين ومع الماذرائى هناك فعلت مثله مع ابن كيغلغ والماذرائى هنا ، فلقد كتبت إلى ابن كيغلغ تُقره على مصر ، وكتبت إلى الماذرائى تجعل إليه أمر مصر يولى عليها من يشاء ويختاره ، فأعطت

بذلك الماذرائى فوق ما أعطت لابن كيغلغ ، وأرخت الحبل للماذرائى يُمضى الأمور كما أحب ، وأصبح ابن كيغلغ لا أمر له ولا نهى ، وأصبح الماذرائى له الأمر والنهى ، ومضت الأسرة الماذرائية تجمع الدنيا فى يديها ، تلتوى الأمور فى طريقها شيئاً وتستقيم شيئاً ، تعصف بهم الحياة فيتوارون ، وتصفو لهم الحياة فيظهرون . ولعل تلك الثروات الضخمة التى كانت فى أيديهم هى التى مكنتهم من أن يصبروا للبلاء . ومكنتهم من أن يدفعوا عن أنفسهم هذا البلاء ، فلقد قيل إن صدقات أبى بكر الماذرائى بلغت فى سنة واحدة نيفاً وستين ألف دينار . وأن إيراد ضياعه فى مصر بلغ أربعمائة ألف دينار فى السنة . سوى الخراج .

كان هذا مال أبى بكر وحده فما بالك بمال أسرته . وهكذا حازت هذه الأسرة ما لمصر من غلات دون المصريين أعطوا منها المنتفعين حول الخليفة . وما أظنهم أعطوا منها المصريين شيئاً ولا عادوا عليهم بشىء .

ويحدثنا المؤرخون أن الإخشيد حين ولى مصر للمرة الثانية وأراد أن يدخلها لم يَعنه أمر الخليفة الذى فى يده . ولكن عناه أمر أبى بكر الماذرائى فى مصر . فكتب يطلب إليه أن يتركه يدخل مصر على أن يظل ما لأبى بكر له كما هو .

غير أن أبا بكر كان يخاف الإخشيد على ما بين يديه ، فجمع له جموعه ، وكلفه شيئاً كثيرا ، وحمله على محمل صعب لم يقو عليه الإخشيد إلا بعد جهد جهيد . فلقد أراد ابن كيغلغ أن يخلى الطريق أمام الإخشيد ، وأراد الماذرائى أن يسد الطريق على الإخشيد ، فغلبت إرادة الماذرائى إرادة ابن كيغلغ ، وكان ما كان من حرب بين الجيشين دفع المصريون ثمنها من دماء ومال .

وحين دخل الإخشيد مصر لم يعدم من الماذرائيين من يمد يده إليه مظهراً الخلاف على أبى بكر ، وإذا الإخشيد يُسلم أمره إلى ماذرائى آخر ،

هو الحسين ، ابن ابى بكر هذا ، ويختفى أبو بكر فيظهر ابنه ، وهكذا عرفت هذه الأسرة كيف تداور الأيام ، وكيف تساير جميع الحكام ..

وعاش أبو بكرفى مخبئه يطل برأسه ، يرهبه الإخشيد لأنه كان يؤمن أن الحياة لأسرته كلما وقعت بهم نكبة احتالوا فى دفع تلك النكبة فخرجوا منها ظافرين ، ويرغب إليه لأن أسرته كانت خزان المال فى الأرض على الرغم مما نالها من مصادرة .

وسرعان ما يُهدى أبو بكر للإخشيد هدية تبلغ خمسين ألف دينار ، وسرعان ما تذهب هذه الهدية بغضب الإخشيد ، فلقد كان بخيلا وكان مُحباً للمال ، وما خمسون ألف دينار بالشيء القليل . وسرعان ما طلب الإخشيد من ابن الفرات أن يعامل الماذرائى معاملة رقيقة ، وكان ابن الفرات قد جاء مصر ليحاسب الماذرائى على ما جمعت يداه ، وعلى الرغم مما نال أبا بكر فقد بقى له شأنه وبقى له أمره ، وحين يموت الإخشيد وتضطرب الأمور على أونوجور .. يظهر أبو بكر ليقول كلمته التى رجّحت كفة أونوجور ، وهبطت بكفة عمه الحسن بن طغج ، وما أراد أبوبكر أونوجور ، ولكنه أراد نفسه يريد أن يعود صاحب الأمر كله ، ولكن كافور كان أقوى من أبى بكر ، وكان أبو بكر قد علت به السن وضعضعته الأحداث ، فاختفى الماذرائى ليظهر كافور .

– ١٥ –

وكان الماذرائى يحس ما لكافور من شأن .. فأراد أن يشتريه بهذا الذى صنع فى تولية أونوجور ، يروون أنه كتب إلى كافور – وكان كافور عندها بالشام – ينهى إليه ما كان له من جهد ، ويروون أن كافور كتب إلى الماذرائى يحمد له ما فعل ، لا نعلم تفصيلا عن هذا الكتاب الذى أرسله كافور لنعرف كيف صانع الماذرائى كافورا ، ولكنا نعرف أن وصول كافور

إلى مصر كان مع وصول كتاب الخليفة المطيع بتولية أونوجور ولاية مصر والشام ، ونعرف أن أبا المسك كان له الأمر دون أونوجور ، وأن أونوجور حين مات سنة تسع وأربعين وثلثمائة ، بعد أن ولى مصر خمسة عشر عاماً ، أقام أبو المسك مقامه أخاه عليا ، وكان عندها ابن ثلاثة وعشرين عاماً ، وأقر الخليفة المطيع ما أمضاه كافور . وظل كافور صاحب الأمر أيام علىّ كما كان صاحب الأمر أيام أونوجور ، ونعرف أن أبا المسك حين مات على بن الإخشيد سنة خمس وخمسين وثلثمائة أعلن نفسه حاكما على مصر ، وأن الخليفة المطيع ولاه إياها ، بعد أن أقصى عن الحكم ابناً كان لعلى صغيراً ، هو أحمد بن على .

وهكذا ترى معى أن الإخشيديين لم يحكموا مصر إلا الفترة التى حكمها الإخشيد ، ثم كان الأمر إلى كافور أعوام أونوجور ، ثم أعوام أخيه على ، إلى أن كان الأمر إلى أبى المسك كافور دون الصغير أحمد بن على ، وحين مات كافور سنة سبع وخمسين وثلثمائة ظهر أحمد وكان عندها صبيا فى الحادية عشرة ، فولىَ مصر عاماً وأشهراً ثلاثة .

ولكنا نحب قبل أن ندخل بك إلى حياة كافور أن نوجز لك الحديث شيئا عن حياة أونوجور وأخيه علىّ من بعده ، وهو إن بدا عن غير كافور فإن فيه نصيباً كبيراً لكافور .

يروون أن أبا المسك لم يتح لأنوجور فرصة ليمرَّن على الحكم فيفيد من هذا المران ويظهر للناس يعرفونه على حقيقته ، ويترك للتاريخ صفحة يسجلها له التاريخ حاكما عليه حكماً صحيحاً . بل لقد اختفى أونوجور ، ليظهر كافور ، وكان الخطباء يدعون على المنابر لكافور ولايدعون لأنوجور ، وكان حَسْب أونوجور أن يدير يده فيما خصصه له كافور من مال يبلغ أربعمائة ألف دينار فى العام .

وحين شب أونوجور عن الطوق وبلغ رشده بلغ أن يحس استبداد كافور

بالأمر دونه ، وزين له المتصلون به أن يناوىء أبا المسك ليأخذ منه ما سلبه إياه .

ولقد كانت كبيرة على نفس الملك الصبى أن يرى أبا المسك فى يده المال كله ، وليس هو فى يده غير تلك الدراهم التى فرضها له أبو المسك ، وأن يرى أبا المسك الآمر الناهى وهو ليس له أمر ولا نهى ، وأن يرى كل ما كان لأبيه فى حوزة أبى المسك ، وهو ليس له من ذلك قليل ولا كثير ، وأن يرى أبا المسك السلطان غير المتوج وهو السلطان المتوج ، وماذا يغنى التاج إن لم يُعط صاحبه الحق فى أن يقول وأن يفعل ، وإلا كان تاجاً من تلك التيجان التى توضع على رؤوس الدُّمى .

من أجل ذلك لم يكن الملك الصبى متأبياً على من كشفوا له عن ذلك كُله ، ولقد بلغته السن أن ينطق ، وما أذلَّه إن أمسك لسانه مع هذه السن عن أن ينطق ، ثم ما أضيعه إلى أن يموت إن سكت عن أن يطلب ما له حين بلغ أن يطلبه .

وهكذا بدأ أونوجور يضيق بكافور ويتعقب أعماله ، وهو الذى كان من قبل أن يبلغ السن لا يملك أن يضيق ، ولا يملك أن يتعقب عملا لأبى المسك .

وشاء أونوجور أن يَشيع عنه أنه ساخط على أبى المسك ، وأنه ناقم عليه فعلته به ، ليحرك بذلك المشفقين عليه فيملكوا أن ينطقوا ، كما ملك هو أن ينطق ، ويضمن بهم تأييداً له على حقه ، ويضمن بهم شيعة وأنصارا . فإذا هو يترك الحاضرة - مقر سلطانه - إلى مكان آخر ، لتغدو تلك الجفوة بينه وبين كافور سافرة بعد أن كانت شيئاً تنطوى عليه جدران القصر ، ولتصبح حديث الناس عامة بعد أن كانت حديث فئة خاصة .

ولقد ضمن أونوجور بهذا شيئاً ، ضمن أن يقَسم الجند كما قسم الرعية ، فإذا الجند قسمان : قسم له ، وقسم لكافور .

وكان أنوجور حين ترك العاصمة ، وهو يدعى أنه خرج للّهو والصيد ، ينوى أن يخرج إلى الرملة ليمكن لنفسه ، وليجمع حوله من هم على رأيه ، ومن هم برمون بأبى المسك معه . وينوى أن يعود بهؤلاء جميعاً ليلقى أبا المسك قويّا على انتزاع الأمر من يديه .

ولكن أُمّاً لأونوجور كانت أبصر بالأمور من ابنها أنوجور ، وكانت ترى الضجر بأبى المسك لم ينته إلى قلوب كثرة من ذوى النفوذ ، ولم ينته إلى قلوب كثرة من الجند ، وكانت تعلم أن ذوى النفوذ هم بين طامع فى جاه أو طامع فى مال ، وكلاهما إرضاؤه عسير ، فالطامعون فى الجاه لاشك مقاسمون الجاه ابنها إن هم أفلحوا . وقد يكونون شرا من أبى المسك . والطامعون فى المال مطالبون ابنها بالكثير قبل أن يقدموا ، وما فى يد ابنها قليل أو كثير مماهم فيه طامعون .

والجند قلوبهم رهن بأرزاقهم ، يعطون قلوبهم حيث يضمنون أرزاقهم ، وما فى خزائن ابنها شىء قليل أو كثير من هذه الأرزاق ، وقد يغريهم أونوجور بما سيكون له فيعطون قلوبهم نسيئة . ولكن الويل لابنها إن طال أمد الفتنة ، عندها سوف ينهزم صبر النفوس بين يدى شَرهى البطون ، وسوف يستحيل تأييد المؤيدين له من الجند عُدواناً عليه .

هكذا رأت الأم بعينى بصيرتها ، وهكذا قدرت الأمور بحكمتها . فإذا هى تحذر ابنها ألا يفعل . وإذا هى تخوفه الفتنة ، وإذا هى لتكسب أبا المسك صديقاً لتلك الأسرة .. تقف إلى جانبه ، وتقفه على ما انتوى ابنها أن يفعله .

وإذا كافور يملك فى تلك المحنة رأياً يُغبط عليه : فلقد كان فى وسْعه أن يعصف بالملك الصبى . ويكلف نفسه خوض محنة من المحن الهينة . ولكن أبا المسك كان فى هذه لبقاً ، ورأى الشر الصغير قد يجر

إلى شر كبير ، وذكر أن معظم النار من مستصغر الشرر ، ونظر فرأى الملك الصغير أهون من أن يركب له متن الخطر ، وأحسَّ أن الملك الصغير مكسوب بمزيد من التدليل لا بقليل من العنف ، وهو بهذا المزيد من التدليل ضامٌّ ما بينه وبينه . قاطع مابينه وبين مناصريه ، وأنه بالقليل من العنف قاطع ما بينه وبينه ، واصل ما بينه وبين مناصريه .

من أجل ذلك آثر أبو المسك أن ينزل عن شيء من كبريائه ليرضى كبرياء الصبى ، فكتب إلى الصبى يسترضيه ، وكتب إلى الصبى يُمنيه ، فإذا الصبى قد أُنسى ملكه وأنسى رسالته ، وإذا هو قانع بكلمات ، وقانع بدريهمات ، وإذا الأمور تعود ثانية إلى أبى المسك ، أو تبقى كما هى فى يدى أبى المسك ، يجريها خالصة من دون أو نوجور كما كانت من قبل .

وأمسك أبو المسك هذه المرة بزمامها إمساكا شديداً ، يرقب الصبى ويرقب المتصلين بالصبى ، إلى أن مات هذا الصبى سنة تسع وأربعين ومائتين . وما نظن أبا المسك إلا استعجل الموت لهذا الصبى فدس إليه السم ليستريح منه ومن مناوءته . وليقطع السبيل على هؤلاء الذين حدّثتهم أنفسهم بأن يجعلوا من هذا الصبى وسيلتهم لمناوءة أبى المسك ، وإبعاده عن هذا العرش الذى أخذ يوطئه له .

ولقد مات أونوجور عن ثلاثين عاماً . عاش منها سلطانا أربعة عشر عاما . أو قل : عاش منها أبو المسك سلطانا فى ظل أونوجور أربعة عشر عاماً .

ومات أونوجور .. ليَلى الأمر من بعده أخوه على بن الإخشيد . وكان عندها فتى فى الثالثة والعشرين من عمره .

وما أغنت عليا سنه فما كان صغيراً حين ولى صِغَر أَخيه . ولكنه كان حين ولى قد ملئت نفسه رهبة من أبى المسك . وأكسبته ذلة أخيه ذلة ،

وأكسبه هوان أخيه هوانا . وما نظن أبا المسك ترك هذا الوارث الثانى بعيدا عن رعايته ، وما نظنه إلا أخذه بما يحب ونشأه كما يهوى ، وأعدّه كما أراد .

وهكذا دخل علىّ إلى الحكم كبيرا صغيرا ، كبيراً بسنه صغيرا بعقله ، فلم يُغن شيئا ، واستسلم لأبى المسك يمضى الأمور دونه ، وكما كان أبو المسك يعطى أو نوجور أعطى عليّا ، لم يزد فى عطائه شيئاً ، بل لقد زاد أبو المسك فسلبه شيئا كان لأخيه ، فما ترك أبو المسك عليا يظهر لشعبه ، ولا تركه يجلس إلى ندواته إلا إذا كان أبو المسك معه .

ولقد ضاق الفتى بأمره فانحدر إلى اللهو يلهو ، ثم ضاق باللهو لم يجد فيه سلوته فارتفع إلى العبادة يتعبد ، ثم أرهقته العبادة فشمر لحقه يطلبه ، فإذا هو قد أفسد ما بينه وبن كافور إفسادا جديدا ، وإذا كافور يستعجل به الموت كما استعجله بأخيه من قبل ، وإذا هو يدس له السم كما دسه لأخيه من قبل ، على أن يخرج من الحياة والسلطان معاً سنة خمس وخمسين وثلثمائه ، بعد أن ولى مصر نحواً من ست سنين ، قضاها يمهد لكافور التمهيد الأخير بضعفه .

- ١٦ -

ونعود بك إلى الوراء قليلا لنبدأ معك حديثاً يقطع عليك هذا الحديث الذى نحن به موصولون ، ولنصلك بحديث كافور منذ وطئت قدماه مصر ، فلقد آن لك أن تعرف سيرة هذا الرجل كيف بدأت .

ما قدم كافور مصر قدوم غيره سيداً أو شبه سيد ، بل قدمها مجلوباً مع عبيد من هنا ومن هناك ليباع فى أسواقها ، وكان عندها فتى ما بين العاشرة والرابعة عشرة .

وما نظن نشأة أبى المسك تختلف كثيراً عن نشأة جُف ، جد هذه الأسرة

الإخشيدية ، فقد جلب جُف إلى المعتصم إلى أسواق بغداد من فرغانة كما جلب أبو المسك إلى أسواق القاهرة من النوبة أو السودان ، وانتهى أمر جُف إلى المعتصم الخليفة ، كما انتهى أمر أبى المسك إلى محمد بن طغج بن جُف السلطان .

وتختفى سيرة جُف فلا تبين إلا حين اتصل جف بالمعتصم جندياً فى حرسه الخاص ، وتبين مسيرة أبى المسك فلا تختفى منذ جاء مصر إلى أن اتصل بالسلطان .

وحين اختفى ما اختفى من سيرة جف أضْفى أبناؤه على أنفسهم أنهم من نسل ملوك فرغانة ، وحمل كل منهم لقب الإخشيد ، وما منع هذا الذى ظهر من سيرة أبى المسك من أن يحمل لقب الأستاذ .

وما حرك هذا الذى اختفى من سيرة جف الإعجاب ، على حين حرك هذا الذى ظهر من سيرة أبى المسك الإعجاب ، فإذا جف يمر على صفحات التاريخ بأعماله التى عملها ، وإذا هو رجل من الرجال ، وإذا أبو المسك يمر على صفحات التاريخ بأعمال لم يعملها ، وإذا هو أعجوبة من الأعاجيب ، وإذا سيرته من أغرب السير ، وإذا حوله قصص وحوله أحاديث ، وإذا هو بطل الأبطال .

لقد جاء الفتى كافور إلى مصر مسوقاً سوق العبيد ، وعرض للبيع فى أسواقها عرض العبيد ، وما كان من البيض ولكن كان من السود ، وما كان على سواده وسيما ، بل كان دميما ، قبيح الشكل ، مثقوب الشفة السفلى ، مشوه القدمين ، بطيناً ، ثقيل البدن .

من أجل ذلك لم يُدخل به إلى القصور وإنما سيق إلى ما يوائم من فى مثل خلقه ، فإذا هو ملك لتاجر من تجار الزيت يُسخره فى شئون شتى .

وأكبر الظن أن أبا المسك حمل نير المعصرة على كاهله ، وداس الكسب

برجليه ، وحمل الأوانى على عاتقيه ، وجر العجلات بيديه ، وافترس الأرض ، وتمرغ فى الزيت ، ولقى الكثير من العنْت الذى يصحب حرفة كهذه ، وتعرض لويل كثير من ذلك الويل الذى يتعرض له صبى فى مثل رِقّه وفى مثل خلقه .

وقد عرفنا أبا المسك قويا جلداً حين كبر ، وأكبر الظن أنه كان قويا جلداً حين كان صغيراً ، فحمل عبئه فى صبر وأدّاه فى رضا . وما نشك فى أن هذا كله أكسبه عطفاً وأكسبه تقديراً ، لا ندرى أمن أجل هذا طمع فيه غير صاحبه الزيات ، أم أن صاحبه الزيات استثقل منه خلقه . وضاق بقبحه ففرّط فيه .

وسواء أكانت هذه أم تلك .. فلقد خرج أبو المسك من ملك تاجر الزيت إلى ملك رجل آخر . وإذا هو فى يد محمود بن وهب بن عباس الكاتب .

ولقد أسعفت هذه النقلة أبا المسك ووضعت رجله على أول الطريق المفضى إلى الخير . فما من شك فى أن أبا المسك بدا هنا حياة جديدة غير تلك الحياة الأولى . وما من شك فى أن أبا المسك بدأ يتصل شيئاً بالقراءة والكتابة بعد أن نفض يديه من أدران الزيت .

وكان ابن عباس الكاتب موصولا بابن طغج ، يعرفه قبل أن يلى مصر ، ويعرفه حين كان قائداً من قواد تكين أمير مصر .

ويشاء القدر أن يحمل أبو المسك يوما إلى ابن طغج هدية ، يُرسله بها مولاه ابن عباس الكاتب إلى ابن طغج . ويشاء القدر إلا أن ينفتح قلب ابن طغج لهذا الصبى الأسود بعد أن أغلق قلب ذاك الزيات دونه .

وما نظن ابن طغج أعجب بشىء فى كافور غير قوته ، فلقد كان ابن طغج - كما مر بك - يتمتع بحظ منها كبير ، وكان يعنى الإخشيد أن

يضم إليه من هم على شاكلته فى هذا ، أو من سيشبون على هذا ، وكان ذلك سلاح القصر ، وكانت تلك عدته . من أجل ذلك سعى ابن طغج سعيه ليشترى أبا المسك ، ومن أجل ذلك دفع ابن طغج ثمانية عشر ديناراً ثمنا لأبى المسك .

وما نظن ثمانية عشر ديناراً كانت كثيرة لشراء عبد ، وما نظن أنها كانت قليلة أيضا فى شراء عبد مثل كافور .

وهكذا بدأت الحياة تستقر تحت قدمى أبى المسك ، وبدأ جده ينير السبيل أمامه ، وأطلت عليه الفرص تواتيه . غير أن الجّد وحده ليس عدة المجدين يبلغون به ما كُتب لهم ، وليست الفرص وحدها زاد المحظوظين تبلغ بهم ما قُدر لهم . ولابد إلى جانب هذا الجد وتلك الفرص من صفة أو صفات يتميز بها هذا المجدود وذاك المحظوظ ، تعين تلك الصفة وهذه الصفات الجَدَّ على ألا يتعثر ، وتُمسك هذه الصفة وتلك الصفات الفُرص فلاتفلت .

وكم من جد يواتى غير متهيء له فيمر مراً وما أعطى شيئاً ، وكم من فرص تسنح لغير مُبالٍ فتمضى لغوا دون أن تُعطى شيئا .

والذى نعرفه عن كافور .. أنه كان متهيئا لذلك الجد مُلقياً بالا لتلك الفرص ، فلقد حل بمصر يحمل نفسا كبيرة ، ويحمل قلبا كبيرا ، ويحمل أملا واسعاً ، ويحمل طمعاً عريضاً ، حمل هذا كله وما كان عندها غير فتى صغير ، وما كان عندها غير عَبد يباع ، وما كان عندها غير ذلك الدميم القبيح الممجوج الذى لا يطمع إلا فى أن يجد سيداً يُؤويه ، ولقمة يسد بها جوعته ، وشربة يروى بها ظمأه ، ورحمة قليلة يودعها الله قلب من يشتريه ، وعملا هيناً لا يؤذيه .

فلقد رووا عنه أنه بعد أن جلبه النخاسون إلى مصر .. مرّ بسوق من

الأسواق ومعه عبد مثله جلبه النخاسون هو الآخر إلى مصر فباعوهما . ومشى هذان العبدان فى تلك السوق يتطلعان ، يرى هذا فيحرّك ما يرى أمله ، ويرى ذاك فيحرك ما يرى أمله ، وإذا هذا ينطق يحدث بما يأمل ، وذاك ينطق يحدث بما يأمل ، ولو استوت النفسان لاستوى الأملان ، ولكن النفسين كانتا مختلفتين .. فاختلف الأملان .

يقول صديق كافور : أتمنّى لو اشترانى طباخ فأعيش عمرى شبعان بما أصيب من مطبخه .

ويقول كافور : أتمنى أن أملك هذه المدينة .

كان هذا أمل الصديق وكان ذاك أمل كافور . ولو أن أبا المسك لم يكن يحمل نفساً ، ولم يكن يحمل قلباً .. لصغر صِغَر صاحبه ، ولجرى لسانه بما جرى به لسان صاحبه ، أو بشىء آخر لا يبعد عنه .

وهل كان أبو المسك إلا عبداً يحكى هذا العبد فى مظهره ، ولكنه كان غير ذلك العبد فى مخبره ، ومن أجل ذلك جلّ فى أمله ، وجل فى طموحه ، وجل فى طمعه ، لم يثنه عن أن يكون صاحب ذلك الأمل ، وصاحب ذلك الطموح ، وصاحب ذلك الطمع .. أنه عبد ، وأنه قبيح دميم .

ولقد زاد الرواة فقالوا : إن أبا المسك بعد أن أصبح ملكا .. مر بتلك السوق ، فرأى صاحبه بالأمس يحتويه دكان طباخ ، فضحك وقال : لقد أدرك كل منا ما تمنى .

بهذه النفس وذاك القلب عاش كافور فى مصر ، وما نقول إن أبا المسك بلغ ما بلغ بهذه النفس وذاك القلب ، ولكنا نقول : إن هذه النفس ساندت جدّه ، وإن ذاك القلب اغتنم الفرص . فإذا الجد تسانده نفس ، وإذا الفرص يهتبلها قلب .

وكأنى بكافور لم يتصور له هذا الأمل ، ولم يكبر فى نفسه هذا الطمع ، إلا بعد أن انفرد بمُنَجِّم من المنجمين ينظر نَجمه ،

وحين بشّره المنجم بأنه سوف يصير إلى رجل جليل القدر ، وأنه سوف يبلغ معه مبلغاً عظيما ، لفه ذاك الأمل الكبير واحتواه ذاك الطمْع الجليل .

ولكنى على هذا لا أحب أن أجرد أبا المسك من نفسه ومن قلبه قبل وقفته تلك إلى المنجم ، فلو أنه لم يكن ذا نفس ، ولم يكن ذا قلب .. لهانت فى أذنيه كلمة المنجم ، ولظنها عبثاً من عبث الناس به . وما أظن أبا المسك سلم من كثير من هذا العبث . ولكن هذه الكلمة صادفت هوى من نفس أبى المسك ، ووقعت منه موقع الجد فآمن بها وتيقنها ، فإذا هو يخرج ما فى جيبه ليعطيه هذا المنجم .

وما كان هذا الجيب الحقير يحوى غير شىء حقير ، ولكن هذا الحقير كان عزيزاً عند كافور عزَّ الشىء العظيم عند من يملكون . فأخرج أبو المسك درهمين ، وكانا كل ما يحتفظ به ، وأعطاهما المنجم .

وضجر المنجم بأبى المسك وأخذ يبكّته وهو يقول له : أبشرك بشرى عظيمة وتجازينى عليها دراهم قليلة ؟

ويحس كافور الخجل ، وما كان يملك غيره بعد الدرهمين ، فجاد منه بالكثير . وكان المنجم يمسك فى نفسه مزيداً من البشرى كان ينتظر بأبى المسك ليرى ما عنده من ثمن ، وحين رأى الرجل لا يملك غير ما أعطى ، لم يشأ أن يمسك ما أمسك ومضى يقول له : وأزيدك أنك سوف تملك هذا البلد .

خبر من الأخبار نكاد نصدّقه ونكاد نكذبه ، فلقد مر مثله لعمرو بن العاص حين وقعت الكرة فى حجره ، وما كانت الكرة تقع إلا فى حجر من

يملك مصر ، ولقد مر مثله لابن طغج حين حام حول رأسه طائر معروف ، وما كان هذا الطائر يحوم إلا حول رأس من يجاب إلى ما يتمنى ، وها هو ذا الخبر يصور صورة أخرى ، ليست كرة وليست طائراً ، ولكنها منجّم يقول .

ولكن الأخبار وإن نسجت كذباً هنا وهناك فهى تحمل فى طياتها نواة من الصدق ، يدور حولها الخبر على صورة باطلة فى مَجراها ولكنها حقّة فى مبعثها . ولقد كان أبو المسك يحمل تلك النواة ، ثم دار الناس حولها بتلك الأخبار ، ولقد كان كافور يحمل هذا الباعث ، ثم حاك الناس حول هذا الباعث الأخبار .

وهؤلاء الذين تحدثوا عن كافور فمالوا هذا الميل كان لابد لهم من أن يُلهبوا خيالهم ، ومن أن يفسحوا لهذا الخيال الذى خالوه .

فهم يقولون : إن أبا المسك جَرب فاستبد به الجرب ، وضاق به سيده فطرده ، وإذا هو يهيم على وجه فى الطرقات لايجد ما يأكله ، وإذا الجوع الملح يلجئه إلى أن يُلح على طباخ ليعطيه شيئاً يأكله ، وإذا هذا الطباخ يضيق بأبى المسك فيضربه بمغرفة فى يده ساخنة شديدة ، وإذا أبو المسك لا يقوى للضربة مع الجوع .. فيقع مغشياً عليه .

ويمر بأبى المسك رجل ذو قلب رحيم .. فيلين لأبى المسك ، ويرثى له ، ويحمله إلى داره يحنو عليه ويأسوه إلى أن يبرأ ، وإذا هو بعد هذا يعود به إلى سيده معافى لا يرجو على ما فعل جزاء .

هذا كله وشىء آخر غيره مما هو على مثاله يروونه عن أبى المسك ، قد يكونوا فيه كاذبين وقد يكونوا فيه صادقين ، فإن صدقوا ، فلقد صوروا لنا الرجل ، وما أسرفوا ، وإن كذبوا فلقد صوروا لنا الرجل ، وأسرفوا ، وما بنا أن نعدل عن أن الرجل كان على الحالين عظيما ، وكان ذا نفس وكان ذا قلب .

وما نشك فى أن أبا المسك كان ذكيا وكان فطناً وكان لبقاً ، أدرك فيه ذلك مولاه الإخشيد ، لم يدركه رجماً بالغيب وإنما أدركه عن اختبار ، فإذا هو يقول بعد هذا الاختبار : والله لا يرث دولة ابن طغج غير هذا العبد ، وهو يعنى أبا المسك .

وما هذه الكلمة بقليلة على النفس أن تُحسها ، ولا هى بهينة على اللسان أن يقولها ، ولكنها كلمة اعتلجت فى النفس فلم تقو النفس على الاحتفاظ بها ، ومشت إلى اللسان فلم يملك اللسان أن يجمد دون أن ينطق بها . ولو أنها كانت أملا من الآمال يسكن قلب الإخشيد ، أو أمنية من الأمانى تخالج فؤاد الإخشيد ، لقلنا أملا ملأ قلب الإخشيد ففاض عن ذلك القلب دون أن يعى ، ولقلنا أمنية من أمانى الإخشيد يلهج بها لسانه فيما يلهج . ولقد كان الإخشيد يحب أبا المسك .. لكنه كان يحب أبناءه فوق حبه لأبى المسك ، وما كان الإخشيد يبغى إلا أن يرى أبا المسك حيث هو وأبناءه حيث هم ، وما نظنه رجا أن يسبق خطو أبى المسك خطو أبنائه فحمل لأبى المسك هذا الأمل وتلك الأمنية ، وما قال الإخشيد تمنيا ولكنه قال ما قال يملى حسُّه ويغلب وجدانُه ، وما أملى حس الإخشيد عن عفو ولا غلب وجدانُه عن غير وعي .

ولكن أبا المسك لاشك كان قد ملك من الإخشيد هذا الحس ، وملك من الإخشيد هذا الوجدان . ومن يملك هذا وذاك لن يكون رجلا من الرجال الكثيرين ، ولكنه يكون رجلا من الرجال القليلين . وهكذا كان أبو المسك من هؤلاء القلائل ، استطاع أن يجعل من يرجو الملك لأبنائه .. يكاد يرجوه له ، ومن يحمى للدفاع عن حق أبنائه .. يتراخى فى هذا الدفاع عن أبنائه ، ويراه العادى عليه والطامع فيه ، فلا يفعل شيئاً يدفعه به ، بل يكاد يؤيده عليه .

والرواة الذين ينقلون هذه الكلمة الوحيدة التى قالها الإخشيد فى

كافور ، يروون حادثة وحيدة لكافور من تلك الحوداث التى حركت الإخشيد فيقولون : إن الإخشيد جلس يوماً للفرجة على فيل وزرافة ، وإذا عبيده كلهم قد شغلوا عنه بالنظر إلى الفيل والزرافة ، ولكن واحداً منهم لم يشغل مثله ، وظل نظره عالقاً بمولاه ، يخاف أن تبدو لمولاه حاجة إليه فيمنعه انشغاله عنه من أن يبادر إلى تلبيته .

وأدرك الإخشيد هذا من أبى المسك كما أدرك غيره من سائر عبيده ، ورأى ماكان من أبى المسك شيئاً لا يمر عفواً ولاشيئاً يأتى عفواً ، فامتلأت نفسه إعجاباً ، وإذا ملأ الإعجاب النفس نطقت لاتحتاط ، وقالت الحق لاتعدل به .

هذه الفعلة هى التى حركت الإخشيد إلى أن يقول : ليكونن لهذا العبد شأن . كما حرك غيرها الإخشيد إلى أن يقول كلمته الأولى ، وحين أحس من أبى المسك أنه حريص على أن يجمع أمر مولاه كله فى يديه يكون له من دون المتصلين بمولاه . ويكاد يكون له من دون مولاه نفسه .

فالمؤرخون يروون أن الإخشيد اشتهى يوماً طعاماً ما ، وأبى أبو المسك إلا أن يحملَ هذا الطعام إليه ، لايحب أن يدع هذا لصاحبه . وكانت منزلة أبى المسك عندها قد جلت عن مثل هذا . ولكنه أحب أن يجمع للإخشيد شهوتين : شهوة بطنه إلى الطعام ، وشهوة نفسه إلى السيادة . والملوك يرضيهم أن تشبع نفوسهم قبل أن تشبع بطونهم ، ويرخيهم أن يحسوا فى شبع النفس فنوناً أشبه بفنون الطعام .

عرف هذا أبو المسك فلم يفته أن يحمل طبق الطعام إلى مولاه ليدخل السرور على نفسه بهذا الفن من الطاعة ، مع هذا السرور الداخل إلى بطنه بهذا الفن من الطعام .

ولقد كان أبو المسك يعرف أنه حين يبعد عن الإخشيد فى شىء يبعد

منه فى أشياء ، ومالمثل هذا يُجرى أموره الطامع ، ولقد كان أبو المسك طامعاً فلم يحب أنْ يبعد عن الإخشيد فى شىء ما ، لا يرى فى كل ما يحقق طمعه نكراً أو عيباً ، وإنما يرى النكر والعيب فى أن تغمض عيناه عن شأن من شئون الإخشيد .

وهكذا حرص أبو المسك على أن يملأ على الإخشيد يقظته ، فإذا الإخشيد تمتلىء نفسه بأبى المسك منامه ، فلا يأوى إلى مضجعه حتى يراه ، ويراه فى منامه صورة مما رآه فى يقظته . فلقد روى الراوون للإخشيد أنه رأى فى المنام كأنه أسلم إلى غلام من كبار غلمانه شيئاً فلم يقم به ، فنقله إلى غيره فلم يقم به ، وهكذا ظل ينقله من غلام إلى غلام حتى أسلمه آخر الأمر إلى أبى المسك فقام به .

لايعنينا بعد هذا مايقوله الراوون من أن الإخشيد قص هذه الرؤيا على مفسر من مفسرى الأحلام ، وأن هذا المفسر للأحلام قال للإخشيد : إن هذا المُلك يؤول إليه ، يعنى أنه سيؤول إلى أبى المسك .

لايعنينا هذا ولكن يعنينا مايدل عليه هذا المنام إن صح ، من أن أبا المسك استطاع أن يملك حياة الإخشيد بشقيها ليملك بعد ذلك الملك بيديه .

من أجل ذلك قلنا : إن أبا المسك لم يكن عن جَد كل ماأصاب ، وإنما ساندت حيلته جده ، فإذا هذه الحيلة تدفع الجد دفعاً ، وإذا هذا الجد يدفع الحيلة دفعاً ، وإذا هو آخر الأمر سلطان على مصر .

- ١٧ -

وإن الذى وصل به أبو المسك إلى الملك هو الذى ثبت به أبو المسك هذا الملك ، وكما أرضى أبو المسك مولاه الإخشيد بطاعته له فملأ عليه قلبه ، أرضى أبو المسك الناس من حوله بلينه وعطفه فملأ عليهم قلوبهم ،

وكما أحب الإخشيد أبا المسك فقربه منه .. أحب الناس أبا المسك فقَربوا منه ، وكما استسلم الإخشيد لأبى المسك فسلم إليه أمره .. استسلم الناس لأبى المسك يسلمون إليه أمرهم ، وكما أنسى الإخشيد عبودية أبى المسك فلم تحُل بينه وبين أن يراه على أمره كله يراه به جديراً ، كذلك أنسى الناس عبودية أبى المسك فلم تحل بينهم وبين أن يروه سلطاناً عليهم جديراً بأمرهم كله .

وشغل المصريون بآخر الأمر وأنسوا أوله ، لم يذكروا لهذا الرجل ماضيه وإنما ذكروا له حاضره . وحين قاسوا ذاك الماضى إلى هذا الحاضر وجدوا أن هذا الماضى لايفارق كثيراً ماضى سيده ، ولقد رضوا ماضى ذاك ، فما بالهم لايرضون ماضى هذا ، وحين رضوا ماضى الأول رضوه لأنه جزء من التجربة التى دخلوا فيها ، وكان عليهم أن يرضوا ماضى الثانى لأنه تتمة للتجربة التى دخلوا فيها ، وبعد هذا فلقد أحسوا أن الأول كان أبعد من قلوبهم بجشعه وظلمه ، وأن الثانى أقرب إلى قلوبهم بكرمه وعدله ، فأعطوه مالم يعطوا سابقه ، ليعطيهم هو مالم يعطهم إياه سابقه . وكان المصريون يحبون أن يرخوا للتجربة حرصاً منهم على ألا تضار الخلافة فتضار قضيتهم العامة ، وحرصاً منهم على شيء من الأمن تستقيم فى ظله حالهم شيئاً بعد هذه البلبلة المتصلة ، لايعنيهم كثيراً هذا الشأن الخاص للسلطان الذى لم يختلف عن غيره ، تاركين أمر هذا للخلافة ، كما تركوا أمر غيره للخلافة ، فما كان لهم فيما مضى رأى ليكون له فيما جد رأى ، وماأحبوا أن يخرجوا على الأولى حتى لايضاروا قضيتهم العامة ، وماأحبوا أن يخرجوا على الثانية حتى لايضاروا قضيتهم العامة ، والتفوا حول أبى المسك يحبون أن يعينوه على رفقه ، وأن يعينوه على عدله ، وأن يعينوه على إسماحه ، ليجعلوا منه سلطاناً كما يحبون لسلطانهم أن يكون ، وليجعلوا منهم رعية كما يحبون للرعية أن تكون ، ومضت الأيام بينهم وبين أبى المسك رخاء كلها يعطيهم ويعطونه ، فلقد كان أقرب إلى قلوبهم ، وكانوا هم أقرب إلى

قلبه ، لاندرى أكان ذلك من أبى المسك دهاء ليشغل الناس بحاضره عن أن يذكروا ماضيه ، أو كان ذلك خُلقه فأملى عليه ذلك الخلق .

وسواء أكانت هذه أم تلك ، فلقد كان أبو المسك غير الإخشيد ، وغير ابنى الإخشيد أونوجور وعلى ، كان غير هؤلاء جميعاً رفقا بالناس ، وقرباً من الناس ، وعدلا بين الناس ، وذكراً للناس .

فلقد كان سماط أبى المسك الذى يمد مع كل يوم لمن حوله ينالون منه طعاماً وربما شيئاً كبيراً لايعيه خيال . يصوره المؤرخون هذا التصوير الرائع فيقولون : إنه كان يحوى مائتى خروف من الخراف الكبيرة ، ومائة خروف من الخراف الصغيرة ، ومائتى وخمسين إوزة ، وخمسمائة دجاجة ، وألف طير من الحمام ، ومائة صحن من الحلوى ، وكل صحن عشرة أرطال ، ومائتين وخمسين قربة من شراب الليمون المحلى بالسكر ،

هذا كله كان يحويه سماط أبى المسك ، وهذا كله كان يقدم للآكلين معه كل يوم ، وهذا كله كان يطعمه الناس يوماً بعد يوم ، لا يعنينا من كان الآكلون والطاعمون ، فما نظن هذا السماط إلا اتسع للكثيرين ، وإلا نال منه الكثيرون ، من فاته حظه فى يوم لم يفته فى يوم آخر .

ومانظن كافور قصد بهذا السماط غير أن يشيع فى الناس كرمه ، ويشيع فى الناس جوده ، ومانظنه قصد إلا أن يجمع الناس كلهم حوله ، وأن ينال الناس كلهم من كرمه ، ومانظنه كان يقصد أن يخص المتميزين .

فلقد حدث المؤرخون أنه كان يرسل كل ليلة عيد حِمل بغل من المال فى صُرر ، مكتوب على كل صرة اسم من جعلت له ، من بين عالم وزاهد وفقير ومحتاج .

كما حدثوا أنه كان يرسل كل عام من المال والطعام والثياب شيئاً كثيراً مع الحجاج ليوزع فى الحجاز على المعوذين وآل البيت .

وأكبر الظن أن أبا المسك كما انطوت نفسه على أمل كبير انطوت على خير كثير ، وحين بلغ أمله الكبير فاض عنه خيره الكثير ، رأى هذا الخير كفاء بلوغ هذا الأمل ، فانبسطت يده ينفق مما آتاه الله ، وانبسطت نفسه يؤنس الناس كما آنسه الله ، لايذكّر بمعروف إلافعله ، ولا يذكُر هو معروفا ماإلا فعله .

ولعلك لم تغب عنك قصته مع ذلك المنجم ، ولعلك لم يغب عنك ماأعطاه هو للمنجم ، وماكان المنجم يطمع فيه .

ولقد حكى الراوون أن أبا المسك بعد أن انتهى إليه هذا الملك الذى بشره به المنجم ، نام ليلة فرأى هذا المنجم فى منامه يقول له : لم نفترق على هذا . يعنى المنجم أن أبا المسك قد وعد المنجم حين فارقه عاجزاً عن أن يزيد فى أجره أن يعوضه عما كان إن نال مارآه له المنجم .

وحين أصبح كافور لم ينس مارأى فى منامه ، ولم يشأ أن يهمل ماذكر فإذا هو يجد فى البحث عن ذاك المنجم . وبعد بحث طويل عرف أن ذلك المنجم قد خرج من دنياه ليلقى ربه . وكان الظن بأبى المسك أن ينتهى عند هذه وحسبه ماكان ،. ولكنه جد يسأل عن أولاده ، فإذا هو يعرف أن له ابنتين ، إحداهما زوجة والأخرى عذراء . فأمر ، فاشتريت لهما دار وأمر بأن تعطى العذراء مائتى دينار لعرسها .

أرأيت إلى أبى المسك كيف ذكر الخير حيث ينسى غيره ، ثم أرأيت إليه كيف جازى على الخير حيث يهمل غيره ، ثم أرأيت إلى رأيى فيه ، أن تحقيق هذا الأمل الكبير طبعه على خير كثير .

ومن الناس من يَنبهون بعد ضعة فيستأسدون ، ويعزون بعد مهانة فيتنكرون ، ويملكون بعد عدم فيجحدون ، يفعلون هذا لأنهم لم يحملوا نفوساً سليمة ولاقلوباً بريئة ولاأفئدة نقية ، ولكن أبا المسك كان سليم

النفس برىء القلب نقى الفؤاد ، فلم يستأسد ولم يتنكر ولم يجحد ، بل كان فى نبوهه . كما كان فى ضعته ، وكان فى عزه كما كان فى مهانته ، وكان فى ملكه كما كان فى عدمه ، رجلا من الرجال لم تُبطره النعمة ، ولم يستشر مع السلطان .

يروون أن علويا من العلويين - هو أبو جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر - كان يساير أبا المسك يوماً ، وخلفهما بغال عليها أمتعة ومال ، وفيما هما ماضيان سقطت مقرعة لأبى المسك ولم يرها أحد من خدم أبى المسك ولامن حاشيته ، ورآها هذا العلوى ، فنزل عن دابته مُسرعاً وأخذها ليسلمها إلى كافور .

وماكان على كافور من شىء إن سكت على هذه ولم يقل شيئاً ، فلقد كان سلطاناً وكان العلوى واحداً من الرعية ، ومافعل العلوى غير مايجب على مثله لسلطانه . ولكن أبا المسك كان يذكر نفسه فيُحس هذا الذكر ، وكان يعرف أن حقه على الناس سلطاناً لايبلغه أن يسخّرهم فى غير مايفرضه عليهم هذا السلطان ، وكان يرى للناس أقداراً لا يبلغ أن ينال منها سلطانه ، وكان يقدر أهل البيت قدراً يهون أمامه سلطانه . فما كاد يحس مافعله العلوى معه حتى بكى وذل وهان ، وحتى أخذ يعتب على العلوى فعله به وهو يقول : أيها الشريف أعوذ بالله من بلوغ الغاية . ماظننت أن الزمان يبلغنى إلى أن يُفعل بى هذا . وحين بلغ أبو المسك قصره وودّعه العلوى أرسل أبو المسك فى إثره البغال بما عليها من متاع ومال . ويقولون إن ذلك كله كان يقوّم بما يُربى على خمسة عشر ألف دينار .

مافعل هذا أبو المسك ليدفع عن نفسه نقصاً ، فما نظن الرجل كانت تعنيه هذه فى مثل منزلته التى بلغها ، ومانظنه إن كان فعلها لهذا الدفع كان ملزماً بهذا كله ، فما كان ملزماً بأن يبكى ، وما كان ملزماً بأن يعتذر ، وما كان ملزماً بأن يسوق ماساق ، ولقد كان فى واحدة من هذا

كله مايغنى ، بل لقد كان فيما دون واحدة من هذا كله مايغنى ، ولكن الرجل حين استجاب الله لأمله الكبير استجاب هو للخير الكثير ، يجعل هذا كفاء هذا وشكره .

لم يفرّق كافور فى خيره بين عدو وصديق ، بل لقد علت نفسه عن هذا الذى يحسه الناس فلا يعطون إلا حين يميلون ، ويمنعون حين ينفرون ، فعل ذى النفس التى لم تَسْمُ عن درن الحياة ، تعطى مغرضة وتمنع مغرضة . والنفس حين تصفو ترى أولى الناس بخيرها عدوها ، فهى لم تخسره عدواً إلا عن عيب فيها لا فيه ، ولو أنها سلمت من هذا العيب .. سلم لها عدوها وكسبته صديقا .

وهكذا كان أبو المسك حين ساقوا إليه قاصًا ، كان يقف إلى الناس يقص عليهم من قصصه ويعرض بكافور ويقول : انظروا إلى هوان الدنيا على الله تعالى ، فإنه أعطاها لمقصوصين ضعيفين ، ابن بويه ببغداد ، وهو أشل ، وكافور عندنا بمصر ، وهو خصى .

ولقد كان فى طوق أبى المسك أن يبطش بهذا القاص ، وهو مالك عذره . وما كان عليه فى ذلك إن فعل من حرج ، ولكن أبا المسك فيما أظن كان ذا نفس صافية ، يشفق على عدوه قبل أن يشفق على صديقه . ولقد عجب هؤلاء الذين ساقوا إليه هذا القاص وأخبروه بما سمعوا منه ، عجب هؤلاء لكافور حين رأوه يخلع على هذا القاص ويكافئه بمائة دينار ، وعجب هؤلاء حين استمعوا لكافور يقول : ما قال هذا إلا لجفوتى له .

ولقد صدق ظن أبى المسك وصدق حدسه ، فلقد استمع الناس إلى هذا القاص بعد الذى كان من أبى المسك إليه ، فإذا هم يسمعونه يقول : ما أنجب من ولد حام إلا ثلاثة : لقمان وبلال المؤذن وكافور .

بهذه النفس التى امتلأت شكراً لله كان يجلس أبو المسك للناس صباحاً

ومساء يقضى حوائجهم ، وبهذه النفس التى امتلأت شكراً لله كان أبو المسك حين يفرغ من قضاء حوائج الناس يتهجد ويسجد لله وهو يقول : اللهم لا تسلط علىّ مخلوقاً . وبهذه النفس التى امتلأت شكراً لله لقى أبو المسك ربه فى جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة ، بعد أن انفرد بهذا الحكم سنتين وأربعة أشهرِ .

خرج من دنياه هذه القصيرة بهذه الأعمال الكثيرة ، يروى له التاريخ صفحاته الأولى فنسمعها مهونين ، ويثنى بالثانية فنطالعها خائفين . ويختمها بصفحاته الأخيرة فنقرؤها راثين داعين .

والرجل أصدق ما تدل عليه صفحاته حين يستقل بأمره كله . لا يكون محمولا عليه ولا منازعاً فيه ، ولقد كان كافور مع مولاه الإخشيد هذا المحمول على أن يفعل ، وكان مع ولدى الإخشيد ، أونوجور وعلىّ منازعاً فيما يفعل ، وحين آل الأمر إليه ، كان غير محمول على شىء ، ولا منازع فى شىء فخلا له أمره كله ، واستقل بأمره كله ، فإذا هو يملى عن طبيعته الحقة ، ونفسه الصادقة .

– ١٨ –

ولقد دخل هذا الرجل – أعنى أبا المسك – على حياة هذه الدولة الإخشيدية ، فشغل به الدولة والمشغولين بهذه الدولة إحدى وعشرين سنة ، تزيد قليلا ، وحين خرج هذا الرجل من حياة هذه الدولة خرجت بخروجه حياتها ، فإذا هى لا يشغل بها أحد وإذا هى ذكرى وعبرة .

وفى الحق لقد استأثر كافور بتاريخ هذه الدولة ، حين كان لها تاريخ ، فلقد عاشت فى الحكم أربعاً وثلاثين سنة ، زحمها أبو المسك على إحدى وعشرين منها ، كان إليه معها تدبير الملك ، كما زحمها على سائر سنواتها الأولى كلها أو بعضها ، كان إليه فيه تدبير أمر مولاه ، قضى منها

شيئاً – لا ندرى أقليلا كان أم كثيراً – يمهد به ليدخل إلى قلبه بعد أن دخل إلى حياته ، وحين دخل إلى قلب مولاه دخلت حياة مولاه فى حياته ، فإذا أبو المسك يجمع حياتين ، وإذ مولاه يقضى به أموره ، إذا كان أبو المسك يده كما كان فكره .

ونكاد نقول : ما حكمت هذه الدولة ولكن حكم كافور ، ونكاد نقول : إن هذه الدولة ماجاءت إلا لتمهد لكافور .

عاش ملوكها وعاش كافور ، فإذا هؤلاء الملوك لم يملأوا الوجود كما ملأه كافور ، ولم يشغلوا لسان شاعر بهم كما شغل كافور لسان أبى الطيب المتنبى ، لا يعنينا أنه ذمه بعد أن مدحه ، ولكن يعنينا أن المتنبى أبقى اسم أبى المسك بعد مماته شيئاً مذكوراً ، كما جعل اسم كافور فى حياته شيئاً مذكوراً ، وعرف الناس أن أبا المسك رجل من الرجال الذين لهم وجود شاغل ، قد يكون كله حقاً إن صدّق الناس المتنبى فى مدحه إياه وكذبوا هجاءه ، وقد يكون زيفاً من الزيف إن صدق الناس هجاء المتنبى إياه وكذبوا مدحه . وأغلب الظن أن المتنبى أنصف أبا المسك حين مدحه ولم ينصفه حين هجاه ، ينصرنا فى هذا الظن ذلك الشعر الذى نُقش على قبر هذا الراحل بعد أن خلّف الحياة وأصبح سيرة يُغرى الناس بها مدحاً أو ذماً ، ليس ما يرغبون ولا ما يرهبون ، فيظن بالقائل الظنون . وهذا الذى وجد من شعر على قبر هذا الراحل يصدق المتنبى فى مدحه ويكذبه فى هجاءه إذا هو كلمة صدرت عن غير هذا الهوى الذى أرضى المتنبى حيناً وأسخطه حيناً . فلقد وجد مكتوباً على قبر كافور بالقدس ، وكان قد حمل جثمانه إلى القدس ليدفن هناك :

ما بال قبرك يا كافور منفردا بالصّحصح المرت بعد العسكر اللجب
يدوس قبرك أحاد الرجال وقد كانت أسود الشرى تخشاك فى الكتب

كما وجد مكتوباً على قبره :

انظر إلى غِير الأيـام مـا صنعت أفنت أنـاساً بهـا كـانـوا ومـا فنيت
دُنيـــاهم ضحكت أيـــام دولتهم حتى إذا فنيت نـاحت لهم وبكت

- ١٨ -

وحين خرج كافور من حياة الملك .. دخل إلى حيـاة الملـك أحمـد بن علي بن الأخشيد ، وكانت سنه يوم أن وليَ .. إحدى عشرة سنة .

وفي مثـل هـذه السن أو قريبـاً منهـا ولي أونـوجـور ، ولكنـه وجـد إلى جانبه مثل أبي المسك فلم تثقل عليه الحياة ولم تثقل عليه أعباء الملك .

ومضى أحمد بن علي في تلك الحياة المـدلهمّـة يخطو على غير هـدى ، وإلى جـانبـه وزيره أبو الفضـل جعفر بن الفرات ، يسيء ولا يحسن ، وإذا هـو يقسـو على قـوم ويعنف ، وإذا بعض من قسـا عليهم وعنف يفرون عن إلى المغرب ليمهدوا للفاطميين أن يـدخلوا مصر ، وليستحثوا جوهراً على أن يعجل .

وإذا أيام أحمد تمضي مضطربة ، وإذا بالجيوش الفـاطميـة تـدخل عليـه سلطانه ومـاأمضى فيـه غير عـام وثلاثـة أشهر ، وإذا هو مقبوض عليـه ، وإن القدر الذي سلبه الملك سريعاً .. سلبه الحياة سريعاً ، فمات بعد قليل .

وانطوت بموته آخر صفحة من حيـاة هـذه الـدولـة ، كمـا انطوت بموتـه تجربـة من تلـك التجـارب التي عـاشتهـا مصر تعطي فيهـا ولاتـأخـذ ، تؤثر قضيتها العامة على قضيتها الخـاصـة .. لاعن ضعف .. ولكن عن رأى ، عـدا دور التفكير فيه إلى دور الإيمان به ، فانحـدر من الرأس إلى القلب ، وغـدا النـاس يُملـون عن عـاطفـة تغلبهم على عقـولهم ، وإذا هم راضـون لأنهم يحبون .

الحقبة السادسة

الدولة الأيوبية

- ١ -

يعرف التاريخ دخول الأتراك إلى ديوان الخلافة بدخول المعتصم بالله أبى إسحاق محمد بن هارون الرشيد إلى الخلافة ، يذكر التاريخ ذلك للمعتصم ولا يكاد ينساه ، وحين يذكر التاريخ ذلك للمعتصم يمضى فيحدثك أن هؤلاء الأتراك ، الذين وسعتهم الخلافة ضاقوا هم بالخلافة ، والذين دخلوا إلى الدولة مأجورين كادوا أن يكونوا الآجرين ، والذين دخلوا ليناصروا الخليفة خرجوا يخذلون الخليفة . ثم يمضى هذا التاريخ يذكر لك أن هؤلاء الأتراك ثاروا أول ما ثاروا على المتوكل بن المعتصم فقتلوه ، لم يرعوا فى الابن ما كان للأب عليهم ، وهمدوا حينا لتمضى ستة أشهر حكمها المنتصر بن المتوكل الخليفة المقتول ، ليهبوا ثائرين بالمستعين بالله أحمد بن المعتصم ، أخى الخليفة المقتول ، فيخلعوه ثم يعذبوه ثم يقتلوه . يريدون بالذى فعلوا أن يجزوا المعتصم على ما قدَّم إليهم جزاء ثانيا بعد ذلك الجزاء الأول .

وإذا هم بعد أن قتلوا ابنين خليفتين للمعتصم يَشْرون ، وتُغريهم الدماء بالدماء ، ويضرون بالخلفاء ، كلما أقيم خليفة ولعوا به إيذاء ، لا يثنيهم عنه إلا فتور يحسه الشبعان الريان ، فإذا ما سغبوا أو ظمئوا ثاروا لسغبهم وظمئهم ليأكلوا خليفة جديداً وليشربوا دمه .

فلقد ثاروا بالمعتز من بعد ثورتهم بالمستعين ، فخلعوه وعذبوه ، ثم ضربوه حتى مات ، ومن بعده ثاروا بالمهتدى فقتلوه ، ثم بالمعتمد على الله فغلبوه على أمره ولم يتركوه إلى أن قتل .

ومضت الخلافة فى هذا التعثر ، وخرج الأمر من يد أصحاب الأمر ، ومرت الأيام لتشهد أروع المآسى وأعنف الأحداث ، ولترى الخلفاء يباح دمهم فى يسر ، ويُنكل بهم فى يسر ، ويُشردون فى يسر . فيُجر القاهر من على كرسى الخلافة لتكحل عيناه إلى أن تسيلا ، وإلى أن يشهده المسلمون واقفاً بينهم على الطرقات يسأل بعد أن شهدوه على كرسى الملك يحكم ، واستمع إليه المسلمون يقول لهم : يا معاشر الناس ، أنا بالأمس كنت خليفتكم ، واليوم أسألكم ما فى أيديكم . فمرّوا به ، منهم من استجاب ومنهم من لم يستجب . وهم الذين كانوا يستمعون إليه من وراء الأستار يأمر فيستجيبون له جميعاً لا يردون عليه أمراً .

وشاع كحل عيون الخلفاء وسملها بالنار ، وطابت به نفوس المعذّبين ، فإذا هم يكحلون المتقى بالله ثم يكحلون المستكفى بالله .

وفى ظل هذا الاضطراب كان الولاة يجيئون إلى مصر ويخرجون ، يطمع أحدهم فى هذه الخلافة فيستبد بالأمر دونها ، ويقنع أحدهم بما نال فيرخى الحبل بينه وبينها ، يجعله ممدودا لا يقطعه . وبين هذا الطمع وذاك القنوع تقوم الدولة الطولونية بمصر (٢٥٤ هـ - ٢٩٢ هـ) لتزول أيام المعتضد ، ثم يغلب الفاطميون الخلافة الضعيفة على مصر فتصبح لهم من دون الخليفة المطيع (٣٣٤ هـ) .

ويحكم الفاطميون مصر ، ويظل الخلفاء العباسيون متربصين بمصر وبالفاطميين الدوائر ، لا يستقيم للعباسيين أمر كما لم يستقم للفاطميين أمر ، لهؤلاء ما يشغلهم من فتن ، ولأولئك ما يشغلهم من فتن ، وبينهما ما يشغلهما معاً من فتن ، إلى أن يقضى الله فى أمر الفاطميين على يد صلاح

الدين ، وإذا مصر تعود عباسية آخر المطاف أيام المستضىء ، بعد أن ظلت مائتين وخمس عشرة سنة فى يد الفاطميين .

غير أن الأيام لم تمتد بالعباسيين بعد هذا كثيرا ، فلقد استخلف بَعد المستضىء الناصر ، ثم الظاهر ، ثم المستنصر ، ثم المستعصم الذى خرج من الحياة مقتولا على أيدى التتار سنة ست وخمسين وستمائة ، وخرج بخروجه العباسيون من هذا التاريخ الطويل الذى شغلوا الوجود به نحوا من خمسة قرون ، وتركوا هذه الدولة العظيمة يتقاسمها الطامعون فيما بينهم ، وكانت مصر من نصيب الأيوبيين .

– ٢ –

والحديث عن الأيوبيين قبل أن نخوض فيه يعوزه حديث يمهد له ، منه ما يتصل بالحياة التى سبقت بُناة هذه الدولة شيئاً وأظلتهم شيئاً ، ومنه ما يتصل بالأصل الذى إليه ينتمون ، فهذا الحديث وذاك يصلانك بتاريخ هذه الأسرة حين لم تكن دولة ، لتتبين تاريخها حين كانت دولة ، فالأمور يملى بعضها على بعض ، ويستجيب بعضها لبعض ، وعلى هذا السَّنن تمضى الحياة .

وهذا الحديث الذى يسبق بُناة هذه الدولة شيئا يتصل ببنى بويه أولا ، وبالسلجوقيين ثانيا : أمتين عاشتا حياة الدولة العباسية ، ودخلتا فى تلك الحياة فكان لهما معها شىء .

وبنو بويه ينسبون إلى جدهم بويه ، رجل من الفرس سكن الديلم ، ذلك الإقليم الجبلى الجنوبى الغربى من بحر قزوين .

وما نحب أن نمضى مع المؤرخين بعيداً إلى الوراء نتعقب الآباء ، فذلك شىء حقه وباطله سواء .

وحين يضم المؤرخون إلى بويه دولة يضمون إليه ما اعتادوا أن يضموه إلى الدهاة الذين نالوا شيئاً كان غير مقدور لهم ، أو نبتوا نبتة لم يسبقها بذر .

فلقد حدثوا عن عمرو بن العاص وكُرته ، ونقلت إليك حديثهم . وحدثوا عن الإخشيد وطائره ، ونقلت إليك حديثهم . وحدثوا عن أبى المسك ومنجِّمه ، ونقلت إليك حديثهم . نقلت إليك ذلك كله فى كتابى عن « أبى المسك كافور » .

ولقد كان بويه واحداً من هؤلاء الذين انشقت عنهم الأرض ليحكموا الأرض ، لم يسبقه ما يسبق حياة المرقوبين المرموقين . من أجل ذلك لم يتركه المؤرخون دون أن يضيفوا إليه شيئاً من هذا الذى أضافوه لعمرو والإخشيد وأبى المسك ، ولأمر ما اختار المؤرخون أن يكون حديث بويه مثل حديث أبى المسك موصولا بمنجِّم . ولعلهم حين اصطنعوا هذا الحديث وذاك كانوا لا يجهلون أن التنجيم ليس غريباً على الفرس ، كما هو ليس غريباً على المصريين ، فهم يحكون أن بويه كان رجلا من أوساط الناس ، وكان يسكن الديلم ، وأنه كان له أولاد ثلاثة : أبو الحسين على ، وكان أكبرهم ، وأبو على الحسن ، وكان أوسطهم ، وأبو أحمد ، وكان أصغرهم .

وحين لم ينس المؤرخون أن بويه كان فارسيا ؛ ذكروا أن ألصق ما يضيفون إليه شىء يتصل بالنار . فادعوا أنه رأى فى منامه ناراً عظيمة تخرج منه فتستطيل وتعلو حتى كادت أن تبلغ السماء ، ثم إذا هى تنفرج إلى ثلاث شعب ، وإذا تلك الشعب الثلاث تنفلق إلى شعب كثيرة ، وإذا هذه الشعب الكثيرة قد أضاءت الدنيا ، وإذا العباد على وجه الأرض قد خروا لتلك النيران سجداً .

ويقص « بويه » رؤياه على منجِّم ، فيحدثه المنجم – وما كان يعلم أن بويه كان له أولاد وأن هؤلاء الأولاد ثلاثة – فيقول : سيكون لك أولاد

تلاثة يملكون الأرض ومن عليها ، وتعلو ذكراهم فى الآفاق كما علت تلك النار ، ويكون من نسلهم ملوك بقدر مارأيت من تلك الشعب .

ويحب المؤرخون ألا تمر القصة دون أن يكون فيها جانب مثير ممتع ، فلو أن الرؤيا وقعت لعظيم ما كانت غريبة عليه ، ولا كان غريباً عليه تفسير المنجم لها ، ولكن الرؤيا إذا وقعت لغير عظيم فلابد أن تثير دهشة ، ولابد أن تثير مع تلك الدهشة شيئاً ممتعاً يضفى على الحديث ملاحة وطرافة .

فلقد ثار بويه ولم يصدق ، ونظر إلى أولاده من حوله ، وما كان أخبر المنجّم بشىء عنهم ، مشدوها ، ثم عاد يحملق فى المنجم وهو يقول : أتسخر بى وأنا رجل فقير ، وأولادى هم الآخرون فقراء !

وما كاد المنجم يعرف الأبناء حتى سأل عن مولد كل منهم ، ثم أمسك بيد أبى الحسين على وقال : هذا يملك البلاد ، كما قبض على يدى أخويه من بعده واحداً بعد الآخر ، وهو يقول : وهذا من بعده ، ثم هذا من بعده .

ولكن القصة عند هذا لم تنته إلى نهايتها الطريفة ، من أجل هذا زاد المؤرخون أن « بويه » اغتاظ ، وأنه أمر أولاده بصفع هذا المنجم ، فصفعه الأبناء والمنجم يستغيث وهم يضحكون .

وتمضى الأيام فإذا أمر الديلم فى يد « مرداويج بن زياد » ، وإذا أولاد « بويه » على والحسن وأحمد بين رجاله الذين يعتمد عليهم ، وإذا هؤلاء الأبناء يعلو شأنهم شيئاً فشيئاً ، وإذا هم مع الديلم يهددون الخلافة فى بغداد ويخلعون الخليفة المستكفى بالله . وإذا هم يكادون يقضون فى أمر الدولة دون الخليفة ، وإذا بغداد بعد هذا لهم من دون الخليفة ، يحكمها بنو بويه باسم الديلم ، يرث ذلك الملك الصغير بويهى عن بويهى ، وإذا عدة هؤلاء الملوك البويهين أحد عشر يستأثرون ببغداد قرناً من الزمان يزيد قليلا ،

إلى أن يدخل عليهم السلجوقيون بغداد ويقضوا على مملكتهم تلك الصغيرة .

☆ ☆ ☆

ولقد أحببت أن أسوق إليك تلك الكلمة القصيرة عن تلك الدولة الصغيرة لأدخل بك إلى الحديث عن الدولة السلجوقية ، ثم لأصلك برجل الأيوبيين الأول صلاح الدين ، ففى ظل السلجوقيين نشأ ، وقليل عليك أن تعرف صلاح الدين قبل أن تعرف السلجوقيين .

☆ ☆ ☆

والسلاجقة - كما يذكر المؤرخون - كانوا قبل أن تجتمع لهم كلمة ، أخلاطاً من الترك تنتقل بين البلغار - حوض نهر الفولجا - وتركستان ، يعيشون على النهب والسلب . وظهر من بينهم رجل كان له شأنه يدعى « سلجوق » ، اجتمع الناس حوله حين قوى أمره ، وإذا هو يتحول عن موطنه الأول إلى بخارى ، وإذا هو يترك وثنيته ليدخل فى الإسلام .

وكان « سلجوق » طموحا فلم يقعد عن غزو يشنه هنا وهناك ، وعلى ما عاش عليه « سلجوق » عاش أبناؤه من بعده ، وإذا هم سلاطين صغار ، وإذا واحد من هؤلاء السلاطين الصغار يدخل بغداد ليزيل ملك البويهيين ، ويقيم دولة للسلجوقيين .

ويذكر لنا المؤرخون قائداً من قواد هذه الدولة هو « آقسنقر » ، ثم يذكرون له ابناً ، هو عماد الدين زنكى . وبعد ذلك يذكرون أن هذا الابن عماد الدين امتحن فى هذا الخلاف الذى ثار بين سلاطين السلاجقة ، وأنه فى محنة من تلك المحن الكثيرة لقى من يعينه على أمره ويُقيل عثرته ، وكان ذلك المعين والمقيل العثرة نجم الدين أيوب بن شاذى ، أخو أسد الدين شيركوه ، وتمضى الأيام فإذا هذان الأخوان موصول حبلهما بحبل

محمود ، ابن عماد الدين زنكى ، وإذا هما ينالان على يد محمود الكثير ، وإذا محمود يعبد لهما الطريق إلى الملك .

- ٣ -

وأحب لك أن تعرف أن هذين الأخوين غير سلجوقين ، وأنهما من بلد يدعى « دوين » قريب من أذربيجان ، وأنهما بعد هذا من الأكراد .

والأكراد - كما يقولون - ينتهون إلى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن .

وما أحب أن أدخل بك إلى ما بعد هذا من خلاف بين النسّابين ؛ فالخلاف بينهم لا يخرج بالكرد عن عمود النسب العربى .

والكرد بعد ذلك قبائل كثيرة تجل عن أن تحصى ، منهم المروانية الذين يزعمون أنهم من بنى مروان بن الحكيم بن أبى العاص ، ومنهم الهكارية الذين يزعمون أنهم من ولد عتبة بن أبى سفيان صخر بن حرب .

وكان شاذى أبو نجم الدين أيوب وشيركوه ، موصولا بصديق له من أهل دوين ، بينهما ود عميق وبينهما عشرة طويلة . ويخرج هذا الصديق مجاهد الدين بهروز عن « دوين » مغضوباً عليه ، فيضرب فى الأرض يسعى ، فإذا هو آخر المطاف موصولا بالسلطان غياث الدين مسعود السلجوقى . ويحظى بهروز فى مهجره الجديد ويعز ، والمرء إذا أصاب من خير الدنيا . أو أصابه مكروهها .. ذكر أصفياءه يحب أن يشركوه فى الخير أو أن يصيب من خيرهم فى الضر ، من أجل ذلك ذكر بهروز صفيه شاذى ، وأرسل إليه يستدعيه ليرى ماصار إليه من نعمة فيهش ، ولينال معه شيئا مما نال .

ويعطى السلطان قلعة تكريت لبهروز ، ولا يجد بهروز من يثق به غير صفيه شاذى ، فيرسله إليها ، ويرحل شاذى إلى تكريت ، يرحل إليها معه أهله ، ومعه أولاده .

ولقد بقى شاذى على تكريت مدة ، لا ندرى أطالت أم قصرت ، وأغلب الظن أنها كانت قصيرة ، وأن الموت عاجله دون أن يطيل وتطول مدته .

وأن الصديق الذى لم يبخل على شاذى بقلعة تكريت لم يبخل على ابنه نجم الدين أيوب بها ، فما إن مات الأب حتى أقام الابن مكانه ، يريد أن يجعل معروفه فى الأسرة كلها موصولا ، كما كانت صداقته برب هذه الأسرة موصولة .

وتمضى الأيام لتباعد مابين بهروز وبين ولد صفيه شاذى ، أعنى نجم الدين أيوب ، فلقد كان إلى جانب نجم الدين أيوب أخوه شيركوه ، وكان نجم الدين يكبر أخاه شيركوه . وإذا شيركوه يقتل مملوكاً لبهروز كان مقرباً إليه .

ويختلف المؤرخون فيقولون : إنه قتله عمداً لينصف شاكيةً عداً عليها هذا المملوك ، وإن نجم الدين حين رأى من أخيه ما فعل غضب لبهروز ، وجره الغضب لبهروز أن يغضب على أخيه ، فأمسك به واعتقله وأرسل إلى بهروز يسأله رأيه بعد أن صور له ما كان .

وكان هذا المملوك أعز على نفس بهروز من ولدى صفيه شاذى ، وكان ولدا صفيه مع هذا أعز على نفسه من أن يسىء إليهما ، ولكن الإعزاز إذا تفاوت قدره غلب أعلاه أدناه ، ورد أدناه غلواً أعلاه ، من أجل ذلك فعل بهروز شيئاً وأمسك عن شىء ، فلقد أباح لولدى صفيه أن يخرجا عن تكريت ، ولم يبح لنفسه أن ينال منهما ، وكتب إليهما يقول : لأبيكما علىّ حق ، وبينى وبينه مودة متأكدة ، ما يمكننى أن أكافئكما بحالة سيئة تصدر منى فى حقكما .. ولكنى أشتهى منكما أن تتركا خدمتى وتخرجا من بلدى وتطلبا الرزق حيث شئتما .

والذين لا يقولون هذا من المؤرخين يقولون : إن نجم الدين أيوب كان

يرمى يوما بالنشاب ، فوقعت نشابة فى مملوك بهروز فقتلته من غير قصد ، فاستحى نجم الدين من بهروز ، فخرج بأخيه عن تكريت دون إذن من بهروز .

وسواء أكانت هذه أم تلك ، وسواء أخرج نجم الدين بأخيه عن تكريت عن رأيه أو عن أمر بهروز . فلقد هجر نجم الدين تكريت - ومعه أخوه - إلى الموصل يقصدان الأتابك زنكى بن آق سنقر ، فرحب بهما يجزيهما جزاء تلك اليد التى كانت من نجم الدين إليه حين آواه فى تكريت . بعد أن فر من الخليفة المسترشد ، وحين فتح زنكى بعلبك .. ولّى نجم الدين عليها .

ولقد بقى نجم الدين على بعلبك ليشهد حصار صاحب دمشق « مجير الدين » لها ، وذلك بعد موت زنكى ، ولينزل عنها صلحاً لصاحب دمشق ، بعد أن عجز عن الدفاع عنها ، وليخرج هو وأخوه بعد ذلك إلى دمشق .

ويتصل شيركوه بالعادل نور الدين محمود بن زنكى صاحب حلب . ويصبح من رجاله وعلى عسكره ، ويتطلع صاحب حلب محمود بن زنكى إلى دمشق ، ويستعين أسد الدين بأخيه نجم الدين ، وحين ينضم الأخوان على عون نور الدين محمود يسألانه الكثير فيعطيهما الكثير ، وإذا هما معاً من أمرائه ، وإذا نجم الدين تعلو كعبه عند نور الدين ، فلا يقعد أحد فى حضرته إلا عن أمره غير نجم الدين ، فإنه كان يقعد فى حضرته من غير إذنه .

— ٤ —

وأحب أن أقطع عليك هذا الحديث لأصلك بحديث غيره ، وسوف يكون هذا الحديث الجديد هو الآخر - تمهيداً لبنى أيوب ، وكما عرفت شيئاً عن المهد الأول ، فما أحوجك أن تعرف شيئاً عن المهد الثانى . ونعنى

بالمهد الثانى مصر التى اتسعت لبنى أيوب مملكة بعد أن اتسعت لهم تكريت وبعلبك وحلب ودمشق وظيفة .

فلقد كان هذا المهد الثانى - أعنى مصر - حين ذاك يستدبر أيامه مع الفاطميين ، ويصابر العاضد ، آخر خلفائهم ، ليمضى بوزر هذه الدولة فى يديه ، ويصبر لعسف وزيره طلائع بن رزيك .

وكما كان العاضد .. كان وزيره ، هذا فى ميدان .. وذاك فى ميدان ، ليجمعا على المصريين الضيق من طرفيه ، الغاضد يؤذى الناس فى معتقدهم .. والوزير يؤذيهم فى مالهم ، العاضد يملى عن رافضة فينشط سباً ويجور خبثاً ويسفك دماء السُّنيين ظلماً ، والوزير يملى عن جشعه ، فيظلم الرعية ، ويحتكر الغلات ، ويقتل من يخشاه على جاهه ، فمن نجا من الأمير .. لا ينجو من الوزير فى ماله وبدنه ونفسه .

وهكذا حين يؤذن الله بزوال دولة يفرغ يديها من الخير جملة ويجمع فى يديها الشر جملة .

والشر كما يضيق بما كان خيراً يضيق بما كان شرا مثله . فما لبث العاضد أن قتل وزيره ليعهد بالوزارة إلى ثان على غرار الأول . وما كان بمقدور العاضد أن يقع على خير وهو يسعى للشر . وحين قتل العاضد وزيره طلائع بن رزيك ولى الأمر ابنه عساه يقوى بالابن على ما لم يقو عليه بالأب ، وإذا هذا الشبل من ذاك الأسد ، وإذا الأمير والوزير مختلفان ، وإذا الأمير يغرى بوزيره أميراً له على الصعيد ، هو شاور بن مجير .

وينهض شاور فى جمع من الرعاع والعبيد ليلقى الوزير الجديد رزيك ابن طلائع ، وليقتله بعد أن ينهب داره .

وكان العاضد مع شاور كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فما إن أمسك

شاور بطرف الحبل حتى أخذ يطوق به رقبة العاضد ، وإذا العاضد الذى ظن أنه خلع ربقة رزيك عن عنقه يضع عنقه فى ربقة شاور . وإذا شاور يسىء إساءتين : إحداهما يهوّن بها من شأن العاضد ليكون له الأمر من دونه ، والأخرى يركب بها الرعية يريد إذلالها كى لا تقوى على شىء . ولقد خسر شاور بالأولى العاضد ، وما كان بضائره أن يخسر العاضد لأن الرعية لا تنصره ، وخسر بالثانية الرعية وكانت تلك تضيره لأن الرعية لا يغلبها ظالم بظلمه ، وإنما يغلبها العادل بعدله .

وسرعان ما نطقت الرعية المظلومة ، وسرعان ما هب به أبو الأشبال ضرغام من الصعيد ، وسرعان ما لفّت الرعية حبلها بحبل أبى الأشبال . فإذا شاور فى الميدان وحده ، وإذا ابنه مقتول بين يديه ، وإذا هو يخرج من مصر متسللا يستخفى ، يخاف أن تبطش به تلك الرعية المظلومة .

لقد فعلت مصرالغاضبة ما يمليه عليها غضبها ، قصدت به ظالما ظلم ، ولم تقصد به الخروج على الدولة ، وكانت الفرصة مواتية ، لقد حرصت على أن تسلم الأمور العامة ، وما غضبت على شاور إلا حرصاً على سلامة هذا الأمر العام .

وكانت الدولة الحاكمة فى مصر لا تساندها الدولة الحاكمة فى بغداد ، وما كان فى وسع مصر أن تدخل فى هذا الخلاف ، فلقد كانت الأمور هنا كما كانت هناك ، تخطو من سيىء إلى أسوأ ، إن اختارت مصر فسوف لا تختار إلا شرّا ، ولا فضل لشر على شر ، وإن ناصرت فسوف تناصر شراً على شرّ ، فتركت الشرّين يأكل أحدهما الآخر ، وتركت الأيام تمضى بما سيكون ، فإن أعقب الشر خيرا كانت مصر الكاسبة ولم تخسر شيئاً ، وإذا امتد الشر إلى شر مثله ، لم تكن قد استعجلت الأحداث ، ولم تكن قد تورطت ، وتكون قد احتفظت بشىء يغنى نفعاً .

وحين خرج شاور عن مصر خرج ليستنهض الدولة التى فى بغداد على

الدولة التى فى مصر ، لا يعرف فى هذا الذى فعل غير نفسه ، وما أحب هؤلاء ، ولكن كان يحب نفسه ، وحين كرهه العاضد كرهه لأنه يحب نفسه فأعان عليه ، وحين أحبه من فى بغداد أحبوه لأنهم يحبون أنفسهم . من أجل ذلك أفسحوا له وأعانوه .

فلقد نزل شاور بالعادل نور الدين محمود بن زنكى ، وحين نزل به أطمعه فى مصر ، وما كان العادل ليتأبى بعد أن واتته الفرصة ، وما كان العادل ليجهل ما سيدفع لشاور فلم يبخل عليه بما طلب ، ولقد كان مطلب شاور شيئا من عرض الدنيا يعنيه أن يحققه ، وإن فاته هذا الغرض التافه .

فلقد طلب شاور من العادل أن يكون نائباً له على مصر ، وأن ينال من ضياعها ما يغنيه ، على أن تكون سائر ضياعها للعادل .

وخرج العادل بجيشه إلى مصر ينصر شاور فى ظاهر الأمر ، وهو ينصر حليفه ببغداد فى باطن الأمر .

وحين جهز العادل هذا الجيش جعل إمرته للأمير أسد الدين شيركوه ، ابن شادى ، وحين خرج أسد الدين من دمشق إلى مصر حمل معه ابن أخته صلاح الدين .

— ٥ —

ولقد عز على ضرغام أن يجد إلى جانب شاور من يعينه ، فجمع جموعه لحربه ، لا يقصد أن يدخل فى هذا الخلاف العام بين الدولتين ، ولكنه كان يقصد أن يدخل فى هذا الخلاف الخاص بينه وبين شاور ، فهو لم يرد شيركوه وإنما أراد شاور ، وحين ناصر شيركوه شاور ، لم يجد ضرغام بداً من أن يحارب الاثنين .

ولكن القدر لم يمهل أبا الأشبال ، فإذا هو يُطعن وإذا هو يقتل ، وإذا شاور يدخل مصر ، أو قل : وإذا شيركوه يدخل مصر .

ولكن شاور حسب أنه الداخل وحسب أنه الظافر، فإذا هو يشتط ويسىء إساءتين ، كانت أولاهما إلى شيركوه يظنه العاضد ، ويظن أنه غالبه . وكانت الأخرى إلى الرعية يظن أنه قد قهرها واستذلها ، فإذا شيركوه غير العاضد ، وإذا الرعية هى الرعية .. لم تنس ظلمه ، ولم تنس عسفه .

وحين وجد شاور أنه مغلوب على أطماعه .. أغرته أطماعه بأن يشتط فيخسر خلقه ، ويخسر أمانته ، والطامعون فى أن يحيوا لأنفسهم .. أخسّاء حين يحسون أنهم مصروفون عن دنياهم ، أنذال حين يفوتهم ما يحرصون عليه ، من أجل ذلك مد شاور يده إلى الفرنج يستنصر بهم على خصومه . وما أظنه طلب منهم فوق ما طلب من شيركوه ، وما أظنه أراد إلا أن يكون نائبا وأن يكون صاحب ضياع .

وكانت الحرب بين الفرنج وشيركوه ، وخلا الجو لشاور يعبث فى مصر فسادا يظلم ويقتل ، وما أظن المصريين كانوا قادرين على ثانية بعد أن خذلوا فى الأولى هذا الخذلان المرّ الذى تجرعوه على يد الأصدقاء ، هؤلاء الأصدقاء الذين حين ذكروا حقهم أنسوا أنهم يعينون ظالما ويذلون أمة .

وكما استجار شاور بالعادل استجار العاضد بالعادل ، استعان فى الأولى بوزير على ملك ، واستعان فى الثانية بملك على وزير، تدلك الأولى على فوضى الأتباع ، وتدلك الثانية على فوضى الملوك .

وكما لم يقصر العادل فى الأولى عن عون الوزير لم يقصر فى الثانية عن عون الملك ، وما قصد فى الأولى أن يرضى الوزير ، وما قصد العادل فى الثانية أن يرضى الملك ، ولكنه قصد فى الأولى والثانية أن يرضى نفسه ويرضى الخليفة ، فيقضى على تلك الدولة البادئة التى خرجت على الخلافة فانتزعت منها مصر، يريد أن يقضى على تلك الدولة ويريد أن يرد مصر إلى الخلافة .

والمصريون الذين لم يرضوا بالأولى حين استأثر الفاطميون بمصر ، رضوا بالثانية حين أحسوا أنهم ستظلهم راية الخلافة العامة ، ولقد أرضاهم عن الفاطميين حبهم لآل البيت فرضوا شيئاً عن هذا الانفصال ، وحين بات المصريون لا يؤمنون بالفاطميين ذكروا إيمانهم القديم بقضيتهم العامة فباتوا يرضون بهذا التدخل .

ولقد رضى المصريون باستنجاد العاضد لسبب آخر لا يقل عن الأسباب الأولى شأنا ، فهم كافرون بشاور ضائقون بظلمه منكوبون بحكمه .

من أجل ذلك استقبل المصريون الجيش القادم استقبال الرضا ، وما أظنهم بذلوا لشاور غير عون المكره ، وما أظن شاور اعتمد عليهم فى الكثير من أمره فى هذه المعركة ، فلقد كان أكثر جنده من الفرنج الذين أفسح لهم وضمهم إليه .

وما كتب للجيش القادم النصر على شاور والفرنج في يسر ، بل لقد مر ذلك فى عسر عسير ، يُقتل من هؤلاء ، ويقتل من هؤلاء ، والمصريون فى عون الجيش القادم يبذلون له ما يقوون على بذله ، والعاضد على رأسهم يعين ما وسعه العون .

وأصبحت البلاد المصرية مسرحا لكثير من الشر ومسرحا لكثير من الضر ، وكان أكثر ما نالوه من هذا الشر وذاك الضر على يد الفرنج الذين اغتنموا هذا الانقسام ، وهذا الخائن شاور فى صفهم ، فعبثوا ما شاءوا أن يعبثوا ، وأفسدوا ما شاءوا أن يفسدوا .

ويأذن الله لهذه المحنة أن تنكشف ، ويمكن الله أسد الدين من قتل شاور ، فإذ الذين كانوا حول شاور منفضون عنه ، وإذا الأمور تعود رخاء وتعود أمنا ، ويسكن المصريون ليروا العاضد قد ولى الوزارة أسد الدين ، يكتب هذه التولية القاضى الفاضل ويمضيها العاضد ، وإذا فيها :

هذا عهد لم يعهد إلى وزير بمثله ، فتقلد ما أنت أهل بحمله ، وخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الافتخار بخدمتك بيت النبوة ، والزم حق الإمامة تجد إلى الفوز سبيلا ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا .

ولا ندرى كيف كتب العاضد هذا إلى أسدٌ الدين ، وهو يعلم أنه ليس له وإنما هو لغيره ، وهذا إن دلك على شيء .. دلك على أن العاضد كان قد انتهى إلى حال من اليأس لم يجد معها مفرا من أن يفعل ما فعل ، وحين فعل ما فعل .. ظن أن له على أسد الدين حقا حين استنجد به ، وظن أنه قد أفسد ذلك الحق حين أعان أسد الدين بعد أن استنجد به ، وظن أنه بعد هذا الاستنجاد وذاك العون قد استصفى أسد الدين كما استصفى غيره ، وظن أنه حين يوليه الوزارة قاطعه عن العادل وواصله به .

قد يكون العاضد ظن هذا كله ، ففعل هذا كله ، ولكن الرجل على كل حال كان قد يئس ، واليأس حين يبلغ مبلغه من النفس .. كما يحيى فيها الحرص على الخروج من الحياة ، يحيى فيها الحرص على الاستمساك بالحياة ، ولقد أحيا هذا اليأس فى نفس العاضد الاستمساك بالحياة ، يصور له من الأسباب المبطلة أسبابا موجبة ، فإذا هو يخال الاستنجاد وهو مبطل موجبا ، وإذا هو يرى العون وهو مبطل موجبا ، وإذا هو يطمع مخدوعا فى أن يكون أسد الدين له .

ولكنها كانت صحوة من صحوات الموت تستحيل فيها الدنيا فى نظر المودع وفى نفسه وفى خياله وفى قلبه مقبلة كلها ، وأن مقاليدها كلها فى يديه ، وهكذا تراءت الدنيا للعاضد دنياه لا دنيا غيره ، وأنها عند مشيئته وعند أمره .

من أجل هذا رغّب العاضد فى كتابه إلى أسد الدين وحذّر ووعد وأوعد ، وما علم ، أو لعله أنسى أن أسد الدين يمهد لدولة أخرى ، وأن هذه الدوله الأخرى فى طريقها إليه

ولكن أسد الدين على هذا كان وفيا للعاضد ، فلقد حلف له حين أتته تلك التولية التى مرت على الطاعة والصفاء ، وما نظن أن أسد الدين كان بوسعه غير هذه ، وما نظنه كان بوسعه أن يعجل بالعاضد فيبطش به .

فما دخل أسد الدين مصر عن تدبيره أو تدبير نور الدين صاحب أمره ، لكن كان ذلك عن استنجاد من العاضد ، ولو كانت الأولى لكان دخوله إلى مصر دخول الفاتح ، ولكان له مع العاضد شأن آخر ، وحين كانت الثانية لم ير أن يتنكر لمن استنجد به ، وقنع منه بالذى كان ليبلغ فوق ما كان ، بهذا دخل أسد الدين مصر ، وعلى هذا قبل أسد الدين أن يكون وزيراً للعاضد بمصر . إلى أن مات بعد شهرين من قبوله .

وحين رقد أسد الدين للموت أوصى إلى ابن أخيه صلاح الدين ، وكان العاضد قد جرب أسد الدين فما علم عليه من سوء ، فرضى بما أمضاه أسد الدين . وأوصى به ، يرى أنه سوف لا يضيره منه سوء .

ويختلف على صلاح الدين أمراء معه لنور الدين ، كانوا قد قدموا معه فى الجيش الذى بعث به نور الدين ، فنرى العاضد ينصر صلاح الدين ويخذل من اختلفو عليه .

فلقد رام هذا الأمر لنفسه - أعنى الوزارة التى نالها أسد الدين ونزل عنها أسد الدين لصلاح الدين - غير واحد ممن مع صلاح الدين ، رامها لأجنبى عن صلاح الدين ، وكانوا على أن يزحزحوا صلاح الدين عن مكانه ، فإذا العاضد يدخل فى الأمر وهو صاحبه ، فيدعو إليه صلاح الدين ويخلع عليه خلعة الوزارة ويكتب عهده .

وهكذا رد العاضد المخالفين على صلاح الدين إلى أماكنهم ، وثبت صلاح الدين فى مكانه ، وهكذا أنس العاضد بالقادمين يولى منهم ، ونفض

يده من المقيمين لا يولى منهم ، وأصبحت وزارة مصر لنور الدين ، يليها امراؤه ، والعاضد يوهم نفسه أنها له .

وما تظن نور الدين كان يجهل ، فلقد كان على يقين بأن صلاح الدين ، كما كان أسد الدين ، أميرا له ووزيراً للعاضد ، هو له - كما كان أسد الدين - على العاضد لا للعاضد عليه .

نحس ذلك فى كلام نور الدين لتوران شاه بن أيوب - أخى صلاح الدين - وكان أحس من صلاح حين عزم توران شاه على أن يصيره إلى مصر ، بعد أن أصبح صلاح الدين وزيراً للعاضد .

فلقد طمع الأخ فى أن ينال مثل ما نال أخوه ، فقصد إلى نور الدين يستأذنه فى المسير إلى مصر ويقول له : مولانا أريد أن أسير إلى أخى ، وهو يعنى صلاح الدين .

ونور الدين يعرف ما يريد الأخ من هذه النقلة ، لا يعرف أنها عن شوق ، ولكن يعرف أنها عن طمع ، ويعرف أن هذا الذى ناله صلاح الدين كفيل بأن يفسد عليه قلب أقرب الناس إليه . ولقد أظل نور الدين عصر أفسدت فيه الأطماع القلوب ، لأن الدنيا كانت تعطى جزافاً وتُنال اغتصاباً ، لم تستقم لها حال فتستقيم للقلوب حال ، ولم يرع الناس لها حرمة فعدوا عليها جشعين يغريهم الجشع بالشر ، وإذا دخل الشر على الناس نفوسهم أنسوا كل ما هو خير .

علم نور الدين ذلك وأحسه فيما حوله فأدرك ما يريد توران شاه فى مصر ، وما يريده من صلاح الدين ، وخاف نور الدين أن يقطع توران شاه بهذا السفر الحبل الذى مده والخيط الذى وصله ، فقال لتوران شاه ينصحه ويأمره : إن كنت تسير إلى مصر حاقداً على أخيك فلا تسر ، فإنك سوف تفسد علىّ العباد والبلاد فتحوجنى إلى عقوبتك بما تستحقه ، وإن كنت تسير إليه وترى أنه قائم مقامى وتخدمه كما يخدمنى فاذهب .

هكذا كان يرى نور الدين مصر ، وهكذا كان يرى صلاح الدين ، لم يعنه أن العاضد يرى غير ذلك ، فلقد كان يعلم أن العاضد يرى غير ذلك ، وكان يعلم أن العاضد مودّع ، وأن الخلافة الفاطمية معه مودعة ، وكان يحب أن يستأنى بالعاضد حتى لا يتهم بغدر وحتى لا يؤخذ عليه نكر ، فلقد استنجد به العاضد فأنجده ، ولقد أحس أنه بهذه النجدة قد قرب مما يحب ، فلم يشأ أن يخون نجدته أولا ، ولم يشأ أن يبعد عما أحب ثانياً ، حين يشتد بالعاضد شدة قد تسيء إليه قبل أن تسيء إلى العاضد ، من أجل ذلك آثر هذه الأناة وترك الأمور تمضى هينة ، وعليه أن يحوطها لكى تمضى هينة كما أحب .

(٧)

وكما نظر نور الدين إلى الأمر نظر صلاح الدين إليه ، فلقد أرخى للعاضد يرضيه كما يرضى الوزير الملك ، والعاضد قانع آمن فى سربه ، يستمع إلى الخطبة فيسمعها تجرى باسمه فيزداد قناعة ويزداد أمنا ويزداد رضا .

ولكن الأعوام تمضى لتضعف من العاضد ، ولتمكن لصلاح الدين ، وإذا صلاح الدين يحسن إلى المصريين فيحبونه ويطيعونه ، وإذا هو مع الأعوام قد عرفه الناس وأنسوا العاضد ، وإذا العاضد يحس قوة وزيره وضعفه هو ، وإذا الخوف يساوره ، وإذا الشك بعد الخوف يدخل إلى نفسه ، وإذا هو مع هذا الخوف وذاك الشك يأمر خادما له ، كان على رأس السودان ، بقتال الترك والغز ، وإذا هذا الخادم بمن معه يثورون بالترك والغز فيقتلون منهم جملة .

ويحس صلاح الدين أن العاضد قد خرج من سكوته الذى رضيه له وفرضه عليه ، فيخرج هو الآخر عن طاعته المصطنعة التى رضيها لنفسه وفرضها عليها ، فإذا هو يقتل الخادم ويقتل جماعة كبيرة من السودان معه .

هنا يثور العاضد لا ليفعل شيئاً ، ولكن ليعيب على صلاح الدين ، وما نظنه كان يملك غيرها ، فيقول له : فأين أيمانكم ؟

ويسكت العاضد بعد هذه لا يقول شيئاً لأنه لم يكن يملك شيئاً بعد هذه ، ويمضى صلاح الدين يفعل شيئاً ، لأنه كان يملك أن يفعل شيئاً ، فإذا هو يقطع الخطبة للعاضد ويخطب لبنى العباس .

فعل ذلك صلاح الدين عن رأى نور الدين ، وما كان رأى صلاح الدين مقطوعا عن رأى نور الدين ، بل كان الرأيان متصلين لا يكاد صلاح الدين يبعد برأيه كثيراً .

ولقد خاف صلاح الدينَ أول الأمر حين أمره نور الدين بذلك ، خاف أن يثير بذلك فتنة بين المِصريين ، غير أن نور الدين اشتد عليه فلم يجد صلاح الدين بدًّا من أن يفعل .. ففعل .

ولعل هذه تؤيد لك ما قلناه من قبل من أن نور الدين كان يؤثر أن يرضى العاضد ، ومن أن صلاح الدين كان هو الآخر يريد أن يرضى العاضد ، وأنهما معاً كانا يريدان أن تمضى الأمور هينة ، وكانا لا يحبان أن يثيرا فتنة لعلها تثير شرا ، ولقد كانا يحبان أن يأمنا هذا الشر بعد أن أمنا أن الأمور لهما ، لا يفصلهما عنها إلا أعوام تمر ، فرأيا أن تمر هذه الأعوام بسلام .

وكانت الحياة قد ثقلت على العاضد فثقلت نفسه . وحين ثقلت نفسه لم يستقم له بدنه . فلقد رأى الدنيا بين يديه مدبرة فاهتم واغتنم ، وحين اهتم واغتنم .. مرض مرضاً أفضى به إلى الموت .

ويقول بعض المؤرخين شيئاً غير هذا فى وفاة العاضد ، لا يقولون : إنه مرض حين اهتم ، ولكنهم يقولون : إنه سم نفسه حين اهتم ، ويقولون إنه كان يلبس خاتماً مسموماً ، وحين ضاقت عليه السبل مصه فسرى السم فى جسمه فقضى عليه .

وكان أمر مصر قبل أن يموت العاضد إلى صلاح الدين والعاضد ، يشغل العاضد من ذلك الحكم الكرسى الذى يجلس عليه ، ويشغل صلاح الدين من ذلك الحكم توجيهه وإدارته . وحين مات العاضد أصبح حكم مصر إلى صلاح الدين كله يشغل هذا الكرسى ويشغل ما يصدر عن هذا الكرسى .

وكان صلاح الدين كما علمت لا يرى هذا الأمر له وحده .. بل يراه لنور الدين معه ، ويراه نور الدين ليس له .. ولا لصلاح الدين ، بل يراه للخليفة معهما . ولقد مر بك خبر الدعوة للخليفة العباسى فى مصر حياة العاضد الأخيرة . ومر بك أن نور الدين حمل صلاح الدين على ذلك حملا حين رآه وَجِلا بعض الوجل .

وما حزن المصريون على العاضد ودولته . ولا ضجروا بصلاح الدين وولايته ، لقد غرست مئتان من الأعوام ينضم إليها ثمانية الكراهية فى قلوب المصريين للفاطميين ، وبدّلت محبتهم لهم بغضاً ، وإجلالهم لهم امتهاناً ، وأنسهم بهم نفورا منهم ، فإذا هم يردونهم نسباً إلى مجوسى يدعى القداح ، وإذا هم يصفونهم بالزندقة ، وإذا الفقهاء والعلماء مع صلاح الدين حين همّ بالقبض على العاضد آخر أيامه يُفتون بفساد عقيدته .

من أجل ذلك لم يحزن المصريون وهبّوا يمدون أيديهم إلى صلاح الدين ، ليصل تلك الأيدى مرة ثانية بالخلافة العباسية .

وما كان المصريون أغراراً حين استقبلوا الفاطميين بالترحيب ، لأنهم كانوا يحبون أهل البيت وكانوا يعرفون أنهم غُلبوا على أمرهم ، وكانوا يحرصون على أن ترد إليهم حقوقهم ، وحين استقامت للفاطميين دولة .. كانوا هم أسبق إلى تأييد هذه الدولة .

وما كان المصريون متقلبين حين انفضوا عن تلك الدولة ، فلقد جربوا على خلفائها مالا يشجعهم على تأييدها ، فانفضوا عنها بعد ما صبروا لها

طويلا ، يُرخون لها لعل خليفة يأتى صالحاً بعد أن يمضى خليفة فاسداً ، وكانت المِحَن من حولهم قاسية ، والخلافة على البعد منهم غافية ، وما يريدون أمرهم لهم وحدهم ، وإنما يريدونه موصولا بالخلافة ، فتلبثوا يرقبون حتى دخل عليهم صلاح الدين باسم تلك الخلافة .. فأنسوا به .. يرجون أن يستقبلوا عهدا ينعش نفوسهم ، ويردهم إلى ثقة بتجربتهم .

– ٨ –

وكما فرحت مصر فرحت بغداد وإذا الفرحتان تلتقيان على أملين ، أمل فى أن تقوى مصر ببغداد ، وأمل فى أن تقوى بغداد بمصر ، فلقد كان الفرنج يهددون هذه الدولة العامة ، وكانوا يطمعون فى انقسامها ويطمعون فى ضعفها .

ولقد خلا الجو لصلاح الدين فى مصر ، فالمصريون بعد أن أضنتهم تلك التجربة الطويلة فتحوا له قلوبهم حين التقوا به على الطريق ، وعرفوا عنه الكثير من الخير ، والفاطميون كانوا قد خرجوا من الحياة العامة بخروج العاضد من حياته الخاصة ، والخلافة فى بغداد كان لا يعنيها إلا هذا المظهر الذى كسبته وزوال تلك الدولة – أعنى الدولة الفاطمية – التى كانت تزحم عليها الحياة . ونور الدين كان يرضيه هذا الولاء الذى جمع بينه وبين صلاح الدين ، وأنه لا يكاد يقضى أمرا دونه .

وحين اجتمعت هذه الأسباب كلها لصلاح الدين اجتمع هو الآخر لها كلها ولم يجعلها تفلت من يديه ، فأرضى المصريين بعدله كما أرضوه هم بتأييدهم ، أرضى الخليفة العباسى بذكر اسمه فى الخطبة ، وأرضى نور الدين بذكر اسمه بعد اسم الخليفة فى الخطبة ، ثم أرضى هو نفسه آخر الأمر فذكر اسمه بعد اسم نور الدين .

وهكذا كان صلاح الدين ذا أناة ، جربنا عليه أناته تلك الأيام التى

عاشها مع العاضد لا يعجل به على ضعف العاضد وقوته هو ، ومع كره الناس للعاضد وحبهم له هو ، فلقد قيل إن صلاح الدين حين بلغه موت العاضد ، بعد أن قطع هو الخطبة باسمه مضطراً ، أسف وندم وقال : ليتنى صبرت عليه .

وهكذا كان يحب صلاح الدين الأناة التى تبلغ به إلى الغاية فى أمن ولا تفسد عليه غرضه ، ولقد كان يحب أن يلزمها ولا يخرج عنها مع العاضد لا حرصا على حياته ، ولكن حرصاً على حياة الأمة من أن تنتابها فتن جديدة ، ثم حرصاً على ألا يمعن فى الإيذاء ، وكان الرجل ذا قلب كبير سيمر بك عنه كثير . من أجل ذلك ندم على أن آذى العاضد فى نفسه ، وكأنى به كان يؤمن بالأثر : إذا قتلتم فأحسنوا القتلة .

والأناة التى أملت على صلاح الدين أن يكون رفيقاً بالعاضد أملت عليه أن يكون رفيقاً بنفسه بعد موت العاضد ، فلم يشأ أن يستعجل ما يريد ولكنه ترك الأمور تجرى به إلى ما يريد ، لأنه كان يعرف أنه بالغ مايريد على متن هذه الأناة فى رفق دون شطط ، وفى قصد دون إسراف ، وفى أمن دون فتنة .

وهذه الآراء التى هى فن من فنون الحكم ، والتى عرفناها لصلاح الدين ، لم يبعد عنها نجم الدين أبوه ، ولعل ما كان عند الابن .. شىء ورثه عن الأب .

فالمؤرخون يروون أن أمراً وقع وكاد يقطع ما بين نور الدين وصلاح الدين ، وكاد يفصل بين الرجلين ، ثم كاد يثير بينهما حرباً ، ما ندرى لو وقع ما لم يقع .. أى مستقبل كان سيلقى صلاح الدين ؟ ما نشك فى أن صلاح الدين كان سيمتحن امتحانا قاسياً ، قد تستقيم له نتيجته ، وقد لا تستقيم ، ومع الحالين نُكر ونُكر. فقد أغنى الرجل نفسه عنهما حين رد هذا الأمر قبل أن يقع بحكمته أو بحكمة أبيه .

ففى السنة السابعة والستين بعد الخمسمائة ، خرج صلاح الدين على رأس جيشه ليلقى الفرنج فى حصن الشوبك ، وهناك فرض عليهم صلاح الدين حصاره ، وفرض عليهم استكانتهم له ، فإذا هم مع بطش صلاح الدين يطلبون الأمان والأمن ليقضوا فى أمرهم وواعدوه أياماً عشرة ليفعلوا .

وحين هادنهم صلاح الدين هذه الهدنة الموقوته ، تحرك نور الدين من دمشق يقصد هؤلاء الفرنج فى حصن الشوبك ، يريد أن يدخل عليهم حصنهم من مكان آخر ، وكأنه أحب ألا يدع الفرنج يهيئون ، وأحب أن يشغلهم عن أن يفكروا فى حرب ، وأحب أن يجعل قضاءهم الذى سيقضونه تسليما واستسلاماً . وما ندرى بعد هذا أكان نور الدين يحب أن يستأثر بالغنم دون صلاح الدين ، أم أحب هذا الخروج إلى الجهاد تآذراً على طرد العدو المشترك .

ما نشك فى أنه أحبهما معاً . فلقد كانت تلك لغة ذاك العصر يحب الإنسان لنفسه ويحب للدولة ، إن كان مخلصاً لهما معاً ، ويحب لنفسه ولا يحب للدولة إن كان مخلصاً لنفسه غير مخلص للدولة ، وما نظن أنه كان منهم من يحب للدولة ولا يحب لنفسه ، لأنه لم يوجد من يخلص للدولة وينسى نفسه غير قليل لا يعد ، كان منهم رجلنا الذى نترجم له صلاح الدين .

ولقد أملت لغة ذلك العصر على من نقل إلى صلاح الدين بأن تحرُّك نور الدين إلى حصن الشوبك وراءه شىء ، وحين أرادوا أن يفسروا هذا الشىء قالوا : غير قلقين على سلامة الدولة ، ولكن قلقين على سلامة صلاح الدين ، ينصحون له فى نفسه ولا ينصحون له فى الدولة .

فلقد نقلوا إليه أن تحرك نور الدين إلى تحركه سوف يعجل بالقضاء على الفرنج وزوالهم من مكانهم هذا ، ومع هذا النصر سيكون أمر هذا المكان إلى نور الدين يملكه هو دون صلاح الدين ، فنور الدين لا يزال صاحب أمر صلاح الدين .

وإلى هنا لم يرد الناقلون إلى صلاح الدين شيئاً على ما سوف يمليه الواقع ، ولكنهم حركوا بذلك شيئاً صغيراً فى نفس صلاح الدين عامدين إلى أن يهيئوا به إلى شىء كبير .

فما من شك فى أن صلاح الدين كان يؤثر أن يكون هذا النصر خالصاً له ، ولقد كاد يبلغه ، وما من شك فى أنه كان يؤثر أن يكون هذا الحصن له ، ولقد كاد أن يملكه .

لقد حرك الناقلون هذه فى نفس صلاح الدين ، ولمثل ما تحركت له نفس صلاح الدين تتحرك النفوس المتطلعة إلى المجد ، وهى أكثر ما تكون تحركا إذا كانت على أول الغاية ، ولقد كانت نفس صلاح الدين على أول الغاية ، فلقد ملك صلاح الدين مصر ولكنه لم يبلغ أن يستقل بمصر ، إذ كان بما فى يديه أميراً لنور الدين ، وأحبَّ أن يضيف إلى مجده مجداً فحاول أن يزحمه عليه نور الدين ، أو قل حاول أن يستأثر به دونه .

هذا كله بلغه الناقلون من نفس صلاح الدين دون أن يزيفوا شيئاً ، ودون أن يغلوا فى شىء ، وما نظن نفس صلاح الدين إلا انطوت عليه حسيرة دون أن تظهر شيئاً .

ولكن شيئاً بعد هذا زيفه الناقلون وغالوا فيه ، فلقد نقلوا إلى صلاح الدين بأن الفرنج إذا زالوا عن مكانهم هذا .. خلا الطريق بين نور الدين وبينه ، وقد يدخل عليه مصر ، وحين يدخل عليه مصر .. يستولى على الأمر دونه ، وقد يمضى فيعزله ثم يمضى فيقصيه ، ويخرج صلاح الدين من الأمر لا عليه ولا له ، وقد يخرج منه عليه ولا له .

وصلاح الدين حين تحركت نفسه للأولى ، وهو يملك أسبابها واقعة ، تحركت نفسه للثانية ، وهو يملك أسبابها شبه واقعة ، فما عاد فى قدرته أن يدفع أن هذا الرجل - أعنى نور الدين - الذى تحرك ليشركه النصر أو

ليستأثر به دونه ، لن يتحرك ليدخل عليه مصر ليشركه الحكم وليستأثر به دونه .

وحين قر هذا فى نفس صلاح الدين فعل شيئاً يظن أنه يحمى به نفسه ويحمى أمله .

فلقد نفض صلاح الدين يديه من هذا الغزو وترك هذا الحصن لنور الدين يتولاه هو وعاد إلى مصر .

غير أن عملا كهذا ما كان ليقع من صلاح الدين إلا إذا اعتذر عنه صلاح الدين لنور الدين . ولعل الناقلين حين أحكموا الدس أحكموا أن يشيروا بهذا الانسحاب ، وأحكموا أن يخلقوا لهذا الانسحاب عذرا ، وأحكموا أن يجعلوا هذا العذر هو ما بعث به صلاح الدين إلى نور الدين يقول له : إنه قد بلغه عن بعض شيعة العلويين أنهم عازمون على الوثوب بمصر ، وأنه يخاف عليها من البعد عنها ولهذا عاد ليحمى مصر من شر عظيم .

ولكن هذا العذر الذى قبلته نفس صلاح الدين المضيقة لم تقبله نفس نور الدين غير المضيقة ، والنفوس فى الضائقات غرقى ، تتلمس أوهن الأسباب تخالها قوية عاتية ، لا تقضى عن وعى صحيح ، ولكن عن وعى مريض ، وكذا قضت نفس صلاح الدين فى هذه الضائقة بهذا الوعى المريض ، وقضت نفس نور الدين - ولم تكن فى ضائقة - بوعى صحيح ، وإذا نور الدين غاضب من صلاح الدين ، وإذا هذا الغضب يوقعه فى ضائقة هو الآخر ، وإذا هو يملى عن وعى مريض ، وإذا هو يعزم على دخول مصر وإخراج صلاح الدين منها .

ويكاد هذا الوعى المريض الذى غمر صلاح الدين حين هرب من النصر لهذا الوهم ، والذى غمر نور الدين حين نسى هو الآخر المضى إلى النصر ، وهمّ أن يمضى إلى صلاح الدين ، يكاد هذا الوعى المريض يغمر مع صلاح الدين ونور الدين قوماً آخرين من أهل صلاح الدين .

فلقد اجتمع هؤلاء الأهل حول صلاح الدين يشيرون عليه . وإذا هم جميعاً يشيرون على صلاح الدين بحرب نور الدين والوقوف له .

وهكذا كاد صلاح الدين أن يمضى فى حياته بغير ما بدأ به من ملاينة وإمهال ، وكاد يثير بينه وبين نور الدين حربا ما كان لها أسباب ليقوى بتلك الأسباب ، ولا يعنينا أن يكون جيشه على صلة بتلك الأسباب يعرف وجاهتها فيحارب عن إيمانهم ويضحى عن إيمان ، لا يعنينا هذا فلقد تعبت هذه الجيوش العربية فى حروب كثيرة ممتدة لا تؤمن بها وما عرفت أسبابها . ولو أن صلاح الدين جر جيشه إلى هذه الحرب ما تأبى عليه . عرف هذا صلاح الدين ، وعرفه غيره من قبله من القادة ؛ ولكنهم كانوا يعرفون أنهم حين لا يؤمن الجند يفترون وحين يفترون ، ينشقون عليهم . وكم من حروب ذاق فيها القادة كثيراً من الويل حين وجدوا جنودهم يعصون بعد طاعة ، ويتمردون بعد انصياع ، ذلك لأنهم أطاعوا فى نشوة الطاعة ، وحين ذهبت تلك النشوة عادوا عاصين . ونكاد نميل إلى أن شيئاً من هذا قد يذوقه صلاح الدين ، ولو ذاقه لكتب التاريخ أسطراً أخرى قد لا تحلو .

لا يعنينا هذا الجيش كما قلت لك ، فكما قد يخرج على صلاح الدين بعد طاعة ، قد يمضى معه إلى آخر المطاف على الطاعة . ولكن يعنينا أن صلاح الدين كان حين ينجر إلى تلك الحرب ذاكرا نفسه وذاكرا نور الدين ، كان لاشك سيصحو على تلك الذكرى فيجد أنه أساء .. وهو يريد أن يحسن ، وإذا قرّ هذا فى نفسه .. قرّ فيها ندم لاتقوى به نفس القائد على تدبير أمره .

وإن القدر الذى مهد السبيل لصلاح الدين كان لا يزال يمهد السبيل له ، من أجل ذلك ألهم أباه أن يقول ، وألهمه أن يعنف بالأهل وبالابن . وإذا قوله يرد الأهل ويرد الابن صلاح الدين إلى وعى صحيح ، فإذا هو

يقول للابن ليسمع الأهل : أما علمت أن نور الدين متى سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه عنده ، وحينئذ لا نقوى له ، وإذا بلغته طاعتنا تركنا وانشغل بغيرنا والأقدار تعمل عملها .

وكان هذا نصحاً بلغ من نفس الابن فوعاه ، وحين وعاه انكسر له ، وحين انكسر له انكسر الهائجون كلهم ، فقاموا عن صلاح الدين لا يقولون شيئاً .

وهكذا ولد الأب ابنه مرتين على حين لايلد أكثر الآباء ابناءهم غير مرة واحدة ، كانت الأولى حين أخرجه إلى الحياة ، وكانت الثانية حين حفظ له تلك الحياة .

وتحقق الأيام للأب ما ارتأى ليتحقق لصلاح الدين ما كان يطمع فيه . فإذا نور الدين يموت ، وما عنّى نفسه ولا عنّى صلاح الدين بحرب . وإذا صلاح الدين ينال بكلمة من أبيه فوق ما كان سوف يناله لو أسعده الجد فى الحرب ، بدم كثير وأرواح كثيرة .

بهذه الروح التى رقت والنفس التى لانت دخل صلاح الدين حياة صاخبة ، فكسب بِرقَّة روحه ولين نفسه فوق ما ناله بمضاء سيفه ونفاذ رمحه .

– ٩ –

ولقد مات نجم الدين والد صلاح الدين قبل أن يموت نور الدين ، سبقت الوفاة الوفاة بعام ، فلقد مات نجم الدين سنة ثمان وستين وخمسمائة ، ومات نور الدين سنة تسع وستين وخمسمائة . ولكن الوالد قبل أن يموت كان الزمن قد أرخى له من العمر سنة ليرى ويرى ابنه معه أثر ما أشار به الوالد على الولد ، فما تحرك نور الدين لحرب صلاح الدين ذاك العام ، ولقد ترك الوالد الولد عاما آخر بعد وفاته ليرى وحده ما أشار به .

وحين مضى نور الدين استيقظت فى نفس صلاح الدين كلمة أبيه له وهو يقول . والاقدار تعمل عملها . وكانت دستوره فى حياته يستملى منه عن غير تواكل ولا دعة .

وما نحب أن نمر على وفاة الوالد دون أن نختم حياته بشىء كما بدأناها بشىء ، فكما كان الوالد كان الولد . وإذا عرفت الوالد عرفت الولد .

فلقد كان نجم الدين - رحمه الله - له عقل وله حزم ، بهذا العقل وبهذا الحزم ولى تكريت حين أنسوا فيه رشداً وحين أنسوا فيه تدبيراً ، وبهذا العقل وبهذا الحزم خرج عن تكريت حين فسد ما بينه وبين مجاهد الدين ، فلم يشأ أن يتنكر لصديقه ، وما كان عليه فيها من شىء لو فعل ، وكان هذا التنكر هو أسلوب العصر . وبهذا العقل وذاك الحزم قرب من نور الدين . وبهذا العقل وذاك الحزم احتفظ بما بينه وبين نور الدين وأقام معه ابنه على الطريق المستقيم ، وهذا العقل وذاك الحزم هما اللذان خلقا منه رجلا شجاعا ، وكذا يملى العقل وكذا يملى الحزم ، فإن وجدت الرجل جبانا دلّك جبنه على نقص عقله ، ودلك جبنه على قلة حزمه ، فما يملك العاقل غير أن يكون شجاعا وإلا ناقض عقله ، وما يملك الحازم إلا أن يكون شجاعا وإلا خالف حزمه .

وإذا استوت فى الرجل هذه الصفات الثلاث : عقله وحزمه وشجاعته . استوت فيه صفه أخرى ، ألا وهى الرفق بمن دونه والعطف على من هو أهون منه ، وكذا كان نجم الدين كان يحب الفقراء ، وكان يعطف على المساكين ، وما يغرم الرجل يظلم الضعيف الا عن خبل وطيش وجبن ، وإن تراءى أنه عاقل حازم شجاع ، فالعقل والحزم والشجاعة صفات عليا ، ومثل هذه الصفات إن استوت فى نفس الإنسان تطلعت نفسه تطلب أندادها مما هو أسمى . فإن تدنت رأت أندادها فيما هو أدنى ، ودلّتك على أنها أهون مما هبطت إليه .

وحين عرف العطف سبيله إلى قلب نجم الدين جرّ معه حبه للصالحين ، لأنهم معه فى أسمى مرتبة ، ولأنهم أولى بأن يُرعوا ، وما أحقهم منه بهذه الرعاية .

وهذا الرجل الذى جمع عقلا وحزما وشجاعة ورحمة .. جمع صمتا ، فكان لا يقول إلا بعد لأى ، ولا يتكلم فيكثر ، فكما عقلُه وحزمه لسانه أغنت شجاعته لسانه ، فالعاقل يمنعه تدبيره من أن يكثر ، والحازم يمنعه حزمه من أن يثرثر ، والشجاع يجعل يده مكان لسانه ، وهكذا كان نجم الدين مقلا حين يتكلم يكاد لا يقول الا مع ضرورة .

ولقد أراد صلاح الدين أن يكون أبوه مكانه على مصر ، ولكن الوالد أرضاه أن يكون ابنه هو الوالى وأن يكون هو إلى جانبه . وما كانت هذه بقليلة على نفس الابن حين أراد أن ينزل عنها ، وما كانت بقليلة على نفس الوالد حين يأباها . وما نظن الملوك من قبلهما رضوها لأبنائهم مختارين فى حياتهم ، ولا رضيها الأبناء لآبائهم إن آلت اليهم .

ولكن نجم الدين أحب ابنه بعقله ، وأحبه بحزمه ، وأحبه بشجاعته فهانت عليه الدنيا التى تصرف الآباء عن عقلهم وحزمهم وشجاعتهم .

على هذه المثل نشأ صلاح الدين ، وبهذه المثل أحب صلاح الدين أباه حبا كثيرا فكان حزنه عليه حين مات حزنا كثيرا ،

ومما زاد حزن الابن على أبيه أنه لم يحضر وفاته ولم يحضر جنازته ، فلقد بلغت صلاح الدين وفاة أبيه وهو فى طريقه إلى مصر ، بعد حرب له مع الفرنج ، فودَّ لو طوى الطريق طيّا . ولكن الأب كان أعجل من أن ينتظر الابن . فلقد ودع الحياة بعد ثمانية أيام قضاها على فراش المرض إثر سقوطه من على فرسه سقطة أوصبت جسمه ، ودفن قريباً من مشهد الحسين ، إلى جوار أخيه أسد الدين شيركوه ، ثم نقلت جثته مع جثة أخيه بعد عامين إلى المدينة حيث دفنا هناك .

وكان حين مات له من الأولاد ستة ، أحدهم صلاح الدين ، وأكبرهم توران شاه ، وأصغرهم بورى ، وثلاثتهم الباقون : أبو بكر وكان واسطة عقدهم ، والعادل شاهنشاه . وسيف الإسلام طغتكين .

كما كانت سنوه فى مصر . منذ أن قدمها بعد دعوة ابنه له سنة خمس وستين وخمسمائة إلى أن مات ثلاثا وستين سنة ، تزيد شيئاً أو تنقص شيئا .

ولو شئت أن تعرف حزن الابن على أبيه ، أو أن تعرف كيف كان يَمُنّ الابن بأبيه ، فاقرأ شيئاً من هذا الخطاب الذى بعث به صلاح الدين إلى ابن أخيه يعزّيه فى جده ، ما كتب هذا الخطاب صلاح الدين ، ولكن كتبه القاضى الفاضل يستملى من وجد صلاح الدين فإذا هو يقول :

« غفر اللهِ ذنبه ، وسقى بالرحمة تربه ، ما عظمت به اللوعة ، واشتدت به الروعة ، وتضاعفت لغيبتنا عن مشهده الحسرة . فاستنجدنا بالصبر فأبى . وأنجدت العبرة ، فياله فقيداً فقدنا عليه العزاء ، وهانت بعده الأرزاء ، وانتشر شمل البركة بفقده ، فهى بعد الاجتماع أجزاء .

وتخطفتـــه يـــد الردى فى غيبتى   هبنى حضرت فكنت مـــاذا أصنـــع

هكذا كان وجد صلاح الدين على أبيه ، وهكذا كانت حسرته على أنه لم يحضره ، وهكذا كان يمنه به ، وهكذا كان رجاؤه فيه ، دلّك على ذلك كله القاضى الفاضل يشير إلى مابدا له منه ، وما أظنه بلغ كنهه .

— ١٠ —

وأحب لك أن تعرف متى ولد صلاح الدين وأين ولد ، قبل أن نمضى فى حديثه ، فلقد كان مولد رجلنا سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، أما أين ولد .. فلقد كان مولده بتكريت ، حين كان أبوه على قلعتها .

وما أنس الصغير صلاح الدين بتكريت كثيراً ، يجعله جملة من المؤرخين عاما ، ومنهم من يجعله دون ذلك ، ومنهم من يغلو فيجعل الرحيل عن تكريت فى الليلة التى ولد فيها صلاح الدين ، وأن أهله تشاءموا به ، إذا كان هذا المولد مع هذا الخروج . والقائلون هذا يقولون إن نفراً من هؤلاء الأهل ، أرادوا أن يهونوا على سائرهم ، وأرادوا أن ينسوهم حاضرهم مع شره الواقع بمستقبلهم مع خيره المتوقع ، وأرادوا أن يخرجوا بهم من التشاؤم بهمه وثقله إلى التفاؤل بخفته ومرحه ، فقالوا لهم قولة الآمل المرخى لأمله لا يملك غير هذا الإرخاء : لعل فيه الخيرة وماتعلمون .

وأكاد أحمل هذه على ماحملت عليه غيره من قبل ، فلقد أضفى المؤرخون على سيرة عمرو بن العاص ، وعلى سيرة الإخشيد ، وعلى سيرة كافور ، أشياء مأأظنها وقعت ، ولكن المؤرخين أوقعوها حين استقام لهؤلاء أمرهم ليمهدوا لتاريخهم المجيد بنبوءات وتكهنات يجعلونها ملحة لا يحلو حديث البطل إلا بها .

وهذا الذى أضفاه المؤرخون على سيرة صلاح الدين لم يبلغ مبلغ ماأضفوه على تلك السير التى مرت بك ، ولكنه على كل حال من هذا الذى قيل ولا يزال يقال .

ولقد نشأ الصبى فى ظل أب ، مرّبك شيء عنه عقلا وحزماً وشجاعة ، ونشأ فى ظل رجلين آخرين هما : عمه أسد الدين شيركوه ، ونور الدين محمود بن زنكى .

ولقد صحب هذا العم فى غير معركة فأفاد من خبرته وأفاد من حنكته ، وما أظنك غاب عنك قدومه إلى مصر معه مرة ومرة حتى كانت هذه المرة الأخيرة التى استقر فيها بمصر ، وولى فيها أسد الدين الوزارة ، فجعل ابن أخيه إلى جانبه ، ثم أوصى بها إليه حين أشرف على الموت .

وحين اتصل حبل الأب والعم بحبل نور الدين لم يغب عن ذلك الابن ، فما إن شب وقوى حتى دخل فيما دخل الأب والعم فيه ، وإذا هو يلقن معهما عن ذلك القائد المحنك نور الدين ويفيد .

ولكن ثمة شيء نحب أن نذكره من قبل أن ننساه : لم دخل هذا الفتى الحياة مبكراً واختصه عمه بما اختصه به ، ولقد كان إلى جانبه من يكبره من إخوته ومن غير إخوته ؟.

يكاد الجواب يملى نفسه ، ويكاد لايكلفنا عسيراً ، ونكاد نعرف أن ذلك كان لصفات يتميز بها الفتى لفتت إليه عيون الأهل ، ثم عيوناً غير عيون الأهل ، وإذا عمه يختاره ويصطفيه ، وإذا نور الدين يؤيد هذا الاختيار ويزكيه .

وإن صح الذى قاله المؤرخون وتشاءم به الأهل وتفاءلوا ، فلقد جعل هذا الذى قالوه ذاك الصبى محط الأنظار منذ أن دخل الوجود ، وجعله مكان الرعاية منذ أن درج ، وجعله أثيراً منذ أن شب ، فإذا هذا كله يملى بعضه على بعض ، وإذا هذا كله يمهد بعضه لبعض ، وإذا صلاح الدين يستأثر بقلوب أهله ، ثم بقلوب غير قلوب أهله .

وما ذكر المؤرخون كثيراً أو قليلا عن تنشئة صلاح الدين الأولى ، فلنذكر نحن هذه التنشئة قليلا أو كثيرا ، وما عرفنا غير هذا الذى استنبطناه من أن الفتى كان على حظ من نباهة ، وحظ من فتوة ، وأن الحياة هيأت الطريق ليمضى مع هذه الصفات التى كانت له ، هيأت له أبا وعما ، يرعاه هذا ويرعاه ذاك ، وكانا قد دخلا الحياة من بابها الخاص لا بابها العام ، أعنى هذا الباب المفضى إلى الحكم والرياسة ، على أية صورة كان هذا الحكم ، وعلى أية صورة كانت تلك الرياسة ، وأن دخولها من هذا الباب كان وراءه أعباء كثيرة وكانت معها تجارب كثيرة ، أدرك هذا

الصغير شيئا منها ، وفاته شيء ، فانتفع بما أدرك يشارك فيه ، ولقن ما لم يدرك رأيا يعتد به .

ومن جَد الفتى أن هذا الوالد وذاك العم كانا على حظ من تقوى وحظ من صلاح وحظ من خشية ، وكانت الحياة عندهما - بعد أن فسد سادتها ، وفسد بفساد سادتها عامتها - أحوج ما تكون إلى سيد على حظ من التقوى وحظ من الصلاح وحظ من الخشية لِيَرُدَّ العامة إلى الخير . وحين دخل صلاح الدين على الناس حياتهم بهذه الصفات رد عليهم لهفتهم ، وشفى منهم ظمأهم ، وأسكن سغبهم ، فإذا هو بالناس وإذا الناس به قوة تفعل شيئاً كثيراً ، وإذا الحياة فى مصر تستقيم لصلاح الدين أكثر مما استقامت له فى غيرها ، لأن المصريين كانوا أطمع الناس فى الخير العام وألهفهم إليه ، لا يذكر لهم من شيء عليه غير ذلك الذى كان من نفر منهم كان لهم هوى مع الفاطميين ودبروا لقتل صلاح الدين . ولقد انتهى إلى السلطان أمرهم وما هم قد انتهوا إلى ما يدبّرون ، فإذا هم جميعاً مشنوقون .

ولقد نبهت هذه صلاح الدين الى تتبع كل من كان له هوى مع الفاطميين .. فوقع على جملة منهم ، قتل منهم كثيراً وأسر كثيراً ، ونفى منهم إلى أقصى الصعيد كثيراً .

كانت هذه فى سنة تسع وستين وخمسمائة . وفى سنة سبعين وخمسمائة استعاد هؤلاء المبعدون شيئاً من قوتهم ، والتفوا حول والى أسوان حينذاك ، وهو كنز الدولة . وقصدوا بجمعهم القاهرة ، يريدون أن يعيدوا الدولة الفاطمية ، وأن يخلصوا من صلاح الدين .

وما إن هب هؤلاء حتى هب لهبتهم العباس بن شادى ، وكان هو الآخر ذا هوى مع الفاطميين ، يريد أن يهيىء لما يهيىء له كنز الدولة ، أو لشيء قريب منه ، فعبأ لهما صلاح الدين جيشا كبيراً خرج به اليهما أخوه العادل ، فإذا من اجتمعوا إلى العباس بن شادى فارّون عنه ، وإذا ابن شادى

مقتول ، وإذا ما وقع لابن شادى يقع لكنز الدولة ، فلقد فرّ عنه رجاله ، وحين خلا به جند العادل قتلوه .

وما نظن المصريين شغلوا صلاح الدين بشىء بعد هذا ، إن صح أن هذا كان رأياً لعامتهم ، فنصم به المصريين جملتهم ، ولكنه كان شيئا خاصا قام به نفر معدودون لا يعبرون عن رأى عام مستقيم ، ولكنهم كانوا يعبرون عن رأى محدود غير مستقيم ، لذلك لم يكلفوا صلاح الدين كثيراً ، ولم يكلفوه طويلا واستقامت الأمور بعد هذا لصلاح الدين فى مصر ، ولكنها لم تستقم له فى غير مصر ، فلقد كانت له هناك أطماع ، ولعل الذى هيأ لمصر أن تستقيم لصلاح الدين ، على حين لم تستقم له غيرها ، أن المصريين كانوا راغبين فى تحقيق هذا المثل الأعلى ، راغبين فى أن يهدأ هذا الشعب بعد كفاحه الطويل بينه وبين نفسه ، راغبين فى أن يقعوا على رجل له كفاية وله عدل وله قوة ليلتفوا به .. يقوى بهم ويقوون ، راغبين فى أن يكون هذا الرجل على معتقد عام .. لاعلى معتقد خاص .. فيفرق الجماعة فى معتقدها ، وليس شىء آذى لتلك الجماعة المسلمة من أن يدخل عليها شىء يفرق إجماعها على معتقدها .

ولقد أحس المصريون فى صلاح الدين هذا كله ، أحسوا فيه كفايته ، وأحسوا فيه عدله ، وأحسوا فيه قوته ، ومن قبل هذا كله أحسوا فيه أنه على معتقدهم العام يفى له الوفاء كله ، وليس على معتقد خاص يحمس له ويشتت به الجماعة ويفرق كلمتهم .

لقد جرب المصريون الأمراء يوليهم الخلفاء فجربوا محنا كثيرة ، وما عز عليهم أنهم لم يشتركوا فى الحكم بقدر ما عز عليهم هوان هذا الحكم ، ولقد جرب المصريون هؤلاء الأمراء حين استقلوا بالحكم .. فاطمأنوا شيئاً .. وجزعوا شيئاً ، وكان جزعهم أكثر من اطمئنانهم ، جربوهم فى ظل الإخشيديين ، فاستقبلوا التجربة غير مطمئنين ، ولكنهم على ذلك كانوا

راضين يحبون مخلصين أن تستقيم للدولة العامة أمورها ، وأن تستقيم لهم أمورهم ، فتستقيم أمور الدولة باستقامة أمورهم ، شاءوا هذا ورغبوا فى هذه ، ولكن الأمور كانت أقسى من أن تلين لمشيئة أو تجرى مع رغبة . وحين اطمأنوا شيئا أيام كافور الإخشيدى .. كان كافور يودع الحياة لتودع معه الدولة الإخشيدية الحياة .

وجرب المصريون الحكم على لون آخر أيام الفاطميين ، وأحاطوهم بقلوبهم ، فإذا الفاطميون يعبثون عبثين : عبثاً بالدين وعبثاً بالحياة ، وكلاهما عبث مفرّق مهلك ، ولقد نجا المصريون من تلك المحنة ، وابتلى بها الفاطميون ، فخرج الفاطميون عن مصر مفرقين هالكين ، وبقى المصريون فى مصر ، وقد سلمت لهم جماعتهم ، وسلمت لهم حياتهم .

وحين انتهى الفاطميون فى مصر .. كانت الدولة العباسية توشك أن تنتهى هى الأخرى فى بغداد ، وبدأت تفهق لتنطفىء كالمصباح حين ينفذ زيته ، وبدأ الحبل الموصول بينها وبين المصريين يسترخى حين لانت به اليد القابضة على طرفه فى بغداد ولانت به اليد القابضة على طرفه الآخر فى مصر ، وغدت بغداد لا تعى عن مصر إلا ذكريات يمسكها الرأس على جهد ، وغدت مصر لا تعى عن بغداد إلا أسى يحفظه القلب على حسرة ، من أجل ذلك كانت السبيل مهيأة لصلاح الدين ، والتقى مع المصريين على الطريق ، وكأن كلا منهما كان يسعى إلى الآخر ، مهدت الأحوال لصلاح الدين ليلقى المصريين فى مصر ، ومهدت الأحوال للمصريين ليلقوا صلاح الدين فى مصر ، وحين التقيا أنس كل منهما بالآخر أنس الصديق القديم بالصديق القديم .

وما من شك فى أن صلاح الدين حين شب وطمح تطلع إلى مصر يجعل منها مهد طموحه ومربى آماله ، فما كان بالهين على صلاح الدين أن يستقل بحياته المملوءة طموحاً فى ظل نور الدين .

وما من شك فى أن المصريين حين يئسوا وطمحوا تطلعوا إلى أفق بعيد ليقعوا على رجل بعيد ، فلقدْ جربوا الأقربين منهم .. فإذا هم ضرّ وإذا هم شر .

ومامن شك فى أن تلك المحنة القاسية التى ابتلى بها العاضد .. مكنت المصريين من أن يسمعوا عن أسد الدين ، ثم عن صلاح الدين . وكما سمع المصريون عن صلاح الدين .. سمع صلاح الدين عن المصريين .

ومامن شك فى أن طموح صلاح الدين انبعث عنه أمل حين وفد إلى مصر . وأن طموح المصريين انبعث عنه أمل حين رأوا صلاح الدين بمصر ، من أجل ذلك .. أنس صلاح الدين بالمصريين ، وأنس المصريون بصلاح الدين ، لأن الأمل الطيب فى قلب صلاح الدين لاقى الأمل الطيب فى قلوب المصريين ، فإذا الأملان أمل ، وإذا أصحاب الأملين يوحد بينهما هذا الأمل الواحد .

ولقد كان صلاح الدين ثانى اثنين أزاحا عن المصريين تلك الغمة القاتمة التى غشيتهم فى ظل العاضد وفى ظل شاور ، ولقد كان صلاح الدين وحده هو الذى حفظ على المصريين معتقدهم العام ، وأتاح لهم الجهر بما يحبون ، وكانت هاتان شائكتين فى جنوب المصريين لا يكادون يقرون منهما على المضاجع ، فاذا هم بعدهما هانئون هادئون ، ناظرون إلى ذلك الرجل الذى طلع عليهم ، وكأنه طلع منهم ، يحس مايحسون .

وهنا ذكر المصريون صلاح الدين وأنْسَوا التفكير فى الدولة العباسية ، إذ كانت الدولة العباسية قد أنْستهم التفكير فيها ، إلا بهذا القدر الضئيل الذى يذكر به الحى الميت .

ولقد جرب المصريون الولاة فوجدوهم طامعين فيما فى أيديهم ، وإذا صلاح الدين زاهد عن هذا الذى فى أيدى الناس ، ومابالـه يغريه الطمع وماشوهد إلالابسا مايحل لبسه ممسكا عما سواه ؟

وجربوهم فإذا هم محتالون فيما يكسبون به لأنفسهم نفعاً ، وإذا صلاح الدين محتال فيما يكسب به الناس نفعاً .

وجربوهم فإذا هم يرفعون أنفسهم على الناس ، وإذا صلاح الدين يسوى الناس به .

وجربوهم فإذا هم إن عدلوا أنصفوا الناس من الناس ولم ينصفوهم من أنفسهم ، وإذا صلاح الدين ينصف الناس من نفسه قبل أن ينصف الناس من الناس .

يحكون أن رجلا من رعيته قاضاه على مملوك كان له ، يدعى الرجل أنه مملوكه ، فإذا هو يسوى بينه وبين الرجل فى مجلس القضاء ، يدلى ببينته كما يدلى الرجل ببينته ، وحين غلبت صلاح الدين بينة الرجل .. لم يغضب صلاح الدين ، وإنما حمد الله على أن لم يكن ظالما ، ولم يكن مغتصباً ، وعاد على الرجل بعد ذلك بإحسان كثير .

بالعدل الذى بدأ به المسلمون حياتهم .. بدأ به صلاح الدين حياته ، وبالحلم الذى استقبل به الخلفاء الراشدون الناس .. استقبل به صلاح الدين الناس ، وبالرحمة التى امتلأت بها قلوب الأولين على الناس .. امتلأ بها قلب صلاح الدين على الناس ، تمضى الأيام ويشهد المصريون من هذا شيئاً بعد شىء فإذا هم حامدون مطمئنون ، وإذا هم مع صلاح الدين يريدون أن يكتبوا التاريخ كما يحبون ، ويريدون أن يجمعوا الدولة العربية على هذا الذى يحبون .

ولكن بغداد كانت لاتزال تحتفظ بخليفة يجلس على العرش ، تجتمع عليه الدولة اسماً وتفترق عنه فعلا ، لاهو ممسك بتلك الدولة ليجمعها على عمل مشترك .. ولاهو بمخليها على عمل مشترك ، يعرف الولاة الخليفة وينكرونه ، يعرفونه حين يريدون أمرا باسمه ، وينكرونه حين يملكون أن يقضوا بأسمائهم دون اسمه ، وهو على الحالين موجود غير موجود .

☆ ☆ ☆

وكان صلاح الدين واحداً من هؤلاء الولاة الذين وُلُّوا مصر ، غير أنه كان ينظر لنفسه وينظر للخليفة ، ينظر لنفسه يحب أن يثبت الأمر له لتجتمع له دولة قوية ، يكسر بها بطش العدو ، ويخرج بها إلى ميادينها الأولى حيث الظفر والنصر ، وكان ينظر للخليفة يراه صاحب هذا الأمر من دونه وعليه تبعته ، وماكان بوسع صلاح الدين أن يحرك الخليفة لهذا الذى يريد ، وماكان بوسعه أن يسكت ، من أجل هذا أخذ يفعل شيئاً لايضير به الخليفة ولايضير به نفسه ، ولو أن الأمور اجتمعت لصلاح الدين كلها ماكلف نفسه شططا حين سعى يضم إليه بلاداً ، وماكلف نفسه شططا حين سعى يضم إليه عباداً ، ولو أن الأمور اجتمعت لصلاح الدين كلها لكانت هذه البلاد له باسم الخلافة ، ولكان هؤلاء العباد معه باسم الخلافة ، ولاستعادت هذه الخلافة سلطانها الذى كان يطمع المصريون فى أن يكون لها ، ولاستقامت للدولة العامة سيادتها التى كان يحرص المصريون أن تستقيم لها .

غير أن صلاح الدين فى ظل حرصه على حقه ، وفى ظل حرصه على حق الخلافة ، وفى ظل حرصه على ذلك الأمل العريض - أمل الدولة العامة - خرج يسعى فى الأرض .

ولقد نظر صلاح الدين ، فإذا الشام بعد موت نور الدين كادت تفلت من يد ابنه الملك الصالح ، وكان صبيا لايستقل بالأمر ولايقوى على أن ينهض بأعباء الملك .

ونظر صلاح الدين فإذا مَن حول الشام طامعون فى الشام ، لايحبونها لهم لينهضوا دولة ولكنهم يحبونها لهم لينهضوا أنفسهم ، وكان أملهم غير أمل صلاح الدين ، فصلاح الدين يحب أن ينشىء دولة باسم المسلمين ، وهم يحبون أن ينشئوا دولة بأسمائهم ، وكان أمل صلاح الدين أكبر من آمالهم ، من أجل ذلك خرج يسعى إلى الشام يريد أن يحفظ هذا الملك على صاحبه ، أو قل يحفظه على صاحبه ليحفظه لنفسه .

ولقد أسلم الناس إليه أمرهم ، وأنِسوا به ، وأنس بهم صلاح الدين ، فبذل لهم الكثير من المال .

وكما أخذ صلاح الدين دمشق أخذ حلب ، ثم أخذ حمص ، عندها هب الطامعون ينازعون صلاح الدين ماوقع فى يده .

ولقد كان صاحب الموصل إذ ذاك سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن زنكى ، وكانت تجمعه بالملك الصالح قربى ، إذ كانا ولدى عمومة ، ومانظن القربى هى التى حركت صاحب الموصل ليعين قريبه صاحب دمشق ، فلو لم يطمع صاحب الموصل مأبه لقربى ، ولو لم يخف صاحب الموصل ماحركته عمومة .

ولكن صاحب الموصل كان يحب طمعه أكثر مما يحب قريبه ، وكان يخشى من أن يقوى صلاح الدين أكثر مما كان يخشى من أن يضعف ابن عمه .

من أجل ذلك تحرك صاحب الموصل ، وإذا صلاح الدين يجمع جنده ليحارب صاحب الموصل ، وإذا صلاح الدين يقع فيما وقع فيه من قبله ، لأن أمر المسلمين - كما قلت لك - لم يعد فى يد الخليفة ، وإنما عاد فى يد الولاة يقضون فيه بما يحبون .

وهكذا استعصت البلاد على صلاح الدين على حين لانت له مصر ،

ولقد لانت له مصر لأنها أحبت أن تبلغ به أملا عاما لاأملا خاصا ، واستعصت البلاد على صلاح الدين لأنها أحبت أن تبلغ بأنفسها أملا خاصا لاأملا عاما .

ولكن صلاح الدين لم يكن يحب أن يركب الطريق التى ركبها سابقوه ، ولم يكن يحب أن يكون خروجه لهذا الذى اضطرته اليه جيوش صاحب الموصل ، من أجل ذلك فكر فى أن يمر الأمر بينه وبين جيوش صاحب الموصل سلماً ، يحفظ على المسلمين دماءهم ، ويحفظ عليهم قوتهم وعتادهم لما هو أجدى من هذا .

وحين فكر صلاح الدين فى ذلك .. فكر فى أن يكتب لهم يصالحهم ويصالحونه ، وحين يفكر صلاح الدين فى الصلح .. يفكر فيه لنفعه ونفع خصمه ثم لنفع المسلمين عامة ، وحين يملكه هذا الفكر ينسى نفسه وينسى خصمه ويذكر المسلمين عامة فلا يأبه بعدها بشىء .

ولكن صاحب الموصل كان غير صلاح الدين ، كان يرى الأمر ثأراً ويراه انتقاما ، وإذا انتهى إلى هذا .. نسى الخير فلم يرحم ، واغتر فازداد ضراوة . وحين أرسل إليه صلاح الدين يطلب إليه الصلح .. خال ذلك ضعفاً ، فلم يرحم ، واغتر فشمر يحارب .

وحين حارب صاحب الموصل حارب صلاح الدين ، وحين يحارب صلاح الدين لايذكر إلا الحرب .

ولقد انتصر صلاح الدين وانهزم صاحب الموصل ، وماكاد صلاح الدين يُنفض من الحرب يده .. حتى عادت إليه نفسه الوادعة ، فلان لخصْمه ، ولم يقس عليه ، وأطلق من وقع من خصمه أسيراً فى يديه .

ولكن المعركة التى كادت أن تنفض .. عادت لتجتمع ثانية ، فإذا الجيوش تقف بعضها لبعض مرة ثانية ، وإذا صلاح الدين يمتحن بحرب

ثانية أشد قسوة ، يكاد يصاب فيها ثم يكتب له النصر ، وكما فعل فى الأولى فعل فى الثانية ، فإذا هو يمن على من أسر فيطلقه ، وإذا هو بعد هذا لايقسو على عدوه ولايتبع فارهم ، ويعود صلاح الدين إلى مصر بعد أن ضم اليه بلاد الشام .

- ١٢ -

أرأيت كيف استقامت مصر لصلاح الدين ، ولم تستقم له غيرها ؟ ولقد كانت الأمور أولى أن تستقيم كلها لصلاح الدين ، فيمضى وسط تلك المحنة التى كانت محدقة بالمسلمين دون أن يشغل نفسه إلا بها . ولكنه على هذا شغل نفسه بهذه وتلك ، لأن الحياة أملت عليه هذه وتلك .

ولقد كان على صلاح الدين بعد أن عاد من الشام أن يخرج إلى الفرنج فى الرملة ، وكما كاد صلاح الدين أن يظفر بعدوه كاد عدوه أن يظفر به . ولقد ظفر الفرنج هذه المرة بصلاح الدين ، فإذا هم يشتتون جموعه ، وإذا جموع صلاح الدين تفرّ ، وإذا هى حين تفر تضل الطريق فى الصحراء . وإذا هى حين تضل الطريق فى الصحراء يصيبها وِهَن شديد وأذى كبير ، وتؤسر منهم جماعة كثيرة .

وما يكاد صلاح الدين يضع رجله فى مصر يلم شعثه ، ويصلح أمره ، حتى يبلغه أن الشام الذى أسلم إليه أمره منذ قليل قد خرج على أخيه ثوران شاه ، الذى تركه هناك مكانه . فيخرج إليه صلاح الدين وما كان قد استراح .

ولا يلبث صلاح الدين فى دمشق إلا ريثما تستقر الحال ، وحين تستقر الحال يعود إلى مصر . ولكنه ما يكاد ينتهى إلى مصر حتى يبلغه موت الملك الصالح ، ويبلغه أن الملك الصالح قبل أن يموت أوصى بأن تكون حلب إلى ابن عمه صاحب الموصل ، ويبلغه أن صاحب الموصل خف إلى

حلب يسبق صلاح الدين إليها ، قبل أن يسبقه صلاح الدين إليها . وكان حتما على صلاح الدين أن يخرج إلى تلك الفتنة الجديدة ، وكان حتما عليه أن يمضى إلى حلب ، وأن يرد إليه حلب .

وتمضى الأمور هذه المرة بين صاحب الموصل وبين صلاح الدين .. لا تمهد لها حرب ، ولكن تمهد لها مساومة ، فإذا صاحب الموصل يساوم صلاح الدين على أن ينزل له عن شيء مما وقع فى يده من بلاد الشام قبل أن يترك هو له حلب ، ولأمر ما .. نرى صلاح الدين يؤثر السلم على الحرب ، ويؤثر أن ينزل عن تلك البلاد التى طلبها صاحب الموصل ، ويخرج صاحب الموصل من حلب ليدخلها صلاح الدين .

ولعل الذى آثره صلاح الدين من سلم هنا كان يدخره لحرب هناك ، فما كاد يفرغ من هذه .. حتى تهيأ يعد العدة لحرب الفرنج ليثأر لهزيمته فى الرملة .

ولقد كانت كبيرة على نفس صلاح الدين أن يصبر لتلك الهزيمة طويلا ، وكانت كبيرة على نفس صلاح الدين أن تمضى هذه الهزيمة دون أن يمحوها نصر .

ولكن أكبر من هذا وذاك أن نرى صلاح الدين وحده يُشغل بأمر الفرنج ويشغل بتحرير البلاد منهم : الخليفة فى شغل عن ذلك ، والولاة من حول صلاح الدين مشغولون بصلاح الدين لا بالفرنج معه .

ولقد تمّ لصلاح الدين ما أراد ، فإذا هو يلقى الفرنج بحطين ، وإذا هو يبلغ منهم فوق ما كان يأمل ، وإذا هم ينالهم فوق ما نالوا هم من المسلمين فى الرملة .

وإذا صلاح الدين بعد حطين يمضى فى إثر الفرنج يأخذ البلاد التى وقعت لهم من قبل بلداً بلداً ، فاستولى على عكا ، واستولى على ما فيها

من عتاد ، وخلص من كان بها من أسرى المسلمين ، ثم مضى فاستولى على صيدا وبيروت ثم عسقلان ، وإذا هو بعد هذا كله يقصد إلى القدس ليختم هذا الغزو الأصغر بغزو أكبر .

وتجتمع جيوش المسلمين حول القدس ، وإذا هم جموع تهول .

وإذا النصر الذى كسبوه يزيدهم عزما ويزيدهم حمية ، وإذا الهزائم التى منى بها الفرنج تزيدهم ضرراً وتزيدهم ضعفاً ، وإذا القدس فى أيدى المسلمين وإذا الفرنج عنها خارجون ، بعد أن بقيت فى أيديهم نحوا من تسعين سنة تزيد سنتين ، فلقد وقعت فى أيديهم أيام خلافة المستعلى الخليفة الفاطمى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وكان استيلاء صلاح الدين عليها سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

وكما أملى هذا النصر على أعداء صلاح الدين من الفرنج ذلة .. أملى على خصوم صلاح الدين من المسلمين استسلاما ، وكما أملى هذا النصر على الفرنج أن يذعنوا خارجين ، أملى هذا النصر على المسلمين المخالفين أن يذعنوا داخلين ، فإذا هم يعرضون على صلاح الدين أن يكونوا معه .

لا ندرى إخلاصا للقضية العامة التى رأوا صلاح الدين يقف لها وحده على الرغم من خلافهم عليه ، أم أخلاصاً للقضية الخاصة حين رأوا صلاح الدين يغنم وما أحبوا أن يغنم هو وهم لا يغنمون .

وسواء أكانت هذه أم تلك .. فلقد طلب عماد الدين صاحب سنجار ، ومظفر الدين صاحب إربل وعسكر الموصل ، وكانا من قبل حربا على صلاح الدين ، أن يكونا معه على الفرنج .

وما نظن صلاح الدين ذكر ماضى هذين الرجلين ، ورغما عن هذا استجاب لما طلبا ، ومضى بهما معه ، هذا على ميمنته وذاك على مقدمته ، ليلقى عدوه وعدوهما .

وإذا صلاح الدين يصول بجيشه هذا ويجول ، يخرج من نصر إلى نصر ، ومن فتح إلى فتح . وإذا الفرنج أمامه يخرجون من هزيمة إلى هزيمة ، ومن تسليم إلى تسليم .

– ١٣ –

غير أن الفرنج لم يكونوا قد انتهوا فيما وراء البحر ، وإن كانوا قد انتهوا على هذه الأرض . فإذا هم فى يوم وليلة تجيئهم الأمداد بحراً ، وإذا هم يقوون بعد ضعف . وإذا هم يضيقون الحصار على عكا . وإذا أهل عكا يستسلمون ، وإذا الفرنج بعد أخذهم عكا يستشرون ، ويخرجون قاصدين عسقلان .

وعلى حين كانت أوربة كلها تمد هذا الغزو بالمال والرجال .. كانت مصر وحدها تكاد تمد هذا الغزو بالمال والرجال . فلا غرو أن يكثر الفرنج ويقلّ المسلمون ، ولا غرو أن يفوق عتاد الفرنج عتاد المسلمين .

ولا عجب بعد هذا وذاك أن يفكر صلاح الدين فى إخراب عسقلان حتى لا تقع فى يد الفرنج .

وكان عزيزاً على المسلمين أن يخربوا بيوتهم بأيديهم ، غير أنه كان عزيزاً عليهم أن تقع دورهم غنيمة فى يد الفرنج .

ولقد أصاب الأهلين أهل عسقلان من ذلك شر كبير ، فخرجوا عن ديارهم بأهليهم وأولادهم ، فريق إلى مصر وفريق إلى الشام ، وإن قلوبهم لحسرى ، وإن أعينهم لتفيض دمعا ، وحين خرج أهل عسقلان عن عسقلان أضرم صلاح الدين فيها النار ، ولقد ظلت تلك النيران مشتعلة من منتصف شعبان إلى أن أهل رمضان ، حتى أتت على كل شىء فيها لم تبق ولم تذر .

هذا والفرنج ماضون فى طريقهم . وكما خاف صلاح الدين على عسقلان فأحرقها خاف على الرملة فأحرقها ، خاف على هذه أن تقع سليمة فى يد الفرنج ، كما خاف على تلك أن تقع سليمة فى يد الفرنج .

وكان صلاح الدين قد أمضى مايبلغ العشرين عاما فى كد متصل ، وحرب لاتفتر ، وفتن لاتهدأ ، يدوس الأرض جيئة وذهاباً ، من مصر إلى الشام ، ومن الشام إلى مصر ، قضى الشطر الأكبر من هذه الأعوام العشرين على ظهر حصانه مرة ، وفى العراء أخرى ، وفى الميادين ثالثة ، مانظنه استقر على عرشه ، ولاأوى إلى بيته ، ولااستمتع بملكه ، ولا ذاق طعم شىء إلا طعم الحرب والكرّ والفرّ .

فإذا صلاح الدين بعد هذا المطاف الطويل ، وبعد هذا الكد المتصل ، وبعد هذا الجهد المضنى ، قد اعتلّت صحته ، وإذا هو لايقوى على مايقوى عليه الرجل السليم .

ولو أن الحياة أعطت صلاح الدين ماأعطته لغيره ليعيش حاكما يملى ويدبّر ، ومن حوله قادة يسمعون ويطيعون ، ومن حولهم جميعا أمة تدين لهم بالولاء الكامل ، تستمع لهم وتطيع ، لأعطى صلاح الدين فوق ماأعطى أضعافا مضاعفة ، ولأتيح لهذه الدولة أن تنهض نهضة جامعة خالدة على يدى هذا البطل الخالد .

ولقد أمل المصريون ورجَوْا ، وكانوا فيما أملوا ورجَوْا يريدون الخير ، ولقد أعانوا جهدهم على هذا الخير ، ولكن الزمن مضى بعدَ أن حقق لهم من هذا الأمل وذاك الرجاء شيئا ، وبعد أن حرمهم من هذا الأمل وذاك الرجاء شيئاً ، وكان ماحرمهم إياه فوق ماأعطاهم .

ويشاء القدر الذى أوهن من قوة صلاح الدين أن يوهن من قوة الفرنج ، فإذا هم الآخرون يملون المطاف ، ويملّون الجهاد ، ويملون هذه الحرب النكراء ، وإذا هم يطلبون الصلح على شروط لاإجحاف فيها ولاضير .

وكما رضى الفرنج تلك الشروط رضيها المسلمون ، وإذا بلاد المسلمين وبلاد الفرنج - كما تملى الشروط - مكان أمين كلها للمسلمين والنصارى ، يدخل هؤلاء بلاد هؤلاء ، ويدخل هؤلاء بلاد هؤلاء ، آمنين غير حذرين ولاوجلين .

وهكذا انتهت تلك الحروب ، ماجنى فيها الفرنج جديداً ولاجنى فيها المسلمون جديداً ، ولكن بعد أن خسر فيها الفرنج كثيراً ، وخسر فيها المسلمون كثيراً ، وبعد أن ضاعت أرواح ، وخربت بلاد وتلفت أموال .

☆ ☆ ☆

وفيما صلاح الدين يُعد العودة ليترك دمشق إلى مصر يلم به المرض ، وإذا المرض يستشرى ، وإذا صلاح الدين يضعف تحت وطأته ، وإذا هو بعد أيام عشرة يموت تاركا الناس من بعده يبكونه ويبكون أنفسهم ، فلقد أحس صلاح الدين المرض فى السادس عشر من صفر ، ومات بعد صلاة الصبح فى السابع عشر من الشهر نفسه ، سنة تسع وثلاثين وخمسمائة .

— ١٤ —

ولقد عرفت للرجل الكثير ولم تعرف له القليل الذى يعدل هذا الكثير ، فلقد مات صلاح الدين ملكاً ، وخرج من الدنيا كما يخرج واحد من الرعية ، لاأعنى أنه خرج من الدنيا لم يُلتفت إليه .

فلقد حزن لموت صلاح الدين الناس كلهم ، وبكاه الناس كلهم ، وود الناس كلهم مخلصين لو فدوه بأرواحهم ، بل أعنى شيئا آخر ، أعنى أنه خرج من الدنيا لم يخلف مايخلفه الملوك من ثروات طائلة .

فلقد أحصوا مافى خزانته من الذهب حين مات فإذا هو سبعة وأربعون درهما ناصرية ودينارا واحداً من ذهب صورى .

وأحبوا أن يحصوا بعد ذلك ماترك من غير الذهب ، فإذا هو لم يترك ملكا ولاداراً ولاعقاراً ولا بستانا ولاقرية ولامزرعة .

هذا هو صلاح الدين الذى كان له ملك مصر والشام ، خرج من الدنيا نافضاً يديه من متاع مصر والشام ، مالئاً صفحته عن مصر والشام بما لم يملأهما به ملك قبله .

لقد دخل الدنيا زاهداً فى متاعها غير زاهد فى عملها ، وكأنى به قد حمل هذه النفس الصارفة الصادفة منذ ودع العاضد آخر خلفاء الفاطميين الدنيا إلى مقره الأخير ، فلقد وقعت يده ووقعت عينه فى مقر العاضد حين مات ، على ذهب وزمرد وياقوت ، ونظر صلاح الدين فإذا هذا كله لم يغن عن العاضد شيئا ، ماذكر الناس العاضد بذهبه وزمرده وياقوته ، بل ذكروه بعمله وسيرته واجتهاده ، ونظر صلاح الدين فإذا ذهب العاضد وزمرده يغرى الناس بالنيل منه وينضاف إلى سيئاته .

من هذا الباب دخل صلاح الدين الحياة ، وكان صاحب فكر فنفعه فكره ، ورأى التعفف خيرا من التدنى ، ومثل الذين يدخلون الحياة دخوله إذا لم يكونوا أصحاب فكر تُغريهم الحياة ، فإذا هم أبعد من العاضد جمعاً ، وإذا ما جمع العاضد لا يعدل ما يجمعون .

وصلاح الدين هذا الذى لم يشغل بالحياة لتكون له ، شغل بها لتكون للناس ، فما كان بمصر ثمة مدارس حين ملك صلاح الدين ، فبنى صلاح الدين بمصر مدارس ، أنشأ المدرسة الصلاحية بجوار ضريح الإمام الشافعى ، وأنشأ مدرسة أخرى بجوار المشهد الحسينى ، وجعل دار عباس الوزير العبيدى مدرسة للحنفية ، وأنشأ مدرسة للشافعية ، ثم جعل دار سعيد السعداء الخادم خانقاه ، كما بنى بالقصر داخل القاهرة بيمارستان ، وأوقف على كل هذا الذى أنشأه ، أوقافاً كبيرة تفى بحاجاته .

هذا الرجل الذى حول القلوب إليه فخفقت بحبه ، حول الألسنة له فنطقت بحمده ، وحرّك الأقلام له فجرت بمدحه ، وسخر التاريخ فجمع له ما جرى على الألسنة وما خطته الأقلام .

أحبه الناس كلهم لم يختلف عليه إلا هؤلاء الطامعون فى الجاه الذين يعنيهم أن يؤسسوا لأنفسهم ولا يعنيهم أن يؤسسوا للدولة العامة والكلمة العامة .

وما أظن هذه الدولة العربية منذ أن وجدت خلافتها إلا شقيت بهؤلاء ، وما أظن حياة هذه الدولة العربية تعرضت لأمن ومحن إلا على أيدى هؤلاء . وما كان جديداً على صلاح الدين أن يلقى ما لقى غيره من قبله ، ولا كان مما يعيبه أن يصارعهم ، وحسبه أن الشعب هنا وهناك كان يتطلع إليه ، ولولا أن هذا الشعب كان مغلوبا على أمره هنا وهناك ما ساند هؤلاء فى قليل ولا كثير ، ولقد وقف إلى جانبهم حين وقف مقهوراً ، وكان حين يحس أنه حُر لا يخشى كان يفتح قلبه كله لهذا البطل ، ويفتح ذراعيه مبسوطتين لهذا البطل .

وما نطق الشعراء بمدحه ولا قال الناثرون فى وصفه راهبين له راغبين فيما عنده ، فما كان صلاح الدين ذا بطش يقهر الناس ، ولكن كان ذا تواضع يقرب الناس منه ، ثم ما كان الرجل من الذين يشترون القول بمال ، ولكن كان يشترى هذا القول بأفعال ، وهو على ذلك كان جواداً يعطى عند الحاجة ولا يعطى لحاجة ، وما أبعد شاعرَ الأمس فيما أحب أن يكون لصلاح الدين عما كنا نحب نحن أن يكون لصلاح الدين حين قال :

أرى النصر مقرونـا برايتـك الصفرا   فسر ملك الـدنيـا فـأنت بهـا أخرى

أمنية صادقة أملاها قلب صادق على لسان صادق ، كان صدى لأمانى صادقة ، هى أمانى الشعب العربى حينذاك بعد أن هصرته المحن وأثقلته

الإحن ، وتمليها اليوم قلوب صادقة على ألسنة صادقة ، هى صدى أمانى الشعب العربى اليوم الذى هصرته المحن وأثقلته الإحن .

ومن بعد الشعراء كتب الكاتبون يؤرخون لصلاح الدين ، فإذا هم كلهم على اجلاله ، وإذا هم كلهم على إكباره .

وما كان كله بكثير على رجل لم يعش لنفسه يوماً ، بل عاش أيامه كلها لأمته ، وكما دخل الدنيا ليس فى يديه شىء من متاعها خرج منها وليس فى يديه شىء من متاعها ، ولكنه على هذا دخل الدنيا اسماً لا يعرفه إلا آحاد كلهم من أهله ، وخرج من الدنيا اسما يعرفه الناس جميعاً ويكاد لا يجهله واحد من الناس جميعاً .

– ١٥ –

وهذا الرجل الذى خلف كثرة من الأعمال ، خلف كثرة من العيال ، فلقد مات رحمه الله عن ستة عشر ولدا وبنت واحدة .

وكان أكبر أولاده الأفضل على وكان مولده بمصر ، ثم الظافر خضر وكان مولده بمصر ، ثم الظاهر غازى وكان مولده بمصر ، ثم قطب الدين موسى وكان مولده بمصر ، ثم الزاهر داوود وكان مولده بمصر ، ثم المحسن أحمد وكان مولده بمصر ، ثم الأعز يعقوب ، وكان مولده بمصر .

فهؤلاء الثمانية من أولاد صلاح الدين كان مولدهم جميعاً بمصر ، فيما بين سنة خمس وستين وخمسمائة ، وبين سنة سبع وسبعين وخمسمائة .

وأما غيرهم من أولاده فقد ولدوا ما بين دمشق وحران وغيرهما من بلاد الشام .

وما سدّ هؤلاء الأبناء على كثرتهم مسد الأب وكان فردا ، ولقد تلقفوا هذا الملك عن أبيهم ميراثا يعنيهم أن ينعموا بخيره ، لا تلفتهم إليه تلك

النظرة التى لفتت أباهم إليه . يراه واجبا كبيرا فينسى وجوده إلى وجوده ، ويراه تحيط به أوزار كثيرة وعليه أن يخلصه من تلك الأوزار ، ويراه يكاد يتداعى وعليه أن يحفظ له كيانه ، ويرى بين يدى هذا الواجب شعبا تهيأ للتضحية فى سبيل هذا الواجب . ولكنه عاش مغرّرا به يبذل تلك التضحية لغير هذا الواجب ، رأى ذلك فى مصر ورآه فى غير مصر ، ولكن أنسه بمصر أرضاه ، فجعل من مصر مبعث هذا كله .

وخلف صلاح الدين على مصر ابنه العزيز عثمان ، وكان مولده فيها سنة سبع وستين وخمسمائة ، أى حين ولى صلاح الدين مصر بعد موت العاضد .

وما اجتمع للعزيز عثمان ما كان قد اجتمع لأبيه ، فانفرد أخوه الأفضل بدمشق كما انفرد أخوهما الظاهر بحلب .

وهكذا استقرت أيدى هؤلاء الأبناء على هذه التركة يأخذ كل منهم نصيبه منها ، ولقد كان أبوهم ولاّهم هذا فى حياته لا ليجعل منهم ولاة مستقلين ، ولكن ليجعل منهم أعوانا معينين ، وما نشك فى أن الذى أحبه صلاح الدين فى حياته كان يحب مثله بعد مماته ، كان يحب أن يقوم ابنه العزيز مقامه ، ويقوم سائر الأبناء إلى جانب أخيهم معينين ، وتبقى الدولة وحدة متماسكة كى يمضى أمرها متماسكا .

وما نظن صلاح الدين كان يغيب عنه كيف ستمضى الأمور بين الإخوة من بعده ، فلقد جرب هو مثلها فى حياته ، جربها مع أخيه توران شاه ، أخيه لأبيه . فلقد كان هذا الأخ الأكبر يرى نفسه أحق بملك مصر من أخيه ، لا لجهد بذله هنا أو هناك ، ولكنه كان يرى كسب الأسرة للأسرة ، وأولى بتصريف هذا الكسب أكبر الأسرة سنا ، وإذا كان هو أكبر من صلاح الدين .. فهو أولى من صلاح الدين بما أدخل للأسرة من كسب . ولو أن صلاح الدين حين عرض هذا المُلك على أبيه ، مقدمه إلى مصر فأباه أبوه ،

واستكثر أن يأخذ ما فى يد ابنه ، لو أن صلاح الدين حين عرض على أخيه ما عرض على أبيه فرفضه ، ما أباه الأخ ، وما نظنه كان يستكثر أن يأخذ مافى يد أخيه . ولقد أبي الأب ، لأن تلك طبيعة الأبوة ، إن سلمت طبائع الآباء ، ترى كسبها للابن تجمع لتعطى ، وترى كسب الابن أكثر من كسبها له فتعرض ان تحفظه عليه ، ولكن طبيعة الأخ غير طبيعة الأب تجمع لا يعنيها أن تقتطع ما تجمع من حظ أخيها ، وترى كسب أخيها فيه إيذاء لها فهى تحرص أن تحرمه ثمرة ما يجمع ، وهكذا كان توران شاه ، وكان أكثر من هذا .. كان ذا نفس مريضة ، فسرعان ما دخلت عليها هذه العلة ، أعنى علة البرم والضيق بما نال صلاح الدين ، ولقد جاوزت تلك النفس المريضة البرم والضيق إلى الحقد والحسد . وكاد أن يخرج بها الحقد والحسد الى ما هو أبعد ، إلى عداوة تجر إلى شحناء ، بدا ذلك منه حين طلب من نور الدين أن يرحل إلى مصر ، وأحس نور الدين منه ما يريد فوقفه بين يديه ينصحه ويرده إلى نفسه السليمة ، وقد مر بك حديث ذلك . ثم بدا ذلك منه فى مصر بعد مجيئه إليها ، فلقد كان سكيرا ، وكان كلما سكر أخرجه السكر عن وعيه ، فإذا هو يؤذى أخاه صلاح الدين بكلمات يسمعها الناس عنه وينقلونها إلى الأخ . وكان الأخ - أعنى صلاح الدين - يعرف إن مجده الذى أسعد أباه آذى أخاه ، وكان صلاح الدين يرثى لتلك الأنفس المريضة ويرحم ضعفها ، فلم يلتفت إلى أخيه توران شاه عدوا ، وإنما التفت إليه أخا مريضا ، فلم يعنف به وإنما رحمه وعطف عليه عله بذلك يخفف حدة هذا المرض من نفسه . ولقد داوره صلاح الدين كثيرا فما أفلح ، وعاش هذا الأخ مجانبا أخاه ، وما نظنه غزا معه غزوة ، وما نظنه إلا عاش عاكفا على لهوه حتى مات .

وكما جرب صلاح الدين أخاه .. جرب ابن عمه محمد بن أسد الدين ، فلقد كان هو الآخر يرى هذا الملك إرثا دخل فى حوزة هذه الأسرة ، ويرى نفسه أولى به لأنه ابن أول رجل من هذه الدولة وضع يده على أمرها .

لقد جرب صلاح الدين هذا وذاك فى حياته ، وما نظنه أنسيه قبل أن يموت ، وما نشك فى أن صلاح الدين حين ولّى أبناءه فى حياته هذه الولايات كان يريدها لهم بعد مماته على هذا الوضع الذى ألفوه فى حياته .

لقد ولاّهم ليشغلهم وليدرّبهم ، وولاهم لأنه وجدهم أنصح الناس له وأقربهم إليه ، ولقد أعجله الموت قبل أن يقول كلمته الأخيرة فى هذا الملك فترك هذه الدولة التى أسسها موزعة ، ولقد سعى حياته ليجعلها موحدة ، ولكنه كان قد مضى قبل أن يدعم لهذا التوحيد ويمكن له .

– ١٦ –

وهكذا بدأت التجربة التى استقبلتها مصر باشة ترد إلى مصر عبوسها ثانية ، وتردها إلى صبرها المعهود ، تساير هذه الدولة الأيوبية التى أنشأها صلاح الدين ، تذكر ماضى صلاح الدين فيها فتمتلىء رجاء وقوة ، وترى حاضر أولاده بين يديها فتمتلىء يأسا وفتورا ، وإذا هى كما استسلمت للماضى الطويل تستسلم للحاضر الممتد ، تحب أن تشهد آخر هذا التاريخ كما شهدت أوله ، أنسيت أساها حين لم تكن إلا ولاية ليس لها غير الأرض التى تمشى عليها ، فيما مر من ذلك التاريخ ، وكما أنسيت ذلك فى الماضى حاولت أن تنساه فى الحاضر ، يغريها بذلك ما كان من مثل صلاح الدين ، ويبعدها عن ذلك ما لم يكن على شاكلة صلاح الدين ، تنسى وتذكر . ولكنها كانت تملك أن تنسى حين تذكر ، لأنها كانت تحب أن تساند التجربة وترعاها ، إذ كانت تؤمن بأنها جزء من تلك التجربة ، تعطى فوق ما تملك .. طامعة فى أن تُنهض هذا التاريخ العام وأن تقيمه .

ولقد بدأت مصر التجربة مع العزيز بعد أن أنهتها مع ابنه صلاح الدين ، بدءا يتفق مع كثير غيره من قبله ، فلقد كان أبوه قد ولاّه مصر فى حياته يريد أن يشغله بالملك ويريد أن يدربه ، لا يريد مصر له – كما قلت – كما لم يرد غير مصر لإخوته الذين ولاهم ما ولاهم فى حياته ، وإنما أراد

لهم ما أراد للعزيز حين ولاه مصر ، إذ كان أصغر من أخويه الظاهر صاحب حلب ، والأفضل صاحب دمشق ، وكان الأفضل كما قلت لك هو أكبر الإخوة ، وكان المقدم على أخويه ، وكان هو الذى جلس للعزاء بعد موت أبيه ، أعنى أن الأمر كان إليه .

ولكن الأمر مضى كما قلت عن غير تدبير سابق من الملك الراحل ، لأنه مضى قبل أن يدبر له . وكانت ولاية العزيز على مصر شيئاً لم يرد به صلاح الدين أن تكون مصر للعزيز ، وإنما كانت إنابة حين يكون الوالد مشغولا عن مصر بحرب فى الشام ، وحين مات الأب جمع إليه العزيز الوجوه والأعيان ، فإذا هم يرضونه ملكا ، وإذا هم يقرون صنع الأب ويجعلونه عهداً ، ويلزمون أنفسهم بهذا العهد ، وإذا العزيز ملكا على مصر .

فها أنت ترى أن الأيام قد هيأت للخلاف بين الإخوة أسباباً مبكرة ، فلقد بات الأفضل فى دمشق .. لِسِنِّه .. يرى أنه أولى بهذا الميراث كله من إخوته ، أو يرى نفسه على الأقل المقدم دونهم جميعاً . وبات العزيز فى مصر .. يمسك بيديه ملكه على خوف ، يرى صغر سنه وعظيم ما نال مما يطمع فيه إخوته .

وتمضى الأيام تؤكد هذا الخلاف وتزيد فيه ، فإذا الأفضل الأخ الأكبر ، الذى قدم نفسه على إخوته ، يسىء فيسوء ، وإذا وزيره ابن الأثير يعنف بجنده فيكرهه جنده ، وإذا العزيز يغرى الكارهين بالانفصال عن أخيه والانضمام إليه ، وإذا هؤلاء الكارهون يفرّون إلى مصر فيلقون رفقا ، ويلقون إعزازاً ، وإذا هم يستبدلون بحياة نابية ، حياة ناعمة ، وإذا الأفضل غاضب من العزيز ، وإذا العزيز مخاصم للأفضل ، وإذا الأخوان على قطيعة ووحشة .

وما كان الفرنج قد نفضوا أيديهم من ذلك العدوان الباغى ، فإذا هم

يتحينون تلك الفرصة ليشنوها حرباً على هذين المتخاصمين ليظفروا بما يطمعون فيه ، فيحاصرون جبلة .

وإذا وقع الخلاف بين أولى الأمر .. وقع بين الرعية ، وإذا هان أولو الأمر .. هانت الرعية ، فإذا جبلة التى حاصرها الفرنج تستسلم للفرنج استسلاما شائنا ، فلقد كان بها جماعة من الأكراد ، وحين وجدوا الأخوين يختلفان على الغُنم سعوا هم الآخرون إلى هذا الغنم لا يعنيهم ما يدفعون ، ولكن يعنيهم ما يأخذون ، فإذا هم يبيعون جبلة للفرنج ، يسلمون قطعة من أرض الوطن لخصومهم لقاء عرض لا يبقى فى اليد إلا قليلا .

ويخرج العزيز من مصر يريد لقاء الفرنج ، وما كان يريد إلا أن يغلب أخاه الأفضل على دمشق ، ويحس ذلك الأفضل فيكتب إلى عمه العادل وإلى الأمراء من حوله .. أمراء حلب وحماة وحمص يستنجد بهم على أخيه .

وتكاد تقع الحرب بين الأبناء ، ويكاد الأبناء يشغلون بأنفسهم ولا يشغلون بعدوهم ، يخشى العزيز أن يغلبه أخوه بمن استعان بهم ، فيسعى سعيه ، ليفرق عن أخيه من اجتمعوا إليه .

ويسعى العزيز للقاء عمه العادل ، يكلمه فى غرضه هذا الذى قرّ فى نفسه ، ويلتقى الرجلان العزيز والعادل ، ويتكلم العادل ويسمع العزيز ، فإذا العادل يقول لابن اخيه : لا تهدم بيتك وتدخل عليه الآفة ، والعدو من كل جانب وقد أخذ جبلة ، فارجع إلى مصر واحفظ عهد أبيك ولا تطمع فى دمشق عدوك .

وكانت مُرّة على نفس العزيز أن يكون هو الهادم لهذا البيت ، وأن يكون هو الناكث لذاك العهد ، فينكسر ويلين ، ويعود إلى مصر وما فعل شيئاً يرد به جبلة . وأكاد أتهم العزيز بأنه لم يعد عن حرب أخيه لنصيحة

عمه ، وإنما عاد عن هذه الحرب حين لم يجد عمه معه على أخيه ، وحين خاف أن يخسر تلك الجولة وينهزم بين يدى أخيه .

وما كان فى ظن العزيز أن يستنجد أخوه بعمه وبعشيرته من حوله ، وما كان فى ظن العزيز أن يخف العم وغير العم لنجدة الأخ . من أجل ذلك بات العزيز لا ينسى هزيمته تلك ، وبات يفكر فى التدبير لأخرى مفيداً مما كان .

وسرعان ما طلب العزيز من عمه أن يزوجه ابنته الخاتون ، ففعل ، يريد بذلك العزيز أن يضمن عمه إلى جنبه فلا يكون مع الأفضل عليه إن جد بينهما جديد .

وبقى الخلاف بين الأخوين لم يُنهه رجوع العزيز عن حرب الأفضل ، ولم ينهه لقاء الأفضل للعزيز ، بعد أن قال العادل فى ذلك كلمته التى مرت بك ، ولم يُنهه ما كان بين الأخوين حين تلاقيا من عناق وبكاء أسفاً على ما فرّط . كما لم ينهه هذا الشعر الذى كتب به الأفضل إلى العزيز بعد أن ودعه ليرحل إلى مصر ، وكان الأفضل شاعراً ، فكتب إليه أبياتاً ثمانية مطلعها :

نظرتك نظرة من بعد تسع تقضت بالتفرُّق من سنِين

ولقد كان الأفضل عابثاً صاحب لهو ولعب ، يصرفه لهوه ولعبه عن الرعية ، فإذا سألت رعيته عنه قيل إنه نائم ، وطال ذلك بالأفضل كما طال بالرعية ، فإذا تلك الرعية تسمى الأفضل : الملك النوام .

والملك إذا لَهَا أسلم أمر رعيته إلى غيره ، واستأثر غيره بأمر رعيته ، فإذا الرعية بين ملكين : ملك يحكمهم باسمه .. وملك يحكمهم بفعله ، وبين الاسم والفعل تجرى أمور كثيرة تشقى بها الرعية كثيراً . ولقد شقيت رعية الأفضل هذا الشقاء الكثير على يد هذا الوزير ابن الأثير ، الذى أسلم الأفضل الأمر إليه ، فاستأثر بذلك الأمر كله .

وحين آذى رعيةَ الأفضل لهوه ولعبه ، وآذاها ظلم وزيره ، سعى ساعيهم إلى العزيز يستنهضه للأمر ويسأله العون ، وهو فى ظاهر حاله يريد الخير للرعية ، وفى باطنه يحرك هذا الخلاف القديم ويجد فى ذلك فرصته ، فلو صح أنه كان يريد الخير لعدل عن العزيز وقصد إلى واحد من هؤلاء الذى خفوا لعون الأفضل من عم وإخوة ، ولقد كان منهم من يفيد فى هذا الأمر . ولكن هذا الساعى كان على علم بهذا الخلاف ، وكان على علم بأن هذا الخلاف لاتزال جذوره حية ، وكان على علم بأن خروجه إلى العزيز يُرضى العزيز ، ومانحب أن نزيد فنقول : لعل خروجه إلى العزيز كان عن تدبير العزيز .

وحين استنجد مستنجد من رعية الأفضل بالعزيز تحرك العزيز يلبى ، يجد فى ذلك سبباً ، وحين بلغ هذا الأفضل تحرك يثوب ، يريد أن يقطع على أخيه ذلك السبب ، فاطرح لهوه ولعبه ، وأخذ يعاشر العلماء والصالحين ، وفرغ لنفسه يكتب مصحفاً بخط يده ، إذ كان خطه جميلا . ولكن ذلك كله لم يغن عنه شيئاً ، لو أن العزيز أخاه قعد ولم يُساند المحرضين عليه .

وكما استنجد الأفضل بأهله الأمراء من حوله فى الأولى استنجد بهم فى هذه المرة أيضاً ، ولكن العادل – كما قلت لك – كان قد اشتراه العزيز بإصهاره إليه ليأمن انضمامه إلى أخيه . ولقد صدق العزيز شراؤه ، فإذا عمه الذى كان فى الأولى أول الملبّين دون أن يشترط شرطا .. يبتدع فى الثانية شرطاً ، فيشير على الأفضل أن يبعد عنه وزيره ابن الأثير ، وماكان ابن الأثير جديدا على حياة الأفضل ، وماكانت حياته بالأمس تخالف حياته اليوم ، وكما كان هذا الوزير اليوم كان بالأمس ، بل لعله اليوم كان أحسن حالا منه بالأمس ، بعد هذا الذى بدا من صلاح الأفضل وانتفاعه بحياته . ولكن العادل أراد أن يخلق سبباً .. فجعل من ماضى ابن الأثير لامن حاضره هذا السبب ؛ وحين يجد الأفضل أن عمه يشترط ليرفض .. تعز عليه نفسه

فلا يستجيب لعمه ، يريد أن يبلو ماعنده . فإذا العم يسرع فيكتب إلى العزيز يخبره أنه معه ، وماطلب منه العزيز أن يكون معه . وإنما الذى طلب ذلك منه هو الأفضل ، ثم يمعن هذا العم فى بيع نفسه فيكتب إلى العزيز يستحثه على أن يقدم إلى دمشق ، وما إن يصل هذا إلى العزيز حتى يزيد سرعته سرعة ، وإذا هو على رأس جيش يطوى الأرض طيا .

غير أن الحياة التى يبنيها الطمع الدنىء يهدمها الطمع الدنىء ، فإذا الذى كسبه الطامع .. قد خسره وخسر معه غيره .

فلقد صحا العادل إلى نفسه فإذا هو يخشى العزيز على ملكه . وإذا تحرك هذا الخوف فى نفوس الملوك أنسَوا الحق وذكروا الباطل ، وأنسوا مبادىء الحياة وذكروا مبادئهم ، فإذا هم مدلسون عاسفون .

وهكذا انقلب العادل عدوا للعزيز بعد أن كان صديقاً ، أنسى هذا الإصهار وذكر ملكه ، فإذا هو يحرض جند العزيز عليه ، يغريهم بالمال ويغريهم بالوعود ، وإذا هذا الخلاف الذى بدأ صغيراً بين الأخوين يتسع ليضم إليه العم .

وينتهى العزيز إلى دمشق ليأخذها . ويبيت العزيز على أبواب دمشق ، وحين يصبح ليدخلها لايرى فى الخيام من جنده إلا القليل ، فيطوى خيامه ويعود أدراجه إلى مصر .

هنا ينقلب العادل متوثباً بعد أن كان خاشياً ، ويعود طامعاً بعد أن كان يخاف أن يطمع فيه ، فإذا هو يرى أن يمضى فى إثر العزيز ، ويرى أن ينتزع مصر من يديه ، وإذا هو يعود صديقاً للأفضل لينهضا معاً إلى مصر ، وكأنى به حين فعل ذلك قد خاف الأفضل على ملكه حين يمضى وراء العزيز ، فأحب أن يشركه معه بهذه الحرب ليشغله عن حربه . وماأحب أن يشركه معه فيما بعد هذه الحرب من غنم . فلقد بدأ حُب المُلك

يفسد على هؤلاء الناس حياتهم ، وإذا أفسد الملك على الناس حياتهم لم يحبوا إلا ماهو لهم .

ولقد أحس العزيز ضعفه بعد أن خرج عليه جنده ، فإذا هو ذليل بين يدى العم والأخ ، وإذا هو يكاد يخرج عن مصر راضياً ويتركها لعمه ولأخيه ، يكتب بذلك الى عمه ، ولأمر ما يرق العم لابن أخيه ، فلا يستولى على مصر ، ويخرج بنو أيوب من هذه الورطة مرة ثانية بصلح يلقى فيه الأفضل العزيز فيتعانقان ويبكيان ، ويلقى فيه العم ابن أخيه العزيز فيتعانقان ويبكيان .

وحين ثاب الأفضل إلى رشده واطرح عبثه ولهوه .. ثاب الناس إلى الرضا به واطرحوا بغضه والتمرد عليه ، ولكن الأفضل كان لايزال يحتضن وزيره ابن الأثير الجزرى ، وكان هذا الوزير لايزال يحتضن إهداره للحق وإسفافه فى الظلم . فبقى الناس يحتضنون النقمة عليه والبرم به .

وما إن يفىء الناس إلى اطمئنان حتى يزعجهم هذا الوزير ابن الأثير فإذا هم ساخطون ، وإذا هم ثائرون ، وإذا هم حين يسخطون ويثورون يحركون ذاك الخلاف بين بنى أيوب ، فإذا هم الآخرون ساخطون ثائرون ، وإذا الأفضل المقصود بهذا السخط وتلك الثورة ، لأنه يحمى ذلك الوزير الذى ضاق الناس به ذرعا ، وماضاق به الأفضل ذرعا ، وهو الذى ظلم الناس وظلم الأفضل معه ، ولكن الناس ملكوا أن يضيقوا بالوزير ولم يملك الأفضل أن يضيق به ، لاندرى لذلك سبباً ولايزال علم ذلك مع الأفضل فى قبره ، ومع ابن الأثير الجزرى فى قبره .

بهذا الضيق ثار الناس ، وحين ثار الناس حرّكوا ذلك الخلاف القديم فى نفوس بنى أيوب ، فإذا العادل الذى كان منذ حين قريب يغضى عن سقطات هذا الوزير ، ويغضى عن إيواء ابن اخيه الأفضل لهذا الوزير ، إذا

بالعادل هذا يكتب إلى ابن أخيه : ارفع هذا الأحمق القليل التوفيق السيىء التدبير ، وهو يعنى ابن الأثير .

ولكن الأفضل لهذا السر ، الذى انطوى بانطواء الملك والوزير ، ولم نعلم نحن عنه شيئاً ، لم يلتفت لنصيحة عمه ، أو لأمره .

وهنا نرى العادل يعود ثانية إلى العزيز ابن اخيه يستنهضه إلى السير إلى الشام ، وإذا الأفضل حين يعلم يحار وتكاد حيرته تملى عليه الانصياع لما طلب العم بعد أن وجد الأخ يؤازر عمه عليه ، وحين يستشير الأفضل أولى الرأى من حوله .. يُجمع أولو الرأى على قبول ما طلب العم . ولكن الأفضل يرد على أولى الرأى جميعاً ما أشاروا به ، ويستمع لوزيره ابن الأثير وحده ، ويبقى على عصيانه ويشمر للقتال .

وعلى الرغم مما أخذ الأفضل على قواده من عهود ، فقد خان هؤلاء القواد العهود ، وإذاهم مع العادل والوزير يظهرون للأفضل طاعة ، ويسرون للأفضل عصيانا ، وإذاهم يفتحون الأبواب لجيوش العادل وجيوش العزيز ، وإذا الأفضل مقهور على أمره باكٍ بين يدى العم وبين يدى الأخ ، غير أن بكاءه هذه المرة لم يغنه شيئاً ، فإذا هو مأمور بأن يخرج عن ملكه شبه منفى .

ولكن الأفضل قبل أن يخرج عن ملكه ، وقبل أن يفكر فى نفسه ، فكر فى وزيره ، فإذا هو يخرجه مع الليل فى جملة من الصناديق فيها أموال كثيرة ، يمضى بها ابن الأثير الوزير إلى بلاده ليعيش هانئاً آمناً مستأثراً بأموال الشعب دون الشعب .

وحين يملك العزيز دمشق يتنزعها منه العادل لتكون له ، لا عن حرب ولكن عن حيلة ، فلقد أغرى ابنه عيسى بن العادل ليدخل على العزيز فيقبّل يده ويسأله دمشق ، وإذا العزيز تسخو بدمشق نفسه فيعطيها عيسى ، ويعود إلى مصر وليست له دمشق .

وهكذا أعطى العزيز دمشق بقُبْلة ، وخرج عنها بعد أن أرهق جنده وبعد أن أرهق ماله ، ولا ندرى كم بذل المصريون من أرواح ، وكم بذلوا من مال ، ولكنهم على هذا كانوا راضين ، لأنهم كانون يحبون أن يفسحوا الطريق أمام العزيز ، وينالون به ما نالوا بأبيه ، لم يلتفوا إلى هذا الغرض .حاص بل كانوا دائما مشغولين بالغرض العّام ، فمروا على تلك الأحداث مَرّ الكرام .

وصفَت الأيام للعزيز فى مصر ، يحكم والمصريون يتطلعون إلى عدله الذى أثر عنه فيطمئنون شيئا ، ويتطلعون إلى زهده فى متاع الدنيا فيطمئنون شيئاً ، يريدون أن يمضوا به إلى غاية أبعد من هذا العدل ، وذاك الزهد ، ويريدون منه أن يفرغ للقضية العامة بعد ما شغل نفسه وشغلهم معه بتلك القضايا الخاصة ، التى لم يفيدوا منها شيئاً ، بل لقد خسروا فيها أشياء .

غير أن الأيام ما لبثت ان اختطفت منهم العزيز ، وما عمر غير ثمانية وعشرين عاما ، ظفروا منها به حاكما عليهم نحوا من ست سنين ، قضاها كلها إلا قليلا منها مشغولا بأخيه الأفضل ، ومشغولا بعمه العادل ، وقضوها هم معه مشغولين فيها بالأفضل ، ومشغولين معه بعمه العادل ، حتى إذا ما كاد يفرغ لهم ويفرغون له ترك دنياهم إلى آخرته ، إثر حادثة سعت بالموت إليه ، فلقد خرج إلى الصيد فى الفيوم فركض بفرسه يتبع ظبيا ، وإذا الفرس يكبو ، وإذا قربوس السرج يدخل فى صدره ، وإذا هو يُحمل إلى القاهرة ليموت فيها بعد ذلك بسبعة أيام .

– ١٦ –

ولقد أعقب العزيز عشرة أولاد ، كان أكبرهم ناصر الدين محمد ، وكان عندها ابن عشر سنين .

ويعنينى قبل أن أمضى طويلا أن أصلك بشىء فاتنى أن أصلك به ، شىء يتصل بتلك الأسرة الأيوبية الحاكمة ، لا أريد الأفضل فى دمشق ، ولا العادل فى الجزيرة ، ولا الظاهر بحلب ، ولا من كان بحماة ولا حمص ولا بعلبك ، وإنما أريد العزيز بمصر .

إذ لم يكن مُلْك مصر خالصاً للعزيز فيما يبدو . بل كان يشركه فى حكم مصر قوتان ، أو قل فئتان من الجند ، هما الصلاحية مماليك أبيه ، والأسديه مماليك عمه ، أسد الدين شيركوه ، وكان ولاء الصلاحية فيما يبدو للعزيز ، كما كان ولاء الأسدية لغيره ، مع العادل مرة ، و مع غير العادل أخرى ، يبيعون أنفسهم لأول دافع .

وكان العزيز بين هاتين القوتين لا يملك أمره كله . كان عليه أن يضمن ولاء الصلاحية باقياً ، وما كان ضمان هذا البقاء بالشىء الرخيص ، وكان عليه أن يساوم فى شراء الأسدية ، وما كانت هذه المساومة بالرخيصة . وهو على هذا عاش قلقاً ، يخاف هؤلاء ، ويخاف هؤلاء ، وما نظنه ضمن هؤلاء ولا ضمن هؤلاء .

وما إخالك غاب عنك ما سقته لك قبل مجملا دون أن أفصح حين حدثتك حديث شراء العادل لجنود العزيز فى تلك المحنة التى كانت بين العزيز والأفضل ، وحين استنجد الأفضل بعمه العادل . حدثتك هذا الحديث ولم أذكر لك من هم هؤلاء الجنود الذين اشتراهم العادل ، والذين قبلوا أن يخرجوا على العزيز وهو محاصر دمشق ، وتركوا له خيامهم خاوية ، فلم يملك العزيز غير أن ينفض يده من الحصار ويعود أدراجه إلى مصر . لقد كان هؤلاء الجنود الذين اشتراهم العادل ، والذين خرجوا على العزيز ، هم الأسدية . جند أسد الدين شيركوه عم العزيز .

وهؤلاء الأسدية هم الذين وقفوا بعد ذلك مع العادل يحرضونه على انتزاع مصر من يد العزيز ، لاحبا فى العادل ولاكرها فى العزيز ، فقلوبهم

لم تفتح للعادل ولاأغلقت دون العزيز ، فما يعرف القلب الذى يؤجر أن يحب أو أن يكره ، ومايعرف أن يقدس شيئا غير المال ، لايدين لسواه بولاء .

عرف العزيز هذا فما عن له أن يلتفت إلى مصر يجعل منها جنده يحيا بهم موطنا باقياً ، ويحيون به ملكا باقياً ، ولكنه استأجر من يحكم بهم مصر ، فإذا هؤلاء المستأجرون يحكمونه ويحكمون مصر .

ومانظن العزيز مضى فى شىء دون أن يعرف أين يقع هذا الشىء من رضا هؤلاء الأسدية وهؤلاء الصلاحية ، ومانظنه أبرم شيئاً إلا ضم معه على إبرامه نفراً من هؤلاء الأسدية ونفراً من هؤلاء الصلاحية .

من أجل ذلك نرى العزيز حين أوصى لابنه محمد ، ليكون ملكاً من بعده ، أوصى لكبير الأسدية ليكون إلى جانب ابنه وصيا له يسانده ويرد عنه .

فعل هذا العزيز ، وهو يعلم أن الأسدية عليه لا له ، ولكنه أراد أن يكون ماكراً ، وأن يشترى رضا غير مضمون إلى جانب رضا مضمون .

فاشترى رضا الأسدية بهذا الذى فعل لكبيرهم ليضمنهم إلى جانب الصلاحية الذين تركهم لولائهم المضمون .

ولقد وفّى الصلاحية للعزيز حين مات فأقرّوا ابنه ملكا ، يملى عليهم ولاؤهم ، وماوفّى الأسدية للعزيز حين مات وحين أحبوا أن يستبدلوا بهذا الصغير ، لم يمنعهم من ذلك شىء نالوه لم ينل مثله الصلاحية .

وبدأ الخلاف يدب بين هاتين الفئتين الحاكمتين ، فكتبت الأسدية إلى الأفضل تستدعيه ليحكم مصر عوضاً عن ناصر الدين محمد ، وكتبت الصلاحية إلى أصحابهم فى دمشق يحرضونهم على الأفضل ليعوقوه عن

المجيء ، مخافة أن يشتد ساعد الأسدية بالأفضل فيقضوا على البقية الباقية من قوتهم .

ولكن الأفضل كان أسرع فلم يدركه هؤلاء المعوّقون ، وإذا هو فى طريقه إلى مصر ، ويلقى الأسدية الأفضل ، ويجدون الفرصة مواتية لاسترداد دمشق من يد المعظم بن العادل ، أو قل من يد العادل نفسه ، فيغرون الأفضل ، ويخرج الأفضل فى جند من المصريين ليطرد عنها المعظم ويسترجعها إليه .

وكان العادل عندها مشغولا بحصار ماردين ، لم يبق بينها وبين أن تسلم إلا أيام ، وذلك بعد حصار دام عشرة شهور . وحين انتهى إليه مسير الأفضل إلى دمشق ترك ماردين ليلقى الأفضل .

والخصومة بين بنى أيوب لاتمرّ دون أن تشركهم جميعاً فيها ، فما إن وقع هذا الخلاف بين الأفضل والعادل حتى جر إليه الظاهر صاحب حلب ، فلقد استنجد به الأفضل على عمه العادل فخف يعينه .

وهكذا علمتنا الأحداث بين بنى أيوب شيئاً ، علمتنا أن لاضابط لخلافهم ولاضابط لصلحهم ، سرعان مايختلفون وسرعان مايصطلحون ، وسرعان ماينضم هذا إلى ذاك ، وسرعان مايخرج هذا على ذاك .

ولتعلم أن الأفضل خرج بجند مصر من مصر ليجد الظاهر فى عونه على أبواب دمشق ، ولقد دبر الاثنان معا أن يتركا العادل يدخل دمشق وأن يحاصراه إذا ماوصل .

ولقد تم لهما ماأرادا ، فإذا العادل يحاصَر ، وإذا الحصار يضيق عليه شيئا فشيئا ، وإذا العادل آخر الأمر يرسل إلى الظاهر يقول له : أنا أسلم إليك دمشق على أن تكون أنت السلطان وتكون دمشق لك لاللأفضل .

ويثير هذا العرض الخلاف بين الأخوين الأفضل والظاهر، الأفضل يريدها لنفسه لأنها منحة من أبيه إليه، والظاهر يريدها لنفسه لأن العادل عرضها عليه، وإذا الخلاف بين الأخوين يشتد فيرحلان عن دمشق : الظاهر إلى حلب والأفضل إلى مصر.

ويطمع العادل فى الأفضل فيرسل خلفه جنده ،وإذا هما - العادل والأفضل - آخر الأمر يتفقان على أن يترك الأفضل للعادل مصر ويأخذ عوضها بلاداً أخر، وإذا العادل حاكم على مصر، ولكنه على هذا لم يقطع الخطبة لناصر الدين محمد بن العزيز أول الأمر. وحين جمع إليه الفقهاء يستشيرهم وهو يقول لهم : هل تجوز ولاية الصغير على الكبير ؟ وهو يعنى : هل تجوز ولاية ناصر الدين محمد - وهو صغير - عليه هو - أعنى العادل - وهو كبير. ويقول له الفقهاء : لا. فيقول لهم العادل : فهل يجوز للكبير أن ينوب عن الصغير؟ فيقولون : نعم. عند ذلك يقطع العادل الخطبَة لابن العزيز ويخطب لنفسه ولولده الكامل من بعده.

أرأيت إلى ماوقعت فيه مصر من محنة، ثم أرأيت لهم كيف استقبلوا صلاح الدين ثم كيف استقبلوا حياة من بعده ؟ لقد التفوا حول صلاح الدين يخرجون به من نصر إلى نصر، ثم التفوا حول ابنه العزيز يرخون له ليبلغوا به مبلغ أبيه، حتى إذا مااستقر وتطلعوا إليه لينهض اختطفه الموت، ثم إذا هم بعد موت العزيز يصلونها فِتناً لم يجدوا لهم منها مخرجا، لأنهم كما قلت لك قد ربطوا تاريخهم بتاريخ حكامهم، يقسون على أنفسهم ولايقسون على حكامهم، لأنهم كانوا يؤثرون الصبر، ويؤثرون ألا يقطعوا على التجربة سبيلها لتمضى إلى نهايتها، ولأنهم كانوا فى ظل هذه التجربة الطويلة لم يفكروا فى أن يستأثروا بحقهم، أو قل إنهم كانوا قد غلبوا على هذا الحق فاعتادوا الرضا، واعتادوا التضحية، مأخوذين بالقضية العامة ناسين القضية الخاصة.

وخلا العادل بمصر بعد أن انتزعها من ابن العزيز ، وكأن لم يكن بالأمس بين العادل والعزيز بكاء وعناق ، وكأن لم يكن بينهما ، ودٌّ وتلاق ، وهكذا دل هذا الخلاف بين بنى أيوب - الذى بدأ صغيرا .. فلم يكشف عن جوهره حتى إذا ماالستوى كشف عن جوهره - أن المُلك أعز على النفس مما عداه ، وأن الغدر فى سبيله مشروع لتلكْ الأنفس لاتراه نكرا ، أوهى تراه نكرا ولكن ضعف الأنفس يغريها بإتيانه .

يستوى فى ذلك كله من يملكون الا من عصم ربك ممن كان ذا نفس قوية أمثال صلاح الدين . وما نظن الأسرة الأيوبية نظرت إلى مصر ولانظرت إلى هذا الفتح نظرة صلاح الدين ، فإن المؤرخين يروون أن العادل كان قد صحب أخاه صلاح الدين وعمه أسد الدين فى مجيئهما إلى مصر . ولندع العادل يحدثك بهذا الذى رواه المؤرخون على لسانه ، يقول العادل : لما عزمنا على المسير إلى مصر احتجت إلى جرمدان - كيس من جلد - فطلبته من والدى ، فأعطانى اياه وقال : ياأبا بكر ، إذا ملكتم مصر أعطونى ملئه ذهبا . فلما جاء إلى مصر . قال : ياأبا بكر ، زين الجرمدان ؟ فرحت وملأته له من الدراهم السود وجعلت على أعلاها شيئا من الذهب وأحضرته اليه ، فلما رآه اعتقده ذهبا . فقلبه فظهرت الفضة السوداء . فقال : ياأبا بكر تعلمت زغل المصريين .

أسوق إليك هذا الذى جرى بين العادل وبين أبيه لتعرف معنى الفتح فى نفوس الفاتحين ، وأنه ليس إلا ذهبا وفضة ، يستوى فى ذلك الأقدمون والمحدثون . ومابدأت القضية العربية العامة ذهبا وفضة ، ولكنها بدأت قضية فكر وقضية وجود ، ودخلت مصر فى هذه القضية العامة فكرا ووجودا ، لايقعد بها عن المسير ماأحسته فى الأعوام بعد الأعوام من استحالة الروحية إلى مادية ، وبقيت هى تملى بروحها غير وانية ، وتسخو بمادتها

غير آبهة ، علّها تفيد من لم يفد أن المادة زائلة ، وأن الروح باقية . ولكن سلطان المادة كان أغلب على غيره فكان عبء مصر أكبر .

وحين ملك العادل هذا الملك الواسع جلس بين أولاده يقسّمه ، ينظر إليه إرثا يَعنيه دون الناس ، ولم ينظر إليه ملكا يعنى الناس دونه ، وماذكر هذا الدرس الذى لقنه حين قسم صلاح الذين هذا الإرث بين إخوته وأولاده ، وهو عالم إن ذكره .. أن الخلاف على هذا الإرث بين الأهل لاشك واقع ، قسم بينهم هذا الإرث أو لم يقسم ، فلأن يقسم خير من ألا يقسم .

وعلى هذا أعطى العادل ابنه الكامل محمدا مصر ، كما أعطى المعظم عيسى الشام ، كما أعطى الأشرف موسى البلاد الشرقية .

ثم عاش العادل بعد هذا يتردد حياته بين أولاده ، ينتقل من مملكة إلى أخرى ، فكان يصيف بالشام ، ويشتو بمصر ، ليس له هم إلا نفسه ، يحظى بما يشتهيه ، والوسائل فى يديه ، عاش على ذلك ثمانية عشر عاما . فلقد امتد به العمر حتى بلغ نحوا من سبع وسبعين سنة ، خرج بعدها من دنياه بماله وبما عليه ، ومانظن أن ماله كان كثيرا ، غير ماعرف له من جود كان يعرض له يوم يعرض له المرض ، فلقد كان رحمه الله إذا مرض .. اضطرب فخلع ماعليه فباعه وتصدق به . وإذا صح لم يذكر الانفسه ، فحرص على مافى يديه الحرص كله .

وحين اجتاحت مصر بعد موت العزيز تلك المجاعة المروّعة التى لم يَقْولها كثير من الناس فهلكوا جوعا ، كان العادل يخرج فى الليل ليرعى الجوعى . ولقد حكوا عنه أنه كفن فى تلك الأيام من ماله نحوا من ثلثمائه الف من الغرباء .

فعل هذه العادل كما يفعل مثلها حين يكون الخطب خطبه ، فلقد كانت الشدة تروعه على أية حال ، يراها فى غيره فيخشاها على نفسه فيهلع ، كما لو كانت قد نزلت بساحته ، عندها يجود لايبالى شيئا .

ولقد قلت لك إن الخطبة فى مصر كانت باسم العادل وابنه الكامل بعد أن أهمل اسم محمد بن العزيز . مضى ذلك منذ آلت مصر إلى العادل إلى أن مات ، لم تخل الخطبة من اسمه إلى جانب اسم ابنه الكامل حتى فى تلك الفترة التى قسم فيها العادل مملكته بين أولاده وجعل مصر من نصيب ابنه الكامل .

وحين مات العادل انفرد الكامل بالخطبة وصارت له يدعى باسمه وحده ، واجتمع له ملك مصر لايشاركه فيه أحد .

وإذا تحدث المؤرخون عن الكامل قالوا إنه مصرى المولد ، وإن مولده كان سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وإذا جاوزوا هذا إلى غيره قالوا : إنه كان شجاعاً ذكياً فطنا يحب العلماء والأماثل يجمعهم إليه ، ويلقى عليهم المشكلات ، كما كان محبا للحديث وأهله ، حريصاً على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف . يقولون هذا إذا تحدثوا عنه عالما .. لاملكا ، وإذا تحدثوا عنه ملكا قالوا : وله المواقف المشهودة فى الجهاد فى دمياط ، كافح العدو برا وبحراً وليلاً ونهاراً .

والملك إذ جمع بين العلم والسياسة أعز العلم وأعز السياسة ، والأمم أحوج ما تكون إلى وال يجمع فى يديه إعزاز العلم عن دراية ، وإعزاز السياسة عن خبرة ، فلا يخدع فى هذه ولا يخدع فى تلك ، فإذا خُدع الملك فى العلم أفسد على الناس علمهم ، وهان الناس فى طلبه ، وإذ خدع فى السياسة أفسد على الناس حياتهم ، وأطمع فيهم غيرهم ، وفى كلتيهما مذلة وتخلف .

والملوك حين يشغفون بالعلم يحمَى العلماء لهم ، ويحيطونهم برعايتهم

وولائهم ، لأنهم أحوج ما يكون إلى أن يعز علمهم ، وهل يجدون خيراً من ملك يعز علمهم به . ولكن الملوك حين يشغفون بالسياسة يحقد الساسة عليهم ، ويكيدون لهم ، لأن الساسة أعدى ما يكونون لمن يزحمهم على سياستهم لأنهم فاقدون بدخول الملوك عليهم . على حين يكون العلماء كاسبين بدخول الملوك عليهم .

من أجل ذلك .. لم يجد العادل من يحقد عليه من بين العلماء ، ولكنه وجد من يحقد عليه من بين السياسيين .

فحين استقامت للكامل سياسته خرجت عليه جماعة من الأمراء ، تنتهز شغله بحرب الفرنج الذين كانوا قد أشرفوا على دمياط . وإذا هؤلاء الأمراء ينضمون إلى الفائز أخى الكامل يريدون أن يقهروا أخا بأخ ، ولا يريدون للكامل أن تنجح سياسته .

ولو قدر للكامل أن يذل أمام تدبير هؤلاء ما كان سياسيا ، وما كان جديراً بأن يكتب اسمه فى سجل السياسيين .

وإذ كان الكامل هذا السياسى اللبق أخذ يداور هؤلاء الخارجين عليه حتى لا يشغل نفسه وهو مشغول بحرب الفرنج . وفيما هو يطاول ويداور نزل به أخوه المعظم صاحب دمشق . ورآها الكامل فرصة مواتية ، فألقى على أخيه عبء الخلاص من المشاغبين ليفرغ هو لحرب الفرنج .

ولقد دبر الأخوان شيئاً نجحا به فى القضاء على تلك الفتنة ، فلقد داهى المعظم كبيراً من كبراء الفتنة فخرج به بعيداً ، كما ابعد الفائز عن مصر . حتى لا يجد المشاغبون من ينضمون حوله ، وبهذا وذاك قضى الكامل على تلك الفتنة التى أوشكت أن تطل برأسها فتفسد عليه ملكه وتفسد عليه حربه .

غير أن تلك الفتنة لم تمض سلما كلها ، فلقد عوقت الكامل عن أن

يفرغ للفرنج الفراغ ، كله فإذا هو مهزوم أمام الفرنج أولا ، وإذا الفرنج يستولون على دمياط ، وإذا هم يخرُجون من دمياط قاصدين القاهرة

ولكن الذى فات الكامل أن يدركه فى دمياط .. أدركه فى المنصورة ، وإذا الكامل منتصر ، وإذا الفرنج مهزومون ، ثم هاربون عن القاهرة ، ثم عن غير القاهرة ، وإذا البلاد تخلو لأهلها ويخلو أهلها لها بعد تلك الحروب الشاغلة .

وما إن استقرت بالكامل قدماه فى القاهرة حتى التفت إلى أولئك المتآمرين عليه ، وكان من حديثهم معه هذا الجزء الذى سقناه لك ، فأطلق فيهم يده نفيا وتشريداً .

والتفت المصريون حول الكامل يجدونه رجلهم المنشود ، فإذا هو بهم وإذا هم به يصبحون قوة تبسط نفوذها شرقاً وغرباً ، وإذا فى أيديهم بعد مصر .. الشام ومكة والجزيرة واليمن .

ولكنها للأسف كانت جولات غير مغنية فى ذاك التاريخ العربى الممتد ، يشمر الكامل ومن فى قوة الكامل ليضم إليه تلك البقاع يريد أن يجعل منها دولة مضمومة الشمل موحدة الكلمة ، ويهن بعد الكامل من ليس فى قوة الكامل فتخرج هذه البقاع عن يده ، وإذا هى دول بعد أن كانت قد أوشكت أن تكون دولة .

هكذا جرى هذا التاريخ الطويل ، وما كان جريانه على هذا النحو يسيراً على تلك الأمة العربية ، فلقد كلفها كثيراً وعنَّاها كثيرا ، ولقد أربت حروبها فيما بينها على حروبها فيما بينها وبين عدوها ، بل تكاد صفحتها مع عدوها لا تعدل صفحتها فيما بينها ، وكم من أرواح أزهقت ، ودماء أريقت ، وأموال أبيدت ، ولو اجتمع لها هذا كله الذى ضاع لأقام دنيا تُطاول السماء ، ولكنه ذهب هباء .

وما نظن الكامل بلغ ما بلغ عفواً ، وما نظنه استراح ، وكما قضى راحل أيوبى من قبلُ حياته فى الكر والفر ، هو صلاح الدين ، قضى الكامل حياته فى الكر والفر ، وإذا هذا الضنى يرهق جسمه فيقع مريضاً ليموت ، وإذا هو فى مرضه وقبل موته ينشد :

يـــا خليليّ خبّرانى بصـــدق كيف طعم الكرى فـإنى نسيتـه

– ٢٠ –

وحين مات الكامل بقلعة دمشق كان ابنه الأكبر نجم الدين نائباً لأبيه على مصر .

وجلس أمراء البيت الأيوبى يتشاورون فيمن يُولّون ، ولم يكن الكامل قد أوصى بشىء ، فإذا هم يتفقون على أن يبقى الابن الأكبر حيث هو ، والابن الأصغر حيث هو .

وهكذا أصبح العادل أبو بكر – أو العادل الصغير كما يسميه المؤرخون تمييزاً عن جده – ملكا على مصر فى سنة خمس وثلاثين وستمائة .

وإذا عرفت أن مولد العادل الصغير كان بالمنصورة فى ذى الحجة سنة سبع عشرة وستمائة ، أى حين كان أبوه فى حربه تلك مع الفرنج بدمياط ، إذا عرفت ذلك .. عرفت أن العادل الصغير كان له من السنين يوم أن ولى نحو من ثمانى عشرة سنة .

وما نظن تولية العادل الصغير على مصر مرت يسيرة كما يملى الحديث ، بل لقد كان دون ذلك أشياء يوحى بها ذاك النظام الملكى الشاذ ، وما كان وراثيا بمعناه الأخص فيستريح الناس شيئا ، وإنما كان وراثيا بمعناه الأعم ، فحرك الطمع فى نفوس أصحابه ، وحرك الأغراض فى نفوس المحيطين بأصحابه ، وجر الناس إلى هذه الميادين المفرقة جرا ليكونوا شيعاً وأحزاباً .

ولو كان الأمر عهدا من الكامل لضاق الميدان على المغرضين ، ولم ينفتح أمامهم ومرّ بسلام ، ولكن الأمر شابته نظائر له كثيرة فى تاريخ هذه الدولة ، وتعبت هذه الدولة به وبنظائره ، لأن الأمر لم يرد إلى الحاكم الراحل فيوصى به قبل أن يرحل ، كما لم يرد إلى الشعب فيختار من يحب ، بل تُرك للأهواء تلعب به كيف شاءت ، وللأطماع تحركه كيف أرادت ، وما هو بالأمر الخاص فيمر دون أن يحسه إلا الخواص ، ولكنه أمر عام لا يمر إلا وقد شاركت فيه الأمة كلها تذوق خَيره وشره .

وحين مات الكامل ولم يوص تحرك هؤلاء المغرضون يريدون أن يجعلوا الأمر لداود بن المعظم ، وكانوا يرون أن للملك ثمنا هو المال لا يرون غيره ، من أجل ذلك .. أوحوا إلى داود أن يفرق المال بين مماليك أبيه يستميل قلوبهم ، فإذا ضمن هؤلاء إغراء .. ضمن الشعب قسرا . وكما أراد المغرضون ذوو الأهواء أن يحركوا داود .. أرادوا أن يحركوا ابن عم له ، هو الجواد يونس ، وإذا هم حين حركوا لهذا الأمر هذين الرجلين حركوا بينهما فتنة تنتهى إلى حرب ، يخرج منها الجواد فائزا وداود مهزوما . وكما كتب هذا النصر للجواد أن يخلص من منافسه .. كتب له أن يكون نائبا على دمشق لملك مصر العادل الصغير .

وما كان أمراء البيت الأيوبى حين اجتمعوا ليختاروا قد أرضوا الأخوين وإنما أرضوا أنفسهم ، لأن هواهم كان مع الأصغر وهو بينهم ، ولم يكن مع الأكبر وهو بعيد عنهم .

من أجل ذلك غضب الابن الأكبر نجم الدين حين انتهى إليه ما اتفقوا عليه وخرج بجيشه يقصد دمشق .

ويلتقى نجم الدين بالجواد يرَيان الأمر تجارة والبلاد سلعا والناس عبيدا ، فإذا هما يعدلان عن الحرب إلى المساومة ، وإذا الجواد يعطى نجم الدين عوضا عن دمشق بلدين يقبلهما نجم الدين ويمضى راضيا .

وحين اطمأن الجواد إلى نجم الدين .. بدأ يخاف العادل الصغير ، وخال أنه أخطأ حين أعطى نجم الدين سنجار وآثر عليها دمشق ، والشُّقة بين العادل وسنجار بعيدة ، على حين دمشق منه قريبة .

وعلى هذا قر رأى الجواد على أن يعود فيأخذ الأبعد ويعطى الأقرب ، فكتب إلى نجم الدين يستدعيه . ودخل نجم الدين دمشق ليخرج منها الجواد .

وكان الجواد حين فعل .. أملى عليه خوفه ، والخوف كما يدخل النفوس يخرج منها ، وحين خرج هذا الخوف من نفس الجواد ندم على ما فعل ، وأراد أن يرجع فى هذا الذى فعل ، فإذا بينه وبين نجم الدين شدة ، أراد الجواد أن يكون فيها الغالب فإذا هو فيها المغلوب .

وحين فرغ نجم الدين من الجواد .. أراد أن يفرغ للعادل الصغير ، وأراد أن يغلبه على مصر ، ولكنه أحب قبل أن يفعل أن يستعين بعم له ، هو الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ، فكتب إليه يكاشفه بما أراد .

وخرج هذا العم ، لا يناصر ابن أخيه ولكن لينتزع منه دمشق ، يرى خروجه عنها فرصة لدخوله هو إليها ، وعلى حين كان نجم الدين فى نابلس ينتظر عمه ليمضيا معا إلى مصر ، كان العم قد دخل دمشق يصحبه أيوبى آخر هو صاحب حمص ، وإذا هذان الأيوبيان يقتسمان بينهما الغنائم ، ويقتسمان بينهما البلاد ، ويقتسمان بينهما العباد .

وينتهى هذا الذى لقيه الأخ نجم الدين إلى مصر فيُسرّ به الأخ الأصغر العادل صاحب مصر ، وتسر به معه القاهرة فتمتلىء زينة .

ومن قبل هذا كانت البلاد لا تزدان إلا لقهر عدو أجنبى ، والخلاص منه ، ولكن العداوة حين فقدت الأعداء وجدت الأقرباء ، فلم تعدم ميدانا تستشرى فيه .

غير أن الأخ الأكبر الذى كاد يأفل نجمه بدأ يلمع نجمه . فإذا هو مرة أخرى صاحب جيش ، وإذا هو يجمع إليه نفرا من أهله

وحين يبلغ العادل الصغير ما صار إليه أخوه يجمع إليه هذا العم الذى أخذ دمشق من أخيه ، يخرجان معا لحرب الأخ الأكبر نجم الدين ، يخرج العادل من مصر بجيشه ، ويخرج العم من دمشق بجيشه .

غير أن العادل الصغير الذى أحبه أمراؤه من قبل .. خرج عليه أمراؤه فيما بعد ، فإذا هم يتألبون عليه ، وإذا هم عليه حرب ، وإذا هم يرسلون إلى الأخ الأكبر ليدخل عليهم مصر ، ويدخل الأخ الأكبر فيقبض على أخيه الأصغر صاحب مصر ويحبسه فى القلعة ، ويبقى هذا الملك المخلوع فى الحبس سنين ، وإذا هو بعد هذه السنين يقتل فى محبسه ، يدخل عليه نفر من المماليك فيخنقونه ويعلقونه ، ليموهوا على الناس بأنه خنق نفسه

ولا أدرى لم كانوا يخافون الناس ، ولقد كان الناس يخافونهم ، كما كان الناس بعد هذا الخوف فى شغل عنهم يفكرون فيما آلت إليه الأمور .

وما انتفع الأخ الأكبر بمصر التى غالب أخاه عليها طويلا ، فلقد عاش بعده عشرة أشهر ، عاشها مريضا يشكو علة قاسية ، ولم يعشها ملكا مهنّأ بحياة راضية .

(٢١)

وهكذا أرهق الأيوبيون أنفسهم يحارب بعضهم بعضا . وأرهقوا معهم الناس يحارب بعضهم بعضا ، وإذ الناس قد سئموا الملوك فلم يعودوا يبذلوّن عن رضا ، وإذا هم يحملون على البذل حملا ، وإذا هم قد خمدوا لا ينشطون لشىء من هذا الذى تورط فيه الملوك .

ولكن الملوك لم يخمدوا لأنه ملك وسيادة .. وحين وجدوا الناس

يملكهم السأم ويستحوذ عليهم الفتور التفتوا يستعينون بالمأجورين من الجند المرتزقة

ولقد كان نجم الدين يحس سأم الناس وفتورهم عنه ، ويحس أنه مغلوب على أمره إن لم يقو بجنده وما هو بمستطيع أن يجد جنده من بين هؤلاء الذين سئموه وفتروا عنه ، فالتفت يأجر جند لا يبالى ما منى به السلف من الجند المأجورين . وحين لف حوله نجم الدين المماليك من الأتراك يستعين بهم ، مهد لهم أن يكونوا شيئا ، ومهد لهم أن يكونوا أمراء .

ولقد دخل هؤلاء الأمراء من الأتراك الحياة على المصريين دخول المنتفعين لا دخول النافعين ، لا يعنيهم إلا أن يكسبوا ، ولا يعنيهم أن يخسر الناس ، لا يعنيهم إلا أن يحيوا ، ولا يعنيهم أن يموت الناس ، وما أصدق ذاك الشاعر المصرى حين قال :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ... تُرك بدولته ياشر مجلوب
قد آخذ الله أيوبا بفعلته ... فالناس كلهم فى ضر أيوب

والرجل الذى جن بالملك هذا الجنون وخاف شعبه فاستأجر من يحميه من شعبه جن جنونا آخر أفسد عليه ثقته بشعبه ، فأسرف فى تعذيبه والتنكيل به . وحين بسط يده بالعذاب بسط أيدى هؤلاء الأمراء من الأتراك بالعذاب ، فذاق الشعب من ملكه وأمرائه الأتراك الشىءالكثير .

وهكذا شغل الملك عن شعبه بمطامعه ، وشغل شعبه عنه بالتفكير فى مصيره ، وليس شىء أضر على الأمم من أن تحيا على سبيل .. وملوكها على سبيل ، وأن يراها ملوكها على غير الرضا بهم .

وكما لم تصف الحياة بين بنى أيوب من قبل لم تصف أيام الصالح نجم الدين ، فلقد فسد ما بينه وبين أخيه العادل الصغير ، فاعتقله بعد أن خلعه ليَلى مكانه ، كما فسد ما بينه وبين ابن عمه الناصر داود .

ولقد خرج الأخ العادل الصغير من المعركة وحسبه ولاية عام وبعض عام ، ترك بعدهما ملكه إلى سجنه . ولكن ابن العم الناصر داود لم يخرج من المعركة وبقى فى الميدان يثير القلائل على نجم الدين .

فلقد جمع إليه عمه إسماعيل صاحب دمشق ، والمنصور صاحب حمص ، على أن يكونا معا يدا واحدة على نجم الدين صاحب مصر .

ويثور الشر بينهم حينا ليهدأ حينا ولتعود الحرب صلحا . غير أنه كان صلحا لا يغاير مثله مما مرّ بك ، لا يلبث أن يعقبه خصام ، ولكن على نحو آخر ، فإذا الملوك الذين كانوا مع الناصر داود على صاحب مصر نجم الدين يخرجون على الناصر داود ليكونوا مع صاحب مصر نجم الدين ، وإذا هم يخرجون لحرب العدو الجديد بعد أن صالحوا العدو القديم ، والشعب معهم يشكل محبته وعدواته ، كما يشكلون هم محبتهم وعداوتهم ، ولكنهم كانوا يملكون الأسباب التى بها يشكلون عداوتهم ومحبتهم ، وكان الشعب يجهل تلك الأسباب التى يشكل بها عداوته ومحبته ، وماعليه إلا أن يحب من يحبون ويكره من يكرهرون .

والملوك الذين ناصروا الناصر على صاحب مصر أولا ، ثم ناصروا صاحب مصر على الناصر ثانيا ، عادوا فناصروا الناصر على صاحب مصر ، وإذا هم لا يجدون حرجا فى أن يستعينوا بالفرنج ، وفى أن يسلموا للفرنج القدس وطبرية وعسقلان حتى يأمنوا جانبهم .

ويخرج إليهم صاحب مصر مستعينا بالخوارزمية ، وإذا الجيشان يلتقيان ، صاحب مصر ومن معه من الخوارزمية فى ناحية ، والناصر داود بمن معه من جيوش ابن العم والعم يظاهر الفرنجة فى ناحية .

ويكتب النصر لصاحب مصر بمن معه . وتشهد القاهرة يوما مشهودا تموج زينة وتصخب فرحا .

ثم يخرج صاحب مصر نجم الدين خرجته الثانية ، بعد أن وُفّق فى خرجته الأولى ، يخرج هذه المرة ليخلص من صاحب دمشق وصاحب حمص ، يريد أن يفرغ من تلك الخصومة التى كلفته كثيرا ، يشجعه على ذلك هذا النصر الذى كسبه ، ثم هذا السقوط الذى سقطه خصمه من أهله حين مدّوا أيديهم إلى أجنبى .

غير أن صاحب مصر ما يكاد يهنأ بهذا النصر وذاك حتى يجد الخوارزمية الذين أعانوه قد خالفوه .

فلقد تعود الخوارزمية من صاحب مصر أن يمدوا إليه أيديهم فارغة ليردها عليهم صاحب مصر مملوءة . فما حاربوا مع صاحب مصر دفاعا عن أرض لهم وله ، ولا دفاعا عن حق لهم وله ، ولكنهم حاربوا مع صاحب مصر طمعا فى هذا المال الذى اشتراهم به أولا ، وكانوا كلما حققوا نصرا بأيديهم زاد طمعهم فى هذا المال ، فإذا هم حين بلغ بهم صاحب مصر ما بلغ يطلبون المزيد ، وإذا صاحب مصر لا يقوى على هذا المزيد ، فإذا هم يخرجون عليه ، وإذا هم يؤمّرون عليهم ركن الدين بيبرس ، وكانت أمه خوارزمية كما كانت زوجه خوارزمية ، وإذا هذا الأمير وهؤلاء الجند يكتبون لصاحب بعلبك ليجعلوا منه ملكا يلتفون حوله ، يثيرون الحرب باسمه ويستترون خلفه .

ولو أن صاحب مصر نجم الدين ذكر مصر وهو ملك عليها فاتخذ منها جنده ما وجد من يخرج عليه منهم ، ولوجد حبهم مع حبه وكراهيتهم مع كراهيته ، ولوجدهم لا يطمعون إلا فى أن يزيدوا إلى ملكه ملكا ، وإلى ماله مالا ، ولوجدهم مؤازريه على الخير رادّيه عن الشر ، ولحكم بهم دون أن يلقى عنتا ، ولكن مصر التى أهملت على يد من سبق نجم الدين .. أهملت على يد نجم الدين ، وكما خسر من سبقوا نجم الدين .. خسر أيضا نجم الدين ، خسر المصريون أيضا ، ولكنهم كسبوا إلى تجاربهم تجربة

جديدة ، وضموا إلى تضحياتهم فى سبيل القضية العامة تضحية جديدة ، فزادتهم الأولى خبرة ، وزادتهم الثانيه اعتزازا .

غير أن نجم الدين الذى أنسى مصر فى نشوته .. ذكرها فى محنته ، فإذا هو يجمع المصريين إليه ، وإذا هو بهم يخلص من ركن الدين بيبرس ، وإذا هو بهم يجمع فى يديه مصر والشام .

وتصفو الأمور لصاحب مصر غير أنها ما كادت تصفو حتى كان الموت فى إثر هذا يعجل إليه ، فإذا هو ميت ، وإذا عرش مصر لابنه توران شاه .

غير أن الصالح نجم الدين كان قد ترك لابنه توران شاه مع هذا العرش هؤلاء المماليك الذين جلبهم إلى مصر وآثرهم وجعل منهم كلمة تشارك الملك كلمته ، كما خلف زوجة - إلى جانب هذا العرش وهذا الابن وهؤلاء المماليك - هى شجرة الدر . ولقد مضى نجم الدين عن سيرة لم يرضها كلها الناس ، وحين يغضب الناس على القليل من الملوك ينكرون الكثير ، لأن الناس يحبون الملوك خيرا لا يعرف الشر ، ونفعا لا يعكره ضر .

فحين عرف الناس نجم الدين شديد السطوة لا يرحم ، ثقيل الوطأة ، لا يقيل العثرة ، ولا يقبل معذرة ، ولا يرعى سالف خدمة ، ضجروا به .

وحين علموا عنه قتله لأخيه العادل فى الحبس كرهوه ، فلقد كان نجم الدين حين مرض وخاف الموت وخاف أن يؤول الأمر من بعده إلى أخيه العادل قتله .

من أجل ذلك لم يحزن على نجم الدين غير قليل ، ومر لا يذكر الناس له إلا هذا الذى حدثتك عنه ، على الرغم من أن ابن تغرى يروى فى كتابه « النجوم الزاهرة » يعده من أفضل ملوك بنى أيوب وأجلهم وأحسنهم رأيا وتدبيرا ومهابة وشجاعة وسؤددا بعد صلاح الدين ويقول : ولو لم يكن من تجلده إلا لقاؤه العدو بالمنصورة وهو بتلك الأمراض المزمنة وموته على الجهاد لكفى .

ولقد مدحه شاعره وكاتبه بهاء الدين زهير فأكثر، وحسبك من مديح بهاء الدين له قوله :

ملـــك تحـــدث عن أبيـــه وجـــده نسب لعمرى فى العـــلا لا يلحـــق
سجدت لـه حتى العيـون مهـابـة أو مـــا تراهـــا حين يقبـــل تطرق

ولكنا لا نؤمن كثيرا بشعر الشعراء حين لم يكن يملك الشعراء إيمانا بما يقولون ، ولا نصحا بما يعتقدون . وأين كان البهاء زهير من نجم الدين حين هم ببناء قلعة الجزيرة (قلعة الروضة) ؟ فأخذ أملاك الناس غصبا ، وهدم ما يربى على الثلاثين مسجدا ، وقطع ما يزيد على ألف نخلة ، ولبث ينفق عليها خراج مصر سنين ، فعل هذا كله ليجمع من حوله مماليكه فى مكان أمين ، ومن عجب أن هذا الذى شيده نجم الدين من مال المصريين خربه مماليك نجم الدين بعد عشر سنين .

— ٢٢ —

ولقد هيأت الظروف لتوارن شاه حين اختطف الموت أخاه المغيث فى حياة أبيه سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، ولو أن الأيام امتدت بهذا الأخ إلى ما بعد وفاة الأب لكان لتوران شاه شأن آخر ، ولكان للدولة الأيوبية هى الأخرى شأن آخر .

ولكن أيام هذه الدولة كانت قصة آذنت بتحول بعد وفاة صلاح الدين ، ورزقتها الأقدار هذا الخلاف المتصل بين البنين . لا يخمد أواره ، كلما هدأ شيئا ثار ، وكلما كاد أن ينسى ذكر فعاد قويا . وليس أضر على البيت المالك من أن يحيا فيه خلاف ، وما أشقى الأمم بعد الملوك بهذا الخلاف ، لا سيما أمة تحب الأمن لها ولملوكها ، وتحب السلامّة لقضيتها عامة ، فتشقى به صابرة وهى قادرة على أن تدخل فيه بسيفها فترد أمرها إليها ، ولكنها على هذا أبقت سيفها فى غمده ، أو أنسيت أن لها سيفا فى ذاك الغمد .

ثم آذنت أيام هذه الدولة بغروب حين اختطفت الابن الأكبر وتركت الأمر للابن الأصغر .

وحين مات الصالح نجم الدين بالمنصورة فى ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين وتسعمائة .. كان الفرنج محدقين بعساكر المسلمين . ويرزق الله المسلمين فى تلك المحنة القاسية زوجة لنجم الدين مدبرة هى شجرة الدر .

وتفطن شجرة الدر إلى أن ذيوع وفاة الملك دون أن يكون على العرش من يخلفه .. ذيوع للفزع فى صفوف المحاربين ، والجلَد فى صفوف الفرنج ، وما أخسر المسلمين إن فزعوا ، وما أكسب الفرنج حين يجلدون .

من أجل ذلك أخفت شجرة الدر وفاة زوجها نجم الدين عن الشعب ، وظلت تقضى فى الأمور باسمه ، لا يكاد يعلم الناس أن مليكهم مات .

ولقد كان توران شاه - حين مات أبوه فى حصن كيفا - نائبا عن أبيه ، فأرسلت إليه شجرة الدر ليحضر ، وحين حضر لم تعجز شجرة الدر عن أن تجمع الناس عليه ، وهى التى استطاعت أن تحفظ الملك له .

وما كان لتوران شاه من يزاحمه على هذا الملك ، فلقد مات أخوه الغيث ، وما كانت شجرة الدر تطمع فى هذا الملك لها ، ولو كان ابنها خليل حيا إلى جانبها لآثرته بهذا الملك ، فلقد مات صغيرا ، وكانت هى لا تقوى على هذه لأن ظروفها لم تكن مهيأة ، ورضيت بأن تحفظ هذا الملك لابن زوجها لتحفظه لها ، وهى حين تسدى هذه المكرمة تملك بها قلب توران شاه وتملك بها رقبته ، وحين تملك توران شاه تملك الشعب .

ويكتب الله لهذا الملك الجديد توران شاه - الذى لم يكن أبوه يراه أهلا لذلك ، ولم يكن الناس حول أبيه يرونه أهلا لذلك - يمنا كثيراً ، فإذا هو يهزم الفرنج فى المنصورة هزيمة منكرة ، لم تكن عن تدبير توران شاه وإنما كانت من تدبير السماء .

فلقد فشا المرض فى جيوش الفرنج ، وإذا هم وقد طال المقام بهم ينقطع عنهم الزاد ، وإذا هم يعقدون العزم على النجاة إلى دمياط ، وإذا هم حين أقاموا جسرا يعبرون عليه ينسون أن يهدموا هذا الجسر ويتركوه ليعبر المسلمون عليه ليلا فيمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، وإذا هم حين يلتجئون إلى قرية منية أبى عبد الله يمكنون للمسلمين من أن يحدقوا بهم ، وإذا أسطول المسلمين يظفر بأسطول الفرنج ويغنمه بما عليه ، وإذا الفرنج مقتولون براً وبحراً ، وإذا النصر كله للمسلمين ، وإذا القتلى من الفرنج لا يحصون كثرة ، وإذا الأسرى منهم لا يحصون كثرة ، وإذاللمسلمين يوم من الأيام معدود لم يشهدوا مثله من قبل .

غير أن هذا الملك توران شاه الذى أنس الناس بيمنه ما لبث أن خرج عليه مماليك أبيه ، وخرج عليه الناس مع مماليك أبيه .

فلقد كان جافى الطبع فيما يقولون ، يسىء إلى الفقهاء .. فكرهه الفقهاء ، وكانت قلوب الناس مع قلوب الفقهاء ، فإذا فسدت عليه قلوب الفقهاء فسدت عليه قلوب الناس . ولقد أرخى توران شاه لهذه الكراهية فكان يطيل احتجابه عن الناس ، وكان حين يحتجب يفرغ لمجونه وسكره ، وكان إذا سكر يصف بين يديه الشموع ويقطع رؤوسها بسيفه وهو يقول : هكذا أفعل بالمماليك .

وحين أفسد توران شاه هؤلاء كلهم عليه .. بدأ يفسد زوج أبيه شجرة الدر عليه ، لم يذكر لها ما أسدت إليه . وما ندرى لعله بدأ يحس منها دخولا فى أمره ، وما نظن شجرة الدر كانت بعيدة عن أن تدخل فى أمره ، بل نظنها كانت تعمل لهذا جاهدة ، تمهد للخطوة الثانية بعد أن مهدت للخطوة الأولى .

ولقد ثار مماليك توران شاه بتوران شاه ، وما نظن شجرة الدر كانت بعيدة عن هذه الثورة فلقد ضيق عليها توران شاه كثيراً ، وأراد أن يحصل على ما عندها من مال وجواهر .

ولقد قعد له المماليك وهو على سماطه فضربه واحد منهم بسيفه وأخطأ السيف رقبته وأصاب يده ، وإذا هو يستشيط غضباً ويرغى ويزبد ويهدد ويتوعد ، وإذا المماليك هم المقصودون بهذا الوعيد وهذا التهديد ، عندها لم يحبوا أن تفلت الفرصة من أيديهم ، فيمدوا فى أجله ليأخذ هو آجالهم ، فاجتمعوا عليه ، وكان قد احتمى منهم بأعلى البرج فإذا هم يوقدون النيران حول البرج ليضيقوا عليه ، وإذا هم يرمونه بالنشاب ، وإذا هو حين يهوله ما وقع فيه .. يرمى بنفسه من أعلى البرج وهو يصيح : خذوا ملككم ودعوا لى حياتى . وإذا هو لا يجد منّ يسمع إليه ولا من يمد إليه يداً ، فيلتفت إلى الناس من حوله وهو مفزع فيقول : أليس فيكم رجل يجيرنى ؟ ..

وما كان فيمن حول توران شاه من يستطيع أن يمد إليه يدا ليعينه أو يجيره ، فلقد كانت فتنة ، وكانت ثورة ، والويل لمن يقف فى سبيل الثورة أو تلك الفتنة ، ثم هل كان فيمن اجتمع حول توران شاه إلا ناقم أو موتور ؟

واجتمع هؤلاء الثائرون حول توران شاه ، حين وقع فى أيديهم ، فانهالوا عليه بسيوفهم ، يضربونه فإذا هو مقتول شر قِتْلة .

والناس الذين لم يستطيعوا أن يمدوا إليه يداً ليمنعوه تركوه على ساحل البحر أياما ثلاثة لا يجد من يدفنه ، إلى أن شفع فيه شافع من قبل الخليفة ، فحمل إلى مكان قريب ليدفن فيه .

والمؤرخون الذين يروون حديث مقتل توران شاه ، يروون أن أباه نجم الدين كان قد أرسل نفراً من مماليكه ليقتلوا أخاه العادل الصغير فى سجنه ، فأبوا عليه ذلك إلا أربعة منهم مضوا لما أمرهم به نجم الدين وقتلوا العادل خنقاً .

ويقول هؤلاء المؤرخون إن هؤلاء الأربعة من مماليك نجم الدين الذين

قتلوا العادل بأمر نجم الدين ، هم الذين قتلوا ابنه توران شاه ، وهم حين يقولون هذا يريدون أن يقولوا ، إن الأمر فى الحالين واحد وإن اختلفت صوره ؛ فقد آذنهم نجم الدين فى الأولى وأوحى إليهم فى الثانية ، ولقد دفعهم إلى الأولى ليشجعهم على الثانية .

وما حكم توران شاه غير شهر ، ومضى عن هذا الملك سريعاً ، لم يكلف شجرة الدر عناء كبيراً ، ولم يكلفها تمهيداً طويلا ، ولقد أعطاها بيده لتخلص منه فى وقت قصير ، وليخلو لها عرش مصر فتجلس عليه من بعده ملكة على مصر .

غير أن شجرة الدر لم تقو على الأمر طويلا ، واعتزلت هذا الملك بعد ثلاثة أشهر لِيَلِيَهَ رجل من بنى أيوب .. هو الأشرف .

وما انتفعت شجرة الدر بحياتها ، ولا انتفع الأشرف بحياته ، وإذا الأيوبيون يخرجون عن دولتهم تلك التى عمرت نحوا من ثمانين عاما ، تزيد عليها قليلا ، ليخلفهم على عرش مصر غيرهم . ولتقوم مكانهم دولة أخرى ، وإذا مصر تستقبل تجربة جديدة ، أحب أن أحدثك حديثها فى كتاب آخر . كما أحب أن أحدثك حديث شجرة الدر فى كتاب مستقل .

الحقبة السابعة

عهد الأمراء الأتراك

بسم الله الرحمن الرحيم

- ١ -

لقد حدثتك فى كتابى « الدولة الأيوبية » عن صفحة من تاريخ مصر العام ، أعنى تلك الصفحة التى كانت لمصر من صفحات التاريخ العربى الجامع ، فلقد حدثتك فى ذاك الكتاب وغيره من كتب أخرى سبقته ، عن صفحات قبل هذه الصفحة كانت لمصر حرصت على أن تكتبها فى هذا التاريخ العربى الجامع ، لا تنظر لنفسها حين تكتب ، وإنما تنظر إلى هذا التاريخ العربى الجامع ، لأنها كانت تؤمن أن تاريخها الخاص لم يعد لها ، بل قد غدا جزءا من ذلك التاريخ العام ، وأنها إن نظرت لنفسها قطعت على هذا التاريخ العام دورته ، وكانت تؤمن أن كسبها ، جزء مستقبل ، لا يعدل كسبها جزءا من دولة كبيرة ، وكانت تؤمن أن فى قيام دولة موحدة تجمع الأبناء الموصولين بأسباب كثيرة خيرا من أن يعيش هؤلاء الأبناء فرادى ، لا يساند بعضهم بعضا ، وكانت تؤمن أن ثمة عدوا أو أعداء يريدون أن ينالوا من هذه الدولة الموحدة حين قامت ، وما أذل هؤلاء الأبناء على أولئك الأعداء إن ألفوهم على فرقة وانقسام .

حدثتك بهذا كله فى تلك الكتب التى سبقت هذا الكتاب ، جاعلا كل كتاب لحقبة متميزة ، ولقد تميزت تلك الحقب تميزا واضحا ، فاستقامت للتاريخ دويلات ، واستقامت للكاتب موضوعات ، كما استقامت للقارىء عظات .

وما من شك فى أن اختلاف تلك الصور هو الذى مد فى حبل هذا التاريخ ، وأرخى للمصريين كلما يئسوا أمنوا ، فيستدبرون ما خاب ظنهم فيه ليستقبلوا ما تعلق رجاؤهم به ، يخرجون من تجربة إلى تجربة ، يدفعهم اليأس من الأولى إلى الأمل فى الثانية .

ولو أن التاريخ مرّ بين أيديهم صورة واحدة لقطع امتدادهم بيديه ، ولم يرزق المصريين أملا بعد يأس ، ولكان لهم منه تجربة واحدة على صورة واحدة ، إن انتهوا الى آخرها ذكروا أولها ، واجتمع لهم فيما بين الأول والآخر رأى لا يعقبه أمل ولا يرده رجاء .

ولكن التاريخ مضى صورا ، فمضى معه المصريون يقوّى الأمل رأيهم ويرد الرجاء عزمهم ، وكان من وراء هذا الأمل وذاك الرجاء قلب كبير فيه خير كثير ، كلما خبا الأمل أذكاه ، وكلما فتر الرجاء قواه ، فلم تهن مصر مع تلك التجارب المختلفة ، على الرغم من أنها كادت تشبه اللاحقة منها السابقة ، فصمدت لهذا التاريخ كلما لاحت لها تجربة جديدة جهدت فى أن تصورها صورة جديدة ، ترخى للأمل وتمد للرجاء ، والأيام تقطع عليها هذا الأمل وذاك الرجاء .

فكما استقبلت عهد الولاة شيعت عهد الولاة ، وكما استقبلت عهد الفاطميين شيعت عهد الفاطميين ، وكما استقبلت عهد الإخشيديين شيعت عهد الإخشيديين ، وكما استقبلت عهد الأيوبيين شيعت عهد الأيوبيين .

أعنى أنها استقبلت هذه العهود كلها راجية فيها ، وشيعتها راجية فى غيرها ، وبهذا الرجاء وذاك فتحت مصر قلبها لهذا التاريخ العام تذكر خيره وتنسى شره حتى يصلها الخير به ، ولا يقطعها الشر عنه .

ولقد بدأت الدولة الأيوبية قوية كما يبدأ كل قوى ، وانتهت ضعيفة كما ينتهى كل ضعيف ، وليس الضعف يلحق الدول ضريبة الحياة على الدول كما هو ضريبتها على الأفراد ، فإلى هذا الضعف ثم إلى الموت تسلم الحياة الفرد ، وإلى هذا الضعف ثم إلى ذاك الموت تسلم الدول نفسها ، وذلك حين لا تملك الرأى فيما بينها ثم حين تفقده فيما حولها ، فتجر عليها بالأول خلافا يثير شقاقا يأكل فيه الإخوة بعضهم بعضا ، وتجر عليها بالثانى عداء يثير نزاعا تكون هى فيه المأكولة .

وما أنا على أن أعيد عليك حديث الدولة الأيوبية ، ولكنى واقف معك وقفة قصيرة عند نهايتها ، لأجعل من هذا الانتهاء هناك بدئى هنا ، فلقد أملى ذاك الانتهاء هذا البدء ، وإذا تحن حين نستدبر الأيوبيين نستقبل غرس أيديهم الذى غرسوا يثمر دولة ، أو قل يثمر عهدا ، إذ أن هذا الغرس لم يبلغ أن ينشىء دولة ، ولم يجد من بين رجاله رجلا يعدل من سبقوا ، فيجمع الأمر فى يديه جميعا لا يفلته ، ليجعله فى أبنائه من بعده ، فيحيل الحكم دولة لا تخرج من بيته ، وما نحب أن نعجل فى الرأى فنقضى من قبل أن نصور العهد بما فيه وما حمل .

☆ ☆ ☆

فحين نزلت شجرة الدر عن ملك مصر للمعز عز الدين أيبك ختمت عهد دولة هى الدولة الأيوبية ، ليبدأ عهد أفراد .

ولقد فعلت ذلك شجرة الدر بعد ثمانين يوما من ولايتها على مصر ، وما نظنها فعلت ذلك زهدا فى الولاية أو برما بها ، بل أكبر الظن أنها فعلته مكرهة ، فما سبقتها على هذا الكرسى امرأة ، والناس على ما ألفوا ، وخروجهم على المألوف فى مثل هذه الحال يزعج نفوسهم كثيرا ، وما نظن هذا الإزعاج مرّ دون أن يزعج نفس شجرة الدر كثيرا أيضا .

وخير ما يصور لك هذا الإزعاج فى نفوس الناس ، وفى نفس شجرة الدر ، كلمة المستعصم بالله الخليفة التى بعث بها من بغداد الى مصر حين وليت شجرة الدر حيث يقول : إن كانت الرجال عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسيّر إليكم رجلا .

فهذا التبكيت ما نظنه مضى سليما ، لم يثر أذى ولم يثر قلقا ، وما نظن الناس اطمأنوا له فلم يقولوا شيئا ، وما نظن شجرة الدر اطمأنت له فلم تقل شيئا ، ولقد كان هم الناس غيرَ همّ شجرة الدر ، فلقد كانوا مغلوبين على أمرهم ، يلى أمورهم من لا يرضون من الرجال ، فما عليهم أن ينضاف الى غير المرضى عنهم امرأة ، لتزيد فى سخريتهم بالقدر ، ولتهيئهم لشىء جديد .

وكان همّ شجرة الدر غيرَ همّ الناس ، فما قرأته للخليفة سمعت أقذع منه من الناس ، وما نظن ذلك لم يقع ، وما كان كتاب الخليفة إلا صدى غير مفحش لما يقوله الناس فى إفحاش .

من أجل ذلك تزوجت شجرة الدر بأيبك ، ما نظن هذا الزواج كان لغير هذا ، فلقد أرادت شجرة الدر أن تخلص بهذا الزواج من كثير من العناء ، منه هذا الكتاب الذى بعث به المستعصم بالله الخليفة ، ومنه خروج أمراء دمشق عليها ومظاهرتهم لصاحب حلب الناصر أيوب ، ومنه ما كان سرا ، ولكنه كان أكثر إيذاء من هذا الجهر ، وهو تندر العامة بها ، وإرسالهم الألسنة فيها ، وما نظن الذى شاع من ذلك كان غير قليل ، وما نظن الذى بلغها منه كان غير قليل أيضا .

وحين وقعت شجرة الدر على رجل خالته فى يديها ، دّبرت لأمرها ، ورأت أنها كاسبة كسبين .. زوجا ، وملكا ، ولقد تم لها الأول حين ارتضت أيبك لهذا الزواج ، وتم لها الثانى حين خبرت أيبك فوجدته ضعيفا ، ومانظنها اختارته إلا لضعفه وهوان شأنه .

ولو أن أيبك اتصف بغير هذه الخلة ، فكان قويا وكان عزيزا ، مااختارته شجرة الدر ، ولآثرت أن تبقى ملكة تسمع ولاتتنزل عن جاه الحكم وأبهة السلطان .

- ٣ -

وأحب لك أن تعرف أيبك لتعرف إيثار شجرة الدر له واختيارها إياه زوجا تحكم به وتتقى به مقالة الناس .

فلقد كان أيبك مملوكا من مماليك الصالح نجم الدين أيوب ، اشتراه نجم الدين فى حياة أبيه الملك الكامل محمد .

ومضى أيبك يخطو فى ظل مولاه ، يعهد إليه بشيء بعد شيء ، وكانت الأمانة صفة لازمة لهؤلاء الموالى ، هى وسيلتهم إلى أن يخطو ، وبهذه الأمانة حظى أيبك فجعله « جاشنكيره » أى من يتذوق له الطعام والشراب من قبل أن يذوق هو هذا الطعام وذاك الشراب ، مخافة أن يكون فى الطعام أو الشراب سم دسه من يريد بالأمير سوءا .

والطريف أنه حين عهد إليه بهذا جعل له شعارا يتميز به ، وكان هذا الشعار صورة لمائدة صغيرة يضعها فى مقدم عمامته ليعرف أنه المشرف على مائدة الملك .

والمؤرخون الذين يقصون حياة أيبك لا يقصون له غير هذه من الوظائف التى تولاها ، ولكنه على هذا كان يستمتع بلقب أمير ، وهكذا شاء السادة أن يسرفوا على مواليهم ، وهكذا تأمَّر الموالى حيث لا إمرة .

غير أن إمرة أيبك لم تكن تعدل غيرها من الإمرات الأخرى ، فظل أيبك من أوساط الأمراء لامن أعيانهم ، ولكنه على هذا كان تقيا ، عرفه الناس مصليا ، وعرفه الناس لايقرف بشراب ، وكان مع تقواه ليِّن الجانب سهل العريكة ، حليما ، واسع الصدر .

ولعل المؤرخين حين وصفوه بهذا أحبوا أن يقولوا : أنه كان لايرقى إلى عنف ولايرقى إلى شر ، وأنه كان مأمونا لايخاف منه طموح ، مستسلما حيث توجهه يأتى بخير .

ولعل شجرة الدر عرفت هذا الذى أحب المؤرخون أن يقولوه فى أيبك ، من أجل ذلك فكرت فيه حين فكرت أن تترك الملك ، فلقد كان عسيرا عليها أن تبقى فيه ، ولقد يسّر لها أيبك أن تجمع بين هذا العسير فاحتفظت بما يعز عليها أن تتركه ، وخلصت مما كان عسيرا عليها أن تحمله ، فإذا هى ملكة .. رضى بما تطمع فيه ، وإذا هى غير ملكة رضى مايطمع فيه الناس .

ولقد تزوجت شجرة الدر بأيبك لتحكم باسمه ، فهى على هذا لم تترك الملك الذى تحكم به ، وانما تركت كرسى الملك الذى كانت تجلس فيه ، وهى بهذا قد جنبت نفسها هذا العسير الذى يشق عليها لتبقى مع اليسير الذى يخف عليها .

وحين نظرت شجرة الدر لأيبك ، كان الأمراء الطامعون فى الملك ينظرون إليه ، ولقد ارتضوه حين ارتضته شجرة الدر ، لأنهم رأوه كما رأته شجرة الدر من أوسط الأمراء لاشوكة له ، ومتى أرادوا صرفه صرفوه .

غير أن شجرة الدر كانت هى الكاسبة وكان الأمراء هم الخاسرون ، فلقد ظن الأمراء أنهم نحّوا شجرة الدر ليجلسوا أيبك ، حتى إذا ماسئموا منه خلعوه ، فإذا هم قد مكنوا لشجرة الدر بأيبك ، وفرّغوها لأن تدبر لأمرها غير مشغولة بمقالة الناس فيها .

غير أن شجرة الدر قد فاتها أن الملك إن فقد ظاهره .. فقد باطنه . وأن هذا الظاهر هو الذى يحمى هذا الباطن ، وإذا جرؤ الناس على ظاهر الملك جرءوا على باطنه ، وإذا سلبوا الملك ظاهره شجعوا على أن يسلبوه باطنه .

من أجل ذلك .. ثارت المماليك بأيبك بعد أيام خمسة ، لايريدون أيبك بثورتهم وإنما يريدون شجرة الدر ، فهم كانوا يعرفون أن أيبك صورة لسيدته وصوت لها ، وكانوا يعلمون أن الملك فى يدى شجرة الدر تحرك بهما يدى أيبك ، وكما أرادت شجرت الدر من أيبك أرادوا هم من أيبك ، وكما أرادت شجرة الدر أن تحكم باسم أيبك أرادوا هم أن يحكموا باسم أيبك .

وكان بعيدا عليهم أن يبلغوا مايريدون من أيبك إلا إذا بلغوا مايريدون من شجرة الدر ، ولقد شجعتهم شجرة الدر على أن يتقدموا خطوة بعد أن رجعت هى خطوة ، فلقد كانت خطوتها التى رجعتها نزولها عن الملك ، وكانت خطوتهم التى خطوها مطالبتهم بأن يكون الملك لأيوبى ، وهكذا تزحزحت شجرة الدر كثيرا حين أقاموا صبيا من بنى أيوب لايبلغ عمر عشره سنين ، ملكا عليهم ،

وكما أرادت شجرة الدر من أيبك ، أرادوا هم من هذا الصبى ، وكما أرادت شجرة الدر أن تأكل الدنيا باسم أيبك ، أرادوا هم أن يأكلوا الدنيا باسم هذا الصبى ، وكان لهم ما أرادوا ، فإن هم يحضرون الصبى من حجور عماته ليجلسوه على عرش مصر ، وليحكموا مصر باسمه ، وأيبك سامع مطيع لايقول شيئا ، كما لم تقل لشجرة الدر شيئا ، تجرى الأمور باسم هذا الملك الصغير الذى لقبوه بالأشرف ، وأيبك إلى جانبه يحميه كما حمى شجرة الدر .

– ٤ –

وتثير هذه الأطماع فى الداخل أطماعا من الخارج ، وإذا ملك مصر حين هان على هؤلاء الطامعين فيه من أمراء الأتراك يهون على الطامعين فيه من بقية من ملوك الأيوبيين ، وإذا الناصر الأيوبى صاحب حلب يخرج يريد مصر ، ولقد كاد أن يبلغ ماأراد ، وكاد أن يزحزح عن هذا العرش

رجلين ، أو رجلا وصبيا ، هما أيبك والأشرف ، لولا أن المقادير التى أعطت صاحب حلب أولا .. أعطت أيبك والأشرف ثانيا ، فإذا هما تعود لهما الكرة ، وإذا صاحب حلب مهزوم ثانيا بعد ماانتصر أولا ، وكان يوم مشهود أبلى فيه المصريون بلاء كبيرا ، ماكان أغناهم عن مثله لو أن الأمور كانت تجرى فى طريقها .

وحين جرب أيبك الحرب وجرب النصر بدأ يحس الملك فى يديه ، وبدأ لينه يتحول شدة ، وضعفه يتحول قوة ، وأخذ ينظر إلى هذا الصغير الذى أدخل عليه وكاد يستأثر بظاهر كل شيىء ، والملك كما قلت لك ظاهره أحلى من باطنه ، ولاخير فى باطنه إن لم ينضم إليه ظاهره .

يقول المؤرخون هذا ، ويقولون إن أيبك أخرجه هذا النصر عن طوره وجعله يشب عن الطوق ، وإنى حين أذكر مايقوله المؤرخون .. أذكر أن شجرة الدر لم تكن قد غادرت الدنيا ، ولم تكن قد أبعدت عن هذا الملك المضطرب ، بل كانت قريبة منه .

وإنى حين أذكر هذا أكاد أخفف عن أيبك شيئا ، وأكاد لاأرفعه إلى ماقال عنه المؤرخون ، وأكاد أن أضعه حيث وضعته أولا يوم أن اختارته شجرة الدر زوجا وملكا . ويوم أن أقر الأمراء فى مصر أن يكون لأيبك الملك مع شجرة الدر ، ويوم أن أقر هؤلاء الأمراء أنفسهم أن يكون له الملك مع الأشرف الأيوبى ، وماأظن هذا النصر أخرج أيبك عن لينه ، ولاجره إلى قوة وعنف ، بل ماأظنه هو أن شجرة الدر حركته لهذا العنف وحركته إلى هذه القوة ، بعد أن هيأه هذا النصر للاستماع ، وبعد أن ملأه هذا النصر إعزازا ، ملك به أن يثور بالملك الصغير ، ويخلعه ، وينزله من قلعة الجبل إلى حيث كان أولا فى حجور عماته .

ولكنا على هذا لانحب أن نظلم أيبك الظلم كله ، فاليد التى تحرك مدفوعة لاتلبث أن تكون هى لها حركة ، والعقل الذى يملى عليه لايلبث أن يكون له هو إملاء

ولقد كاد أبيك أن يستوى على قدميه شيئا بعد خلعه الأشرف ، وكاد أن يملك من أمره شيئا ، غير أنه وجد أنه عاجز عن أن ينفس عن نفسه مَلِكا ، فأحب أن ينفس عن نفسه رجلا ، فلقد كان لابد للرجل أن يفعل شيئا بعد أن استوى على قدميه وبعد أن ملك بعض أمره .

من أجل هذا .. فكر أيبك فى أن يتزوج أخرى على شجرة الدر ، يهون عليه حين فكر فى ذلك أن شجرة الدر يعنيها الملك قبل أن يعنيها الزواج ، ولقد كان أيبك على شيىء من الحق ، فلقد جرب ذلك عن شجرة الدر ، جربه معها حين اختارته ، فلقد اختارته تبغيه دريئة تحفظ بها ملكا ، يحفظ عليها جاهها ، لازوجا يحفظ عليها بيتها ، على هذا دخل أيبك حياة شجرة الدر ، وعلى هذا عاش أيبك مع شجرة الدر ، أنساه هذا الدخول ، وأنسته هذه العشرة أن شجرة الدر تفكر فيه زوجا وتغار عليه زوجا .

من أجل ذلك فكر أيبك فى أن يتزوج ، وفكر فى أن يصهر الى صاحب الموصل يخطب عليه ابنته .

ولقد أنسى أيبك أسبابا أخرى إلى جانب تلك الأسباب التى ذكرها فى اختيار شجرة الدر له ، فلقد أنسى أيبك أن المالك حين يملك شيئا لعرض يلوح له فيه يراه له بأعراضه التى لم تلح له ، وأنسى أنه بزواجه من أخرى غير شجرة الدر فيه خروج من ظل شجرة الدر إلى ظل أخرى ، وفى هذا مايفقد شجرة الدر إحساسها بأنها مالكة له ، ولقد أنسى أيبك بعد هذا وذاك أن شجرة الدر عسير عليها أن تبيع ماتملك لأخرى قد تسيىء إليها به ، ومانحب أن نقول إنه قد أنسى بعد هذا كله أنها آخر الأمر زوجة تغار على زوجها على أية صورة كان هذا الزواج .

وحين رأت شجرة الدر هذا العزم من أيبك على الزواج ، عزمت هى على شيىء آخر ، لقد عزمت على مايهون على الملوك ويعز على العامة ،

عزمت على مايفعله الملوك باسم الحق فلا قصاص عليهم ، وإن فعلت العامة مثله ضوعف لهم القصاص .

فلقد عزمت شجرة الدر على أن تقتل أيبك ، ودبرت لذلك نفرا من الخدم قتلوه فى الحمام خنقا ، وهو يغتسل .

ويزيد المؤرخون فيقولون : إنها شاركت فى قتله ، ولم تجد غير القبقاب تضربه به لتشفى نفسها .

وإن دلك ذلك على شيىء .. دلك على أن شجرة الدر كانت حاقدة على أيبك هذا الزواج ، وكانت ناقمة عليه طموحه فى أن يتحلل من أسرها ، وكانت ملكة يضيرها كل الضير أن يخرج شيىء من يديها ، ثم كانت زوجة يضيرها أن يخرج عليها زوجها ، على أية صورة كان هذا الزوج .

من أجل ذلك كان هذا التنكيل بأيبك ، لايدلك على كراهية من شجرة الدر له ، ولكن يدلك على هذا الحرص وتلك الغيرة ، وماأشنعهما من صفتين ، يكاد المرء ينسى معهما كل رحمة وكل سبب واصل ، وإذا هو مجرد من كل رحمة ومن كل سبب واصل .

— ٥ —

كان أيبك أول سلطان من سلاطين الترك يجلس على عرش مصر ، وكان عهده أول عهد لهذا اللون الجديد من الحكم .

ولقد حدثتك عنه شيئا ، ولكنى لم أفض بالحديث إلى آخره ليكمل لك علمك عن هذا الحاكم الذى يجب أن نصلك به وبمن بعده ، لتستوى لك الصورة كاملة

وأحب أن أصور لك حياة الدولة العربية مع حياة أيبك ، فما كانت

حياة أيبك إلا جزءا من تلك الحياة ، تتفق فى قليل أو كثير مع حياة من سبقوه من الحاكمين الذين حكموا مصر .

فثمة خليفة للمسلمين باق ، حى كميت ، يرجع إليه ولايرجع إليه ، وثمة ولاة هنا وهناك قد استأثروا بما فى أيديهم ، كما استأثر أيبك ، ليس عليهم لهذا الخليفة من شيىء إلا أن يذكروا اسمه ، ولو قد أهملوه ماأحس ، إذ لم تعد الخلافة ذات خطر ، وكما كانت الأطماع تثور بين هؤلاء وبين هؤلاء قبل أيبك .. ظلت تثور بينهم مع حياة أيبك وإلى مابعد حياة أيبك ، ولكنها كانت تقوى شيئا وتفتر شيئا ، لأن هؤلاء الولاة كادوا أن ينسوا الدولة العامة أولا ، ولم تقم بينهم صلات كصلات أمس الذاهب .. فقبعوا حيث هم قبوع الخامد الهامد ، إن تحرك لإثارة لايتحرك لأخرى .

وكان خليفة ذاك الأوان المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله العباس وكان لا يزال ممسكا ببغداد ، ولاتزال بغداد ممسكة به ، لا يخرج عنها ولاتدعه هى يفلت منها ، وحسبه هذا العلم القليل عن تلك البلاد التى تدين له .

وكانت تلك البلاد العربية التى تدين لهذا الخليفة اسما .. مصر ، وعليها المعز أيبك التركمانى ، والشام إلى الفرات وعليها الناصر الأيوبى ، خلا حماة وحمص وبلاد أخرى كان لها ملوكها ، فكان صحاب حماة أيوبيا ، وكان صاحب الكرك أيوبيا ، وكان صاحب تدمر أيوبيا ، ثم الموصل وماإليه .. وعليه بدر الدين لؤلؤ الأتابكى ، ثم إربل وأعمالها .. وعليها تاج الدين العلوى ، وكذلك كان للمدينة صاحب ولمكة صاحب ولليمن صاحب ، ولما وراء النهر وخوارزم صاحب ، قد استقلوا جميعا بما فى أيديهم ، وعاشت تلك الدول العربية حياة أشبه بحياة القبائل تجمعها اسم .. وتفصل بينها شئون الحياة .

ولقد افتتحت مصر عهدها مع أيبك سنة ثمان وأربعين وستمائة من الهجرة ، ففى المحرم من تلك السنة حكم توران شاه ، وفى صفر والربيعين

من تلك السنة حكمت شجرة الدر ، ومن بعد ذلك .. آل الحكم الى أيبك يشركه الملك الأيوبى الصغير مدة يسيرة ، ثم تفرّد به أيبك دون هذا الملك الصغير كما مر بك .

ومضى أيبك يحكم ، ومن ورائه شجرة الدر ، أعواما سبعة ، حتى كان معه ماكان مما حدثتك به ، فإذا هو مقتول وإذا على عرش مصر ابنه .

ولكنى قبل أن أدخل فى حديث الابن أحب أن أختم حديث الأب ، فلقد مرت هذه الأعوام السبعة كما تمر الأعوام التى تكمل حياة المعمّرين ، محسوبة من أجل صاحبها ، وليست محسوبة من حياته الحية ، لم تشهد فيها مصر غير عسف للمماليك حينا ، وظلم يصيب الناس فى أرزاقهم حينا آخر ، ثم تلك الثورة التى ثارها المماليك على أيبك ، يريدون أن يخلعوه ، وخروج أيبك لهم والإيقاع بهم ، ومامرت هذه الثورات دون أن ترهق الأهلين الآمنين ودون أن تزيد من عنائهم .

على هذه الحال قضى أيبك حاكما سبع سنين ، وحين فكر فى أن يتخذ زوجة أخرى إلى جانب شجرة الدر قتلته شجرة الدر ، لتشفى نفسها من داءين اثنين : داء الغيرة .. زوجة ، وداء الأثرة .. ملكة .

ولكن أيبك على تلك الحياة الفارغة لم يعدم من يرثيه من الشعراء فيغلى ، فنقرأ للوراق سراج الدين يقول فيه :

نقيم عليه مأتما بعد مأتم ونسفح دمعا دون سفح المقطم
ولو أننا نبكى على قدر فقده لدمنا عليه نتبع الدمع بالدم
وسل طرفى ينبيك عنى أننى دعوت الكرى من بعده بالمحرم

ويمضى الوراق بعد هذا يقول فى المنصور بن أيبك ، وهو الذى ولِىَ الملك بعد أبيه أيبك :

بنى الله بالمنصور ماهدم الردى وإن بناء الله غير مهدم

وماندرى ماالذى أغرى الوراق بهذا الغلو فى القول ، ولانحب أن نقول ماالذى أغراه بأن يقول مغرى أو غير مغرى ، أو وفاء لغنم ناله من أيبك .. أم طمعا فى غنم يرجوه من ابنه ، أكبر الظن أن الوراق نال وأحب أن ينال فقال يرثى ويمدح قدر مانال وعلى قدر مايطمع ، وكنا نحب للشعر أن يعف فيصان القول المحكى المحفوظ من الابتذال ، وكنا نحب للشاعر أن يعف فيصان اللسان المسموع من أن يرخص ويهون ، ولكنا آمنون أن الشعر لايؤثر إلا خالصة من الهوان ، وأن الشاعر لايُذكر إلا إذا عز على الامتهان .

وقد نحسن الظن بالوراق فنقول : إن هذا الذى صدر عنه كان تنفيسا عن ذلك الأمس الدفين الذى ملأ النفوس ، فما من شك فى أن الناس كانوا ضيقين بشجرة الدر ، ومامن شك فى أن الناس ازدادوا ضيقا بشجرة الدر حين رأوا مقتل أيبك ، وما من شك فى أن الناس أرادوا بمدح أيبك ذم شجرة الدر ، وكان الوراق صدى لهذا كله الذى تجيش به الأنفس .

والمؤرخون يروون أن الناس ضجوا وصخبوا حين علموا بمقتل أيبك ، وكان على رأس هؤلاء الضجرين الصاخبين مماليك المعز أيبك ، ولقد ثار هؤلاء وهؤلاء على شجرة الدر ، وخرجوا يريدون أن يثأروا لأيبك ، ولولا شفاعة من شفع .. ودفاع من دافع .. للقيت شجرة الدر حتفها على أيدى هؤلاء الثائرين .

ولكنها على هذا أخرجت من قصرها لتحبس فى القلعة ، وحين أخرجت من القصر .. أخرجت من دنياها المترفة ، فلم يعد من حولها خدم ولاحشم .

وماترك الثائرون القتلة الذين استأجرتهم شجرة الدر ، وحين وقعوا عليهم .. قُتِلوا وصُلِبوا ، وشجرة الدر تسمع وترى ، وهى حين تسمع وترى .. كانت تحس الموت يقترب منها رويدا رويدا ، لأنها فى هذا الذى سمعت

وذاك الذى رأت تبينت مالها فى قلوب الناس فلم تجد من بينهم قلبا على حبها والرضا بها .

وعلى حين غرة من الموالين لها اقتحم الموتورون محبسها فقتلوها ، وحملوا جثتها فرموا بها خارج القلعة بعد أن جردوها مما عليها .

نقص عليك هذا لنعطى الوراق عذره فى غلوه حين رثى أيبك ، ولنقول عنه ، إن كنا نؤمن بهذا ، أن الوراق كان كما قلت لك : ينفس عن نفس أضجرها الألم من شجرة الدر ، فجعل من رثائه لأيبك هذا التنفيس يغلو فيه ، يرفع أيبك فى ظاهر أمره ، وهو ينال من شجرة الدر فى باطن أمره .

ولعل هذا الذى مضى به أيبك .. هو الذى مهد لابنه المنصور على أن يلى من بعده عرش مصر .

فلقد كان المنصور عندها فتى فى الخامسة عشرة من عمره ، وما كان أبوه قد مهد له بعمل صالح ولا بتدبير ، ولكن الناس على هذا قد أجمعوا على توليته ، وكان هذا أيضا منهم غُلُواً لا يقل عن غلو الوراق ، ولكنه كان فى الحق تنفيسا نفّسوا به عن أنفسهم ، كما نفس الوراق عن نفسه .

وهكذا خَدم هذا الصبى من حيث لايحتسب ، خدمته شجرة الدر حين قتلت أباه تريد أن تبعده عن الحكم ، فإذا هى تقربه إلى الحكم ، ولو فطنت شجرةالدر لهذه لأبقت على حياة أبيه ، وكظمت غيظها ، فلقد كانت تكره هذا الابن ، وتكره أم هذا الابن ، وكانت فى ذلك تملى عن نفس امرأة انتزعت زوجا من أحضان أخرى ، وانتزعت أبا لتبعده عن ابنه .

ولعل ماكان يزيد فى كراهية ذلك الابن أن وجوده كان يُذكّر أباه أيبك بأمه هو ، وكلما حاول أيبك أن ينسى الزوجة ذكر الابن فعاد بهما موصولا ، وحرك بهذه الصلة - التى لم تكن تنقطع - تلك الكراهية التى

عمر بها قلب شجرة الدر وامتلأ بها ، ولم تنسها وهى تقاد إلى الموت ، فلقد حكوا عنها .. أنها حين أحست أنها مقتولة .. جمعت جواهرها النفيسة ووضعتها فى الهاون وسحقتها سحقا .. مخافة أن تقع عليها يد الابن ويد أمه .

ولو أنها استطاعت أن تفعل بالملك مافعلته بالجواهر ماتلبثت ، ولكنها مضت بالجواهر ولم تمض بالملك لأنها لم تقو على ذلك ، فلقد حكوا عنها .. أنها بعد أن أفلحت وقتلت أيبك حاولت أن تغرى بالملك مملوكا آخر هو سنجر ، فلم تفلح فإذا الملك للمنصور .. وإذا الجواهر للريح تذروها .

– ٦ –

ويملك المنصور بن المعز أيبك ، وهو فتى فى الخامسة عشرة من عمره ، وماملك المنصور عن إرث ، فهذه لم يدبر لها أبوه ، وماملك عن كفاية فهذه لم يكن الفتى قد بلغ أن يبين عنها ، ولكنه ملك – كما قلت لك – لأن الناس كانوا حاقدين على شجرة الدر لقتلها أيبك ، فرضوا على المنصور ليكشفوا عن حقدهم لشجرة الدر ، والناس فى غمرة الحقد كثيرا ماينسون واجبات كثيرة ، وكثيرا ماينسون حقوقا كثيرة ، وكثيرا مايغرقون فى واجبات وحقوق كثيرة ، لهذا لم ينظروا فى ذاك الأمر الجلل نظرة جليلة ، ولهذا هون عليهم الحقد ماهو جليل ، فإذا هم يملون عن غير رأى وعن غير تدبير .

وسترى أنهم حين أنسوا حقدهم بعد قليل ذكروا رأيهم ، فإذا هم يخرجون على ما أجمعوا عليه ، وإذا هم حرب على المنصور ، وهم الذين كانوا له قبل قليل سلما ، وإذا هم لايذكرون قول شاعرهم الوراق فى المنصور :

عليك الورى بشرى لمضمر طاعة ... وبؤس لطاغ فى زمانك مجرم

فما للذى قدمت من متأخر ... ولا للذى أخرت من متقدم

ولكن الأمر لم يمض من حب إلى كراهية فى ليلة واحدة ، ولاتبدل من طاعة إلى عصيان فى جولة واحدة ، بل مرت الليالى تبعد ذكرى شجرة الدر فأبعدت الحقد عليها من قلوب الناس ، وحين أنسى الناس الحقد على شجرة الدر أنسوا الحب للمنصور ، وجالت الحياة بالناس جولات تخرج بهم من تجربة إلى تجربة ، وإذا هم مع تلك الجولات بتجاربها ومحنها يفيقون بعد غشية ، وحين أفاقوا تبدلوا بالطاعة العصيان .

فحين ولّى الناس المنصور مدفوعين بحقدهم لشجرة الدر .. حسبوا أنهم يخلصون للمنصور الود ، وماعلموا أنهم بالذى فعلوا كانوا ينفسون عن حقدهم ، فخرجوا بالمنصور فى موكب جليل من القلعة ، والأمراء بين يديه ، حتى اذا ماعاد الموكب الى القلعة مدت موائد الطعام لتجمع حولها الأمراء والسادة .

فعل الناس هذا وهم يظنون أنهم يجلون المنصور ، وماعلموا أنهم ينفسون عن الحقد الكامن فى نفوسهم لشجرة الدر .

ويمضى الناس بعد هذا فيذكرون الذى كان بين شجرة الدر وسنجر الحلبى .. حين طلبته شجرة الدر بعد مقتل أيبك تعرض عليه السلطان .

ومانظن أنه رغب فيما عرضته عليه شجرة الدر ، لاكرها فى الملك .. ولكن خورا وضعفا عن أن يحمل فى سبيل هذا الملك شيئا من مكروه ، ولو أنه قبل لفاز بالملك ، فلقد كانت الأمور أهون مما قدر سنجر ، ومانقول إنه كان سيظفر بالملك لو قبل دون أن يلقى كيدا قليلا .

فلقد رفض سنجر ماعرضته عليه شجرة الدر ، وشاع ذلك بين الناس ، فذكروه له بالخير ، من أجل هذا ولّوه قائما على المنصور ، لاإنصافا للملك والملك ، ولكن تنفيسا عن هذا الحقد الذى حملوه لشجرة الدر .

ويبدأ هذا الحقد على شجرة الدر يتراخى ، فيتراخى الناس عما أبرموا ويكادون يتنكرون له كله ، وإذا هم يتصورون الأمور تصورا آخر ، وتتراءى لهم الأحداث على نحو آخر .

ويغدو الناس يذكرون الذى كان بين سنجر وشجرة الدر ، فإذا هم يؤولونه تأويلا جديدا ، يتفق وتراخى الحقد فى نفوسهم ، وإذا هم يظنون به الظنون ، وإذا هم يتهمونه بأنه كان ساعيا إلى الملك راغبا فيه ، وإذا هم حين يخمد حقدهم ويصحو رأيهم .. يجرون سنجر من على كرسيه إلى الجب بالقلعة ليرموه فيه ، وإذا هذا الذى فعلوه بسنجر يثير ثورة بين المماليك مانظن المصريين برئوا من شرها .

وحين جرؤ هؤلاء المماليك على سنجر بدءوا يجرأون على الملك ، أو قل إن المماليك حين أنسوا الحقد على شجرة الدر بدءوا لا يحبون هذا الملك .

وهنا تكثر الأراجيف ، وتشيع الشائعات ، لأن ثمة خلافا بين المماليك : مماليك المنصور ومماليك أبيه ، وعلى رأسهم قطز ، وإذا هذه الأراجيف وتلك الشائعات تتراءى خفيفة للناس ، حين يرون سعى الساعين فى إصلاح ذات البين ، ورد الأمور كما كانت بين الملك الصغير والأمير قطز .

ولكن الفتنة كما خمدت .. هاجت ، ولقد مكّن لها الحقد حين خبا أن تشرى ، وأن تضطرم على صور مختلفة ، وإذا القاهرة تشهد هذه الفتنة بين مماليك المعز أيبك ومماليك الأشرف الأيوبى ، الذى مرّ بك حديثه ، لا ندرى ما الذى أهاجها على هذه الصورة ؟ ولكنا ندرى أن هذا القدر من الحقد على شجرة الدر هو الذى كان قد وحّد بين هؤلاء المختلفين جميعا ، حين زال .. أعاد الخلاف بين هؤلاء المختلفين جميعا ، فإذا هم حرب بعضهم على بعض .. لأنهم أنّى خَلَو لا يعرف أحدهم الآخر إلا حين

يجتمعان على طمع فإذا ما فرّق بينهما الطمع اختلفا ، على هذا عاش المماليك وعلى هذا ماتوا .

وهذه الفتنة التى ثارت بين هذين الصنفين من المماليك .. ثارت بسببها فتنة بين المصريين ، مكّنت للشر أن يشيع ، وملأت عليهم حياتهم قلقا واضطرابا .

وحين ساءت الأحوال فى مصر .. ساءت فيما حول مصر ، فإذا الأمور لا تستقيم بينها وبين صاحب حماة ، وإذا هذه الأمور لا تستقيم بينها وبين صاحب الكرك ، وإذا حروب يحركها هؤلاء المماليك هنا وهناك ، ويحركون معهم المصريين ليصْلوا نارها ، وما لهم من خيرها قليل أو كثير ، إن صح أن لها خيرا .

وفيما هؤلاء الناس مشغولون بأنفسهم ، يحارب بعضهم بعضا ، وينال بعضهم من بعض ، ينقض التتار على بغداد ، فيقتلون الخليفة المستعصم بالله ، ويمعنون فيخرّبون بغداد ، بعد أن ظلوا يعملون السيوف فى أهلها أربعة وثلاثين يوما .

ويصحو هؤلاء المتخالفون على تلك الضربة القاصمة ، فإذا هم قابعون يرقب كل منهم دوره .

وإذا التتار ينتشرون فى الأراضى العربية يأخذون بلدا بعد بلد ، وإذا الشام فى أيديهم ، عندها ينظر قطز إلى المنصور فيراه صغيرا .. ويراه ضعيفا ، ويرى نفسه كبيرا ويرى نفسه قويا ، ويرى المنصور لا حولا له ، ويرى نفسه والجولة فى يديه .

وما فكر قطز فى هذا إلا حين خرج الحقد من قلبه ، فتفتحت عيناه وصحا رأيه ، وإذا هو يرى لنفسه يشبع أطماعها لا أحقادها ، وإذا هو يتحين الفرصة فى هذا الذى انتهى إليه من زحف التتار على الشام فيجمع

إليه الأعيان والأمراء ، ليهول عليهم الأمر آولا ، وليهون من شأن هذا الصغير ثانيا .

ولقد أنسى قطز ، وأنسى الأمراء والأعيان معه أنهم هم الذين أقاموه ، وأنسى قطز وأنسى الأمراء معه والأعيان أنهم يوم أن فكروا فى خلعه كان أكبر منه يوم أن فكروا فى توليته بعامين ، ولكن الأمور كما قلت لك لم يملها حب للمنصور ، وإنما أملاها حقد على شجرة الدر ، فحين زال هذا الحقد .. عاد الناس كما كانوا يستملون من أطماعهم ويستملون من شهواتهم ، لا ينظرون إلا إلى هذه الأطماع ، ولا يستجيبون إلا لتلك الشهوات .

وما أن دعا قطز إلى نفسه حتى استجاب له الأمراء والأعيان ، يملى عليهم خوف من قطز ، لا حقد على شجرة الدر ، فلقد زال الحقد على شجرة الدر وحل مكانه الخوف من قطز .

ولكن هذا الخوف من قطز مهد له الخوف من التتار ، فالنفوس حين يملكها خوف يسلمها إلى غيره ، فتخرج من خوف إلى خوف ، لا تعرف إلى الطمأنينة طريقا .

وهكذا كان قطز ماكرا حين خوف الناس التتار ليخوفهم نفسه ، فإذا هم يسلمون إليه أمورهم ليدفع عنهم عدوهم وعدوه .

وقبل أن يجمع قطز الناس حوله كان قد قبض على السلطان وأمه وحبسهما ، ليضمن خوف الناس منه خوفا لا يداخله ريب ، فيفسد هذا الريب على الناس خوفهم منه ، وإذا فسد خوفهم منه شجعوا شيئا على مخالفته .

وبقى هذا السلطان الصغير فى حبسه سنين لا أشهرا ، كما بقى فى ملكه سنين وأشهرا ، إلى أن ولى الظاهر بيبرس فنفاه وأهله سنة ثمان وخمسين وستمائة إلى خارج الديار .

وما استعصت حلب على التتار ، كما لم تستعص غيرها من البلدان ، منها ما دخلوها حربا ومنها ما دخلوها سلما ، وما أعفوا المسلمين فى حربهم وسلمهم من قتل وتشريد وسبى ، وباتت البلاد تضج بعسفهم كما بات الناس فزعين مفزعين .

وحين كانت هذه العروش تتهاوى ، والبلاد تساقط ، كان قطز فى مصر يعد العدة لهذا اللقاء الرهيب ، وحين استولى اليأس على القلوب استولى الرجاء على قلب قطز .

وخرج قطز من مصر بمن اجتمع إليه ، وعلى عين جالوت يلتقى المصريون والتتار ، وعلى عين جالوت ينهزم التتار وينتصر المصريون ، وعلى عين جالوت يعمل المصريون سيوفهم فى التتار فينالون منهم كما نالوا هم من المسلمين من قبل ، وإذا هذا النصر يرد إلى القلوب الفزعة المفزعة اطمئنانها ، وإذا هذا النصر يرد إلى النفوس اليائسة رجاءها ، وإذا الشام تعود مرة أخرى إلى الوحدة مع مصر ، وإذا قطز ينيب عليها من يلى أمرها .

ولكن الأمور التى مضت صافية حلوة ما فتئت أن تعكرت لتعود مرة ، فلقد كان إلى جانب قطز قائد أمير ، كان له فى هذه الحرب شأن ، وكان هذا القائد الأمير الذى كان له فى هذه الحرب شأن .. هو ركن الدين البندقدارى ، ولقد وعده قطز بأن يعطيه حلب وأعمالها إن كتب له النصر ، وحين كتب لقطز النصر عدل عما وعد ، وولى حلب غيره ، فكانت بين الرجلين بسبب هذه وحشة ، أعنى بين قطز وبين بيبرس .

والأمور إذا لم تستو بين القادة والرؤساء .. لم تستو بين عامة الناس ، فكما ينقسم القادة والرؤساء ينقسم عامة الناس ، فإذا هى فتنة عامة لا خاصة ، وإذا الشعب فيها أكثر بلاء من القادة والرؤساء .

فحين حقد بيبرس على قطز لبخله عليه بحلب فكر فى آن يدبر لقتله ، لم يحفظ له هذا البلاء الطيب فى الخلاص من التتار ، ولم يحفظ له أنه أنهض المسلمين بعد خذلان ، وإنما حفظ له بخله عليه بقطعة من الأرض .

وهكذا كانت نفوس هؤلاء الموالى ، دخلوا على الناس دنياهم لينالوا فضلا من رزقهم ، فإذا هم حين تمكنوا .. يزحمون الناس على دنياهم ، وإذا هم لا يقنعون إلا بأن تكون دنيا الناس لهم دون الناس ، لا يرعون حرمة ، ولا يرعون جوارا ، ولا يرعون عهدا ، ولا يرعون ذمة .

ويعود قطز من الشام يريد مصر ، ويعود معه بيبرس ، وحول قطز صحبه ، وحول بيبرس صحبه ، وقطز وصحبه غارقون فى نشوة النصر ، وبيبرس وصحبه غارقون فى تدبير وسيلة للغدر ، واللاهون غارون ، والمدبرون حذرون ، من أجل ذلك لم يلتفت قطز وصحبه إلى ما يدبره له بيبرس وصحبه .

ومضى الركب حتى إذا ما بلغ القصير ، التى تعرف الآن باسم الجعافرة - إحدى قرى فاقوس بمحافظة الشرقية - أراح ، وفيما هو مريح خرج قطز يصطاد ، وخرج فى إثره بيبرس ، ومعه نفر من المتآمرين على قطز .

ولم يعدم بيبرس وسيلة يخدع بها قطز . يرويها المؤرخون فيقولون : إنه تقدم إليه شافعا فى إنسان ، فأجابه قطز إلى ماأراد ، فأهوى بيبرس ليقبل يد قطز ، وما إن مد قطز إليه يده حتى أمسك بها بيبرس ، وكانت تلك إشارة إلى من معه ، فبادروا قطز بالسيوف فقتلوه ، ثم حملوا على من معه فأذعنوا ، اذ كان هؤلاء الموالى مع من غلب ، لايعنيهم فى الكثير أو القليل أن يكونوا هنا أو هناك ، ينظر كل منهم إلى مثل هذه من غدر ليكون له الأمر من دون الآخرين ، ومضى بيبرس بمن معه حتى انتهوا إلى مجلس السلطان - أعنى قطز - فوجدوا حاجبه على الباب .

واستمع إلى أحدثك هذا الحديث لتعرف صدق ماسقته لك عن خلق هؤلاء ، فحين لقى بيبرس – بمن معه – حاجب قطز أخبروه بما كان من قتله ، عندها ذكر الحاجب نفسه وأنسى سيده ، وهكذا كانوا يفعلون يُخلصون لوجودهم وإن بدوا مخلصين لوجود غيرهم ، والتفت الحاجب ينظر إلى غده ولاينظر إلى مقتل سيده فإذا هو يسأل : من قتله ؟ يسأل هذا السؤال لاليثأر .. ولكن ليعرف إلى أين سيتحول ولاؤه ، عندها أجاب بيبرس : أنا قتلته ، وهنا اطمأن الحاجب على غده ، وعرف إلى أين سيتحول ولاؤه ، فقال لبيبرس : اجلس على مرتبة السلطان .

ولقد بقى قطز المقتول بالعراء أياما إلى أن دفنه مكانه بعض من كان معه

ويقول المؤرخون : إن قبره هناك كان مزارا ، يقصده بعض الذاكرين لفضله. فغاظ ذلك بيبرس ، فنبش قبره ونقل جثته إلى مكان مجهول لايعلم مكانه .

وهكذا مضى قطز وماحكم غير سنة تنقص يوما

– ٨ –

ونحن حين نودع قطز ونذكر له هذا البلاء فى جهاد التتار نكاد ننسى معه انتزاعه العرش من المنصور ، ننسى هذا بذاك ، لأن الخدعة التى خلع بها المنصور .. استحالت حقيقة حين انتصر على التتار ، أو قل لقد أعطاه هذا النصر الحق فيما فعل .

ثم لقد عرفه الناس فى هذه الحرب جنديا مقاتلا ، يخوضها بيده لابلسانه ، ولقد حمل فيها عبء المقاتل الشجاع ، يفقد من تحته جواده فيجالد عدوه على رجليه ، ويراه فارس من المسلمين فيحاول أن ينزل له عن فرسه ، فاذا هو يأبى على الفارس هذا الذى أراد ، ويمضى راجلا يجاهد ليكتب له فى سبيل الحق والواجب جزاء وجزاء .

غير أن الذين قتلوا قطز لم يذكروا هذا ، ولم يذكروا خيره فيوازنوا بين خيره وشره ليرجحوا أحدهما ، ولكنهم ذكروا خيرهم هم ، فوجدوه يربى على مالقطز ، ووجدوا قطز إلى جانبه لايعدل شيئا ، من أجل ذلك قتلوه .

ومضى قطز مقتولا ليفسح لمولى له قاتل .. هو بيبرس ، فيجلس على عرش مصر مكانه . ولقد أوشكت هذه القلاقل أن ترد المصريين إلى تفكير فى حقهم الخاص ، فالخلافة التى كانوا يرجونها خيطا واصلا قد ذهبت وانقطع هذا الخيط ، وعاشت أجراء الدولة لا يجمع بينهما هذا الرمز ، الذى وإن كان قد استحال غير شيء فقد كان شيئا ، ما عليه أن يكون ضعيفا ، فبعد كل ضعف قوة كما أنه بعد كل قوة ضعف .

ولكن الخلافة حين زالت من بغداد اسما .. كادت تستقر فى مصر فعلا ، فإذا قطز يقهر بالمصريين التتار ، ويرد إلى الشعوب العربية وعيها ، فإذا هم يردون إلى التفكير العام وإذا هم به أشد استمساكا .

وحين يمضى عنهم قطز يوشكون أن يردوا إلى التفكير فى حقهم الخاص ، بعد أن قطع عليهم بيبرس خيط الرجاء الذى اتصل

ولكن بيبرس حين جاء دخل بهم فى فتن وحروب ، فإذا هم يردون إلى التفكير العام ، وإذا هم به أشد استمساكا .

ولكنا قبل أن نمضى فى الحديث عن هذا نحب أن نقدم لك بيبرس ، هذا الرجل الذى قتل قطز من أجل بخله عليه بولاية مدينة ، أو قل قتله ليجلس مكانه على عرش مصر ، جاعلا من هذا البخل وسيلته إلى هذا الذى فعل .

فلقد كان بيبرس ، كما كان غيره ، مولى ، ولد ببلاد القفجاق ، ومنها جلب ليباع فى دمشق ، وليشتريه رجل بعد رجل .

ويروى المؤرخون عن بيبرس فى سوق الرق شيئا ، لا ندرى أهو من تزيُّدهم الذى يتزيدونه على تاريخ هؤلاء حين يصبحون وفى يدهم شيء من جاه الدنيا .. أم هو حق لا صلة له بهذا التزيد ؟ وسواء أكان هذا أم ذاك فهو ليس غريبا عن صفات بيبرس .

يروى هؤلاء المؤرخون أن بيبرس عرض على صاحب حماة ليشتريه وهو صبى ، وكان صاحب حماة لا يقضى فى أمر هؤلاء الغلمان شراء ، إلا اذا رأتهم أمه ورضيتهم ، وحين رأت أم صاحب حماة هذا الصبى لم ترضه ، لأنها رأت الشر فى عينيه ، فردّته .

ومضت حياة الرق ببيبرس تنقله من يد إلى يد حتى انتهت به إلى يد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وحين اشتراه الملك الصالح أعتقه وجعله من مماليكه .

ويموت الملك الصالح ويلى الأمر من بعده تورانشاه ، وقد مرّ بك مقتل تورانشاه ودخول أيبك إلى الحكم .

وحين دخل أيبك إلى الحكم خرج عنه بيبرس فيمن خرج من هؤلاء الأتراك الطامعين فيما فى يد أيبك ، وحين عجز بيبرس بمن معه عن أن ينالوا شيئا خرج بهم إلى الملك الناصر الأيوبى صاحب الشام .

ويكرم الناصر الأيوبى وفادة بيبرس ، ويغرى أيبك صاحب مصر بهم صاحب الشام ، فلا يستجيب صاحب الشام لصاحب مصر ، كلاهما يريد شيئا لنفسه ، وكلما أمعن أيبك فى إلاغراء بهم ..أمعن الناصر فى السخاء عليهم ، ويزيد هذا بيبرس إدلالا بموقفه ، ويتحول من لاجيء خائف .. غاية ما يرجو الأمن ، إلى مقيم وادع .. أقل ما يرجو ولاية ، ويتحول الناصر من محسن له الخيار .. إلى مدين عليه الأداء ، وهنا يتحول قلب الناصر عن الأنس ببيبرس إلى القلق به ، ويتحول قلب بيبرس عن الثقة بالناصر إلى الشك فيه .

وبيبرس كما رأته أم صاحب حماة شرير ، تحدثك عيناه بهذا الشر الكامن فى نفسه ، والفرق بين النفوس الشريرة والخيّرة .. مردّه إلى ذاك الطبع الذى طبعت عليه ، فالنفس الشريرة بما طبعت عليه من شر لا تحمل الظواهر التى تبدو لها إلا على الشر وإن كانت خيرا ، وبهذا تقيم الخصومة بينها وبينها ، وحين تقوم هذه الخصومة تتحرك هى للعدوان واجدة أسبابه ودوافعه ، وعلى العكس من هذا .. النفس الخيرة ، فهى بما طبعت عليه من خير .. لا تحمل الظواهر التى تبدو لها إلاعلى الخير وإن كانت شرا ، فتقيم بينها وبين تلك الظواهر ألفة وأنسا ، وحين تقوم هذه الألفة ويقوم ذاك الأنس تتحرك هى للتعاطف والتراحم ، واجدة لذلك أسبابه وحوافزه .

من أجل ذلك سبق بيبرس إلى الشر ، فخرج عن الناصر إلى المغيث صاحب الكرك ، ويجد بيبرس عند صاحب الكرك ما لم يجده عند صاحب الشام ، فما من شك فى أن بيبرس كان يطمع من صاحب الشام فى أن يعينه بجند من عنده يقوى بهم على دخول مصر ، وما نشك فى أن بيبرس طلبها من صاحب الشام ، وما نشك فى أن صاحب الشام قال فيها شيئا لم يرضه بيبرس .

فلقد وجدنا بيبرس حين نزل بصاحب الكرك يتحرك من عند صاحب الكرك بجند ليدخل بهم مصر ، وإن دلتنا هذه على شىء .. دلتنا على أنها كانت أمنية لبيبرس كان يرجو أن يحققها بيدى صاحب الشام ، وحين فوّتها عليه صاحب الشام .. أسرع يحققها بيدى صاحب الكرك ، وكان هذا الإسراع رد فعل لذاك الفشل .

ولقد لقى بيبرس المصريين فهزمه المصريون ، وعاد بيبرس إلى الكرك مهزوما ، ولكن بيبرس كان صاحب أمنية ، كما قلت لك ، وكان حريصا على أن يحقق تلك الأمنية حرصا يمليه عليه هذا الشر الذى فى نفسه ، لأنه كان يعد هذه الأمنية ترة من الترات ، لا رغبة من الرغبات ، وفرق بين

الترة والرغبة عند النفس الشريرة ، فهما وان تقاربتا تفترقان فى أن الترة شر قديم ، والرغبة شر عارض ، وإن تراخت الرغبة فلن تتراخى الترة .

ولقد انضاف إلى تلك الترة شيء آخر يهيجها ، انضافت إليها شماتة صاحب الشام حين انهزم بيبرس .

وحين انضافت الشماتة إلى تلك الترة استوى بيبرس على قدميه يغرى صاحب الكرك مرة أخرى بغزو مصر .. يجد فى يديه سببا قويا لهذا الإغراء ، فلقد أخذ بيبرس هذه المرة يغرى صاحب الكرك بأن يكون له ملك مصر ، وما نظنه فعلها فى الأولى ، وما نظنه سأل صاحب الكرك إلا هذا العون القليل الذى لا يبلغ غير ستمائة من الجند يكونون معه .

وما سخا بيبرس بالذى سخا به فى الثانية ، لأنه كان يريد ملك مصر لنفسه ، وحين عزّ عليه هذا وكاد يفقده ، ثم كاد يفقد إليه شفاء نفسه من ترة وشماتة ، رأى أن يسخو بملك مصر ليشفى نفسه ، وليس عليه إن شفى نفسه وتحقق لصاحب الكرك ملك مصر أن يعود فيغدر به ويستخلص منه ملك مصر .

ما فطن بيبرس حين أضمر هذا ، وما نظنه نزل حين نزل عن ملك مصر إلا على هذا .

وما زال بيبرس بصاحب الكرك يزين له غزو مصر .. حتى استجاب صاحب الكرك بما أغراه به بيبرس .

والملك يحرك النفوس له ، والنفوس على استعداد أن تتحرك ، تُحرِّكها إلى ذلك أطماع تنطوى عليها ، أو إغراء يملؤها .

ولقد كان صاحب الكرك يملك الأول والثانى ، يملك هذه الأطماع ، إلا أنها كانت فى عوز لمثلها مما يثيرها ، يدخل عليها فيحركها ، وهى

وإن تحركت تفقد العقل والرأى فلا تحس لهما تدبيرا كما لا تحس لهما روية ، ولكنها تنقاد مدفوعة إلى هذا الطمع ، والطمع دائما يغرى بالكسب ، ولا يحمل شعورا بالخسران ، من أجل هذا كان كثيرا ما يجر هذا الطمع إلى التلف وكان كثيرا ما يجر إلى البوار .

وما إن لقيت جيوش صاحب الكرك جيوش صاحب مصر ، وكان على هذه الجيوش المصرية الأمير قطز الذى مر بك شىء عنه ، حتى هرب المغيث صاحب الكرك وهرب فى إثره بيبرس .

وهنا يخبو الطمع فيخبو معه الغرور ، ويصحو الرأى ويصحو معه التدبير ، فيرى صاحب الكرك برأيه وتدبيره أن طمعه جرّ عليه الخسران والخذلان ، وحين يحس الندم على هذا الخسران وذاك الخذلان يحس الحقد على من جرّ عليه هذا الخسران وذلك الخذلان ، فإذا صاحب الكرك يحقد على بيبرس ، وإذا بينهما وحشة ، وإذا المغيث بعد هذه الوحشة يهم أن يقبض على بيبرس ، ويحس بيبرس بهذه فيهرب من وجه المغيث ليقصد إلى صاحب الشام ، الذى خرج عنه منذ قليل .

ولو أن بيبرس وجد غير هذا الذى خاصمه من قبل وخافه على نفسه يقصد إليه لقصد ، ولكنه لم يجد غيره فحمل نفسه على ما تكره ، والناس مادام قصدهم الدنيا يعملون لهذه الدنيا ، لا يعنيهم أن يصاحبوا أهلها على دخل ولا يعنيهم أن يمدوا اليد إلى العدو قبل الصديق مادام فى ذلك ما يرون أنه الغنم .

وإخال صاحب الشام حينما قبل دخول بيبرس إليه .. كان هو الآخر قد أغراه هذا الطمع الذى أغرى به بيبرس المغيث صاحب الكرك ، وكأنى به حين وجد المغيث يغزو مصر ندم على أن لم يكن ، وكأنى به لم تردعه هزيمة المغيث فيخمد فى نفسه هذا الطمع ، بل أكاد أظن أن هذه من

المغيث أضرمت فى قلبه جذوة الطمع ، وعدّ هذه الهزيمة لونا من ألوان التقصير ، وكذلك الطمع يغرى كما قلت لك .

من أجل ذلك فتح صاحب الشام قلبه لبيبرس بعد أن أغلقه ، وأعطاه مابخل به من قبل .

ولكن الأحوال تتبدل فإذا المنصور صاحب مصر هذا الملك الصغير الذى كان يطمع فيه ، قد غاب ، ويلى الأمر قطز هذا الملك المرهوب ، عندها يسكن هذا الطمع الثائر فى نفس صاحب الشام ، ويقعد لا يستجيب لإغراء بيبرس .

ويحب قطز أن يقطع حبل هذا الطمع حتى لا يشغل به فيرسل إلى بيبرس من يغريه بالقدوم إلى مصر آمنا ، وإذا بيبرس من قواد قطز وإذا هو يخرج معه إلى حرب التتار ، وإذا هو تكون له فى هذه الحرب جولات موفقة ، وقد مرّ بك ما كان منه بعد ذلك من حقده على قطز ، ثم ما كان منه من تدبير فى قتله ، ثم ما كان له بعد أن قتل صاحب العرش ليجلس على هذا العرش .

هذا هو حديث بيبرس أردت أن أسوقه إليك لتعرف كيف كان صبيا ، ثم كيف كان قائدا ، قبل أن أسوق إليك حديثه ملكا .

— ٩ —

وحين جلس بيبرس على هذا العرش الذى اغتصبه من صاحبه ، بعد أن قتل فى سبيله صاحبه ، أرسل إلى الأقطار من حوله ينبئهم بأنه غدا ملكا .

ولقد كان يعنى بيبرس بهذا الذى أرسل أن يشفى نفسه من هؤلاء الأحياء ، كما شفى نفسه من هذا الميت الذى خرج به من الدنيا مقتولا ، فمن قبل أن يبلغ بيبرس إلى هذا الملك أغرى به صاحب الشام فما أفلح ،

ثم خرج يغرى به صاحب الكرك فما أفلح ، ثم عاد يغرى به صاحب الشام مرة ثانية فما أفلح ، وكان همّه من هذا الإغراء أن ينال بأيدى هؤلاء ما يشاء ، من أجل ذلك حمل بيبرس فى قلبه الحقد على صاحب الشام وعلى صاحب الكرك ، وحين استقام له مطمعه .. ذكر هذا الحقد القديم .. فأحب أن يشفى نفسه فكتب إلى هؤلاء وإلى غير هؤلاء بما آل إليه من ملك ، كان هذا لا شك هو الغرض الأول مما بدأ به بيبرس فى كتابه إلى من حوله .

قد يكون عُرْف الوقت هو الذى أملى عليه ذلك ، ولكن الذى لا شك فيه أن عُرْف الحقد أملاه عليه قبل أن يمليه عرف الوقت .

وكان ما فعله بيبرس بعد ذلك أن أخرج من السجن المنصور بن أيبك ، ذاك الملك الصغير الذى كان قطز قد خلعه وسجنه ، وحين أخرجه بيبرس من السجن وأخرج معه أمه وأخاه ، لم يرد به رحمة ولا خيرا ، إنما أراد أن يريح نفسه من الطامعين فى هذا الملك ، ليأمن جانبهم ، وليريح نفسه من عناء التفكير فيهم ، وليقطع على الناس الشغل بهم .

من أجل ذلك كله أخرج بيبرس هذا الملك الصغير من السجن لينفيه خارج مصر ، لم ينفه وحده .. إنما نفى معه أمه حتى لا تكون فتنة فتثير الناس عليه ، ونفى معه أخاه حتى لا تجد الأم فرصة فى اثارة الناس فتلفهم حول هذا الأخ .

ويزهى السلطان بيبرس ويحب أن يكون له اسم رنان يفوق الأسماء من حوله ، فيلقب نفسه بالملك القاهر ، فينبرى له وزير من وزرائه يشير عليه ، لا لشىء إلا تقربا منه وزلفى ، وما علمنا الوزراء فى الكثير من أمورهم مع الملوك إلا كانوا طامعين لا ناصحين ، بهذه الروح أشار الوزير على بيبرس بأن يعدل عما أراد إلى غيره ، وهو يقول له : أيها الملك ، ما لقب بهذا اللقب أحد قبلك فأفلح ، لقب به من قبلك القاهر بن المعتضد

فلم تطل مدته ، وخلع من الخلافة وسمل ، ولقب به الفاخر بن صاحب الموصل ، فَسُمَّ .

والملوك أجبن ما يكونون حين يملكون ، أحرص ما يكونون على الملك حينما يكون فى أيديهم ، أبعد ما يكونون عن الفهم حين يثيرون شكوك الناس ويملأون قلوبهم فزعا ، وكان بيبرس واحدا من هؤلاء الملوك ، فجبن وحرص وشك وفزع ، فعدل عن هذا اللقب المشئوم إلى غيره ، وإذا هو يسمى نفسه الملك الظاهر .

وهكذا حقق بيبرس لنفسه بهذا الذى فعل من قتله قطز شيئا مما يريد ، لكنه لم يحقق لأمته غير الضر ، فما إن علم التتار بقتل قطز حتى هبوا مرة ثانية يريدون أن يعيدوا ما خسروه ، وكانت لهم مع المسلمين حروب جديدة نالوا فيها منهم ما نالوا ، من قتل وسبى وأسر .

وحين كان التتار يجمعون أمرهم كان الولاة على البلاد الإسلامية يفرقون كلمتهم ، فلقد أغرى بعضهم ما فعل بيبرس بقطز فهبوا هم الآخرون يفعلون مثل ما فعل ، فإذا البلاد فى شبه ثوراث داخلية ، ولقد مكن هذا للتتار فإذا هم يدخلون حلب ، بعد أن كانوا قد خرجوا منها ، وإذا هم يقتلون أهلها بعد أن أجلوهم عنها ، واذا هم بعد ذلك يريدون غير حلب .

ولكن هذه الضربات أيقظت هؤلاء الولاة .. فأجمعوا أمرهم شيئا ليكتب لهم النصر أخيرا على التتار فى حمص .

وكان على الشام أمير من الأمراء هو سنجر الحلبى ، وكان قطز حين استأثر بالمُلْك وخلع عنه الملك الصغير المنصور بن أيبك ، جعله نائبا له على دمشق ، وحين علم نائب دمشق بمقتل قطز دعا الناس لنفسه ، يريد أن يصبح هو الآخر ملكا ، وكما لقب بيبرس نفسه بالملك الظاهر .. لقب هو الآخر نفسه بالملك المجاهد .

وأثارت هذه بيبرس . فأخذ يحرض أمراء دمشق على سنجر ، ولقد أفلح بيبرس فيما أراد ، فإذا الأمراء حزب على سنجر ، وإذا سنجر آخر الأمر يسلم نفسه إلى بيبرس ، ويغدو إلى مصر واحدا من رعايا بيبرس تاركا ملك دمشق إلى غيره .

ولكن سنجر لم ينس لبيبرس ما فعل ، فإذا هو يشارك فى ثورة عليه ، ولكن بيبرس كان قد علم بتلك الثورة قبل أن تكتمل ، فوقع على أصحابها وزج بهم فى السجن جميعا، ليموت فيه بعضهم ، وليحيا فيه بعضهم حياة أشبه بالموت .

هذه الحياة العكرة بين الملوك والأمراء جرّت حياة عكرة بين الناس ، وحين لا تصفو الحياة للملوك لا تصفو الحياة للناس ، وحين لا يهدأ الملوك لا يهدأ الناس .

ولقد مرّ بك كيف انتهت الخلافة فى بغداد بقتل المستعصم ، وكيف أصبحت تلك الرقعة العربية الواسعة التى كانت تظلها خلافة تعيش دون خلافة ، أغرى هذا بيبرس بأن يجعل من القاهرة مكانا جديدا لتلك الخلافة ، فإذا هو يرى الفرصة مواتية فى وصول المستنصر بالله إلى القاهرة فى سنة تسع وخمسين وستمائة ليخرج إليه فى جمع كبير ، وإذا المستنصر بالله يستقبل استقبال الخلفاء ، وإذا هو يبايع بالخلافة ، وإذا الخلافة تعود بعد غيبة بلغت ثلاثة أعوام ، فلقد مضت بمضى المستعصم - سنة ست وخمسين وستمائة - من بغداد ، وإذا هى تعود بظهور المستنصر بالله فى القاهرة سنة تسع وخمسين وستمائة .

وكان المستنصر بالله هذا .. هو الثامن والثلاثون من خلفاء بنى العباس .

وحين ولاه بيبرس خليفة ، ولّى هو بيبرس سلطنة مصر ، ومن قبل

ذلك .. كان بيبرس سلطانا غير مؤيد باسم الخليفة ، وها هو ذا قد غدا اليوم سلطانا يؤيده الخليفة .

وإن أفادنا هذا فى شيىء .. كان هذا الشىء هو تعلق هذه الشعوب بالوحدة ، وتعلقهم بالدولة العامة ، وما أملى ذلك بيبرس عن شعوره الخاص ، فما نظن ملكا يرضى لنفسه أن يكون تابعا ، ثم إن بيبرس فى حاجة إلى أن يبلغ الملك ليحتال ، ولكن الذى نظنه أن بيبرس أملى ذلك عن شعوره العام ، أحس صدى هذا الشعور فى نفوس الناس عامة ، فحرص على أن يحققه للناس عامة ، ليضمن هذا الرضا العام الذى لم يكن يجاوز أثره النفوس حينذاك ، ليرضى هو عنه نفسه الرضا كله ، ولا يجد أثرا لامتعاض ما .

وكما كسب بيبرس بتأييد الخليفة له كسبت مصر بانتقال الخلافة إليها ، وكانت فرصة مواتية للدولة العامة لتجمع تحت ولائها ما تفرق ، وتضم الشمل على وحدة جامعة ، ولتعيد الحياة إلى سيرتها الأولى ، أيام القوة والمنعة والكلمة الجامعة ، وكانت فرصة مواتية لينبعث هذا كله من القاهرة كما انبعث من دمشق أولا ، ومن بغداد ثانيا .

ولكن الأمور كانت قد آلت إلى أيدى ولاة لا يحسنون رعاية هذا كله ، ولا يستطيعون أن يدبروا لهذا كله ، هذا إلى أن الخلافة كانت قد هانت على نفسها ، فلم يعد يجدى فيها هذا البعث وهذا الإحياء .

ولقد أراد بيبرس أن يستعين بهذا الخليفة على أمره ، فيخضع باسمه ما استعصى عليه ، فخرج به إلى الشام يريد أن يرد - بخروج الخليفة معه - أمور الشام إلى ما كانت عليه ، فما أجدى ذلك شيئا ، لأن الناس كانوا فى حاجة إلى وازع يملك قوة ذاتية ، أعنى خليفة تصدر القوة عنه .. لا خليفة يجمعون القوة إليه ، فيكون أشبه بالرمز الصامت لا الجسم الحى المتحرك .

من أجل ذلك .. لم يجد هذا الخليفة الأخير الخلافة شيئا ، لأنه كان خليفة مصطنعا زائفا ، كما لم يجد الدولة العامة شيئا ، فلقد كانت الدولة العامة فى حاجة إلى قوىّ يقيمها لا إلى ضعيف تقيمه هى .

ولقد كلفت الخلافة بيبرس كثيرا ، وما جنى منها كثيرا ، غير هذا الرضا العام الذى أحس أن يفقده ، وحين ولىَ الخليفة الخلافة .. أحس أنه كسب ، أما بعد هذا .. فما نظن بيبرس أحس أنه كسب شيئا .

ولقد خرج الخليفة من مصر يجول هنا وهناك على تلك الأرض التى كانت باسم الخلفاء السابقين تحكم وتساس ، تغنيهم الكلمة ، ويغنيهم الأمر ، وهم قابعون حيث هم على كرسى الخلافة لا يتجولون ، يسمع الناس عنهم ويطيعون ، ولكن الأمر قد استحال كما قلت لك ، وما عاد الناس يأبهون بتلك الكلمة ولا بذلك الأمر ، بل لم يعودوا يأبهون بوجود الخليفة نفسه بينهم ، ينتقل من هنا إلى هناك ، وإذا هو آخر الأمر يحيط به كمين من جند التتار ، وإذا هو يفر عنه أصحابه ، وإذا الخليفة المستنصر بالله ينقطع خبره فلا يعرف عنه شىء .

وتعود الدولة العامة مرة ثانية فارغة من الخلافة ، تجمع أمرها ولو اسما ، ولكن الأيام لا تمضى كثيرا حتى يفد على مصر عباسى آخر ، هو الحاكم بأمر الله أبو العياس أحمد ، وينتهى نسبه إلى المستظهر بالله الخليفة العباسى .

وكما احتفل بيبرس بالمستنصر بالله احتفل بالحاكم بأمر الله ، وكما أقام بيبرس المستنصر بالله خليفة .. أقام بيبرس الحاكم بأمر الله خليفة ، وكما أقر المستنصر بالله على سلطنة مصر .. بيبرس ، أقر الحاكم بأمر الله على سلطنة مصر .. بيبرس .

ولكن هذا الخليفة الثانى لم يكلف نفسه عناء الخليفة الأول ، وقنع من

الأمر بأن يكون خليفة وحسبه حياة رغدة وعيش موفور واسم يتردد على المنابر ، من أجل هذا بقى فى قصره بمناظر الكبش - حيث قلعة الكبش اليوم - قانعا بما أفاء الله عليه من رزق وجاه ، عاما بعد عام إلى أن وافاه الأجل سنة إحدى وسبعمائة ، فكان أول خليفة مات بالقاهرة من بنى العباس .

وما نشك فى أن بيبرس انتفع بوجود الخليفة الثانى إلى جانبه فى القاهرة ، وما نشك فى أن هذا الوجود نفخ فى روع بيبرس ، وما نشك فى أنه أكسبه شيئا من الجاه وشيئا من القوة أضفاهما بيبرس على نفسه بشعور من عنده ، ولم يضفهما الخليفة عليه .

ومضى بيبرس يحكم من سنة ثمان وخمسين وستمائة إلى سنة ست وسبعين وستمائة ، أى نحوا من تسعة عشر عاما تزيد قليلا ، شغل فيها بأحوال مصر الداخلية شيئا .. فأنشأ كثيرا من المدارس والأربطة والجوامع والأسبلة ، كما أقام لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاضيا ، فجعل للشافعية قاضيا ، وللحنفية قاضيا ، وللمالكية قاضيا ، وللحنابلة قاضيا ، وأراح بذلك الناس من عناء كثير .

كما شغل فى تلك الأعوام التسعة عشر بأمور خارج مصر ، كانت كلها حروب بينه وبين الشام ، لا يلبث أن يخرج من حرب حتى يدخل فى حرب ،شغل بذلك نفسه كما شغل المصريين معه ، هذا غير حروب قليلة بينه وبين التتار ، نالوا فيها منه ، ونال هو فيها منهم ، وكان ما ناله بيبرس من التتار .. أكثر مما ناله التتار منه .

وفى سنة ست وسبعين وستمائة ، وفى الرابع عشر من المحرم من تلك السنة ، أحس بيبرس بالمرض يدب فى جسمه وهو فى دمشق ، ثم أحس بالموت يدب إلى نفسه مع هذا المرض ، وإذا هو بعد أربعة عشر يوما يودع تلك الحياة ليلقى حياة أخرى .

والمؤرخون يذكرون لبيبرس الكثير من الأعمال والآثار، فيذكرون له أنه أدخل كثيرا من النظم فى طريقة الحكم ، كما يذكرون له أنه بنى فى أيامه فى مصر ما لم يبن مثله أيام غيره ، كما يذكرون له قصصا تدل على عدله ، وتدل على بأسه ، وتدل على جوده وكرمه ، والذى يعنينا من هذا أن بيبرس مضى عن فكرة طيبة أراد أن يحقق بها شيئا للدولة العامة ، وأعنى بهذا .. تطلعه إلى أن يمكن للخلافة من أن تحيا مرة ثانية ، ولكنه رحمه الله كان أعجز عن أن يحقق ما طمح فيه وصبا إليه لأنه لم يكن يملك الكثير ، ولم يكن الناس من حوله يتطلعون إلى ما كان يتطلع هو إليه ، كما لم يكن الخلفاء أقوياء فيردوا على الخلافة قوتها ، ويردوا الناس إليهم ، لتجتمع كلمة الناس بهم ، ولتجتمع كلمتهم بالناس .

- ١٠ -

وهذا الرجل - بيبرس - الطامع فى الملك ، الذى ركب ما ركب فى سبيله من غدر ليجلس على عرشه ، طمع فيه طمعا آخر ليجلس عليه ابنه من بعده .

ولقد أنسيت أن أحدثك أن بيبرس بعد عودته من حرب له فى الشام .. جمع إليه القضاة والشهود والأعيان ليأخذ على الأمراء أيمانا بولاية العهد لابنه ، وقد تم لبيبرس ما أراد ، وأصبح ابنه محمد وليا للعهد فى حياة أبيه منذ سنة اثنتين وستين وستمائه إلى أن مات أبوه سنة ست وسبعين وستمائة بدمشق .

هذه الأعوام الأربعة عشر عاشها محمد وليا للعهد إلى جانب أبيه ، ليس له من الأمر شىء غير تلك المظاهر التى يستمتع بها أولياء العهود ، ولقد أفادت تلك الأعوام الطويلة محمد تمكينا ، كما أفادت أباه اطمئنانا ، ولكنها على هذا أفادت الناس تدبرا ونظرا فى أمر هذا الولى للعهد الذى سيصبح بعد حين سلطانا يملك أمرهم عن وراثة لا عن جهد وسعى .

فلقد ألف الناس أن هذا المُلْك فى تلك الفترة القلقة لا يؤول إلى أصحابه بهذا اليسر ، ولا أن يأخذه أصحابه إرثا عمن قبلهم ، بل ألفوه اغتصابا وغدرا وحيلة وخداعا ، من عزّ بزّ ، ومن قوىَ غلب ، ومن احتال سلب ، ومن غدر نهب .

وهكذا أفادت هذه المدة الطويلة الناس ، وهيأت نفوسهم لشغل كثير ، فما إن مات بيبرس بدمشق حتى بدأ المحيطون ببيبرس يحسون الخوف على ابنه ، ويحسون الخوف على أن يمضى هذا الملك عن هذا الابن ، فإذا هم يُخفون موت بيبرس ، وإذا هم يكتبون إلى الابن فى مصر سرا ، وإذا الابن حين يبلغه موت أبيه يخفيه هو الآخر ويكتمه .

ولقد احتال لذلك هؤلاء المحتالون حيلة طريفة تثير الضحك وتثير الرثاء ، وتدلُّك بعد ما تثيره من ضحك وبعد ما تثيره من رثاء ، على مبلغ الخوف فى نفس السلطان الجديد ، وفى نفوس المحيطين بالسلطان الجديد من الناس .

فلقد دخل هؤلاء المحتالون إلى مصر فى موكب كبير ، من تلك المواكب التى كان يخرج بها بيبرس ، وهم يحملون المحفة ، وإذا هم يوهمون الناس أن السلطان فى هذه المحفة مريض ، وإذا هم يشيعون فى الناس ذلك ، وحين أشاعوا ذلك فى الناس .. أوجبوا عليهم الهدوء والسكينة ، حتى لا يزعجوا هذا المريض ، وهدأ الناس وسكنوا وخشعوا وكادوا ينكسون الرؤوس ويحبسون الأنفاس حتى لا يزعجوا هذا السلطان المريض . والناس إن استعصوا مع السلامة .. تلين قلوبهم مع النكبات والعلل ، وهكذا أنسى الناس حقدهم ووقفوا يستقبلون بيبرس ليّنين مستكينين مشفقين متئدين .

ومرّ الركب على الناس فى شوارع القاهرة حتى انتهى إلى قلعة الجبل حيث كان المَلك الجديد محمد ينتظره ، وحين انتهى الركب إلى محمد

كانت الحيلة قد انتهت ، فهاهم الناس قد عرفوا أن السلطان بيبرس جاء من الشام إلى القاهرة محمولا ، وهاهم الناس حين فات عليهم خبر موت السلطان فى الشام .. فات عليهم أن يثوروا بالسلطان الجديد ، وهكذا أفادت الحيلة ، وقضت على استعداد الناس للثورة والتدبير لها .

ولو أن الناس فى مصر علموا أن مليكهم مات فى الثامن والعشرين من المحرم ، بعد صلاة الظهر ، وأن الأمراء أخفوا موته إلى أن دفنوه ليلا حيث لا يعلم الناس ، لو علم الناس هذا .. لكان لهم منذ ذلك اليوم الذى مات فيه بيبرس إلى أن وصل الركب المحتال إلى مصر فى السابع والعشرين من صفر ، متسع يهيئون فيه لأمرهم ويدبّرون ، ولكن .. هكذا مضت الأيام الأربعون ، دون أن يعلم الناس شيئا ، لأنهم خُدعوا فلم يعملوا شيئا .

وحين اطمأن السلطان الجديد واطمأن معه الأمراء ، وحين انتهى الركب آمنا سالما ، ولم يكتشف الناس ما فى المحفة ، وقف محمد يعول ويصرخ معلنا موت أبيه بهذا الصراخ وذاك العويل ، وإذا هو مع هذا الإعلام .. يعلن الأمراء من حوله جلوسه على عرش مصر فى سرعة وعجلة حتى لا يدعوا الزمام يفلت من أيديهم ، وحتى لا يعود الناس إلى تدبر وتفكر .

وكما أُعلن موت بيبرس فى مصر .. أعلن فى الشام ، وجلس الناس للعزاء فى هذا اليوم فى مصر والشام ، منهم من يعلم ما كان ، ومنهم من لم يعلم ، وما أكثر ما يخدع الناس ، وما أكثر ما يظهر الناس أنهم مخدوعون ، وهم على الحالين مفيدون ، والخاسرون هم الخادعون .

وهكذا ملك محمد مصر ، وكانت سنّه عند ما ملك .. نحوا من تسعة عشر عاما ، وحين ولىَ هذا السلطان امتدت يده إلى نفر من الأمراء حوله ممن خافهم على نفسه فسجنهم ، وإلى نفر آخر كان يرضاهم لنفسه فخلع عليهم وأكرمهم .

ولقد استقبل الشعب هذا الملك الجديد كما تستقبل الشعوب الملوك ، تتخذ الشعوب من أيام الملوك الأولى - أعنى أيام التولية - مجالا للهوهم ، لما يصحب تلك الأيام .. أيام التولية من إسراف من الملوك يجر إلى إسراف مثله من الشعب ، فتخال الشعوب أن الملوك عليهم مقبلة ، ويخال الملوك أن الشعوب عليهم مقبلة ، فإذا ما انقضت تلك الأيام وانقضى فيها الإسراف تفتحت العيون على غير ما رأت بالأمس ، فإذا الشعوب ترى الملوك أبعد ما يكون عنها ، وإذا الملوك يرون الشعوب أبعد ما تكون عنها ، وإذا الملوك والشعوب على رأيين مختلفين .

على هذا النحو استقبل الشعب السلطان الجديد : الملك السعيد محمد بن بيبرس ، وما كادت تمضى أيامه الأولى بمباهجها وأفراحها ، حتى أعقبتها أيام ثانية بمساوئها وأتراحها ، فإذا الموالى الأتراك من حول الملك الجديد منقسمون ، وإذا هذا الانقسام يبدأ صغيرا ليكبر ، وضعيفا ليقوى ، وإذا هو حين كبر وقوى يستعصى على الملك الجديد أمره ، ثم يستوى ليملى هو على الملك الجديد أمره ، وإذا هو بعد عامين وشهرين وخمسة عشر يوما مخلوع عن هذا العرش ليتركه لأخيه بدر الدين .

وما كان خلع الملك السعيد عن هذا الشر الطارىء ، فيما يبدو لك ، وإنما كان عن شر قديم فيما يصح لك ، فلقد رأيت بوادر هذا الشر فى ذاك التدبير الذى أحيط به موت بيبرس ، وتلك الحيلة الرخيصة التى دخلوا بها على الشعبين فى دمشق ومصر ، يموت الملك فى دمشق فلا تعلم دمشق موته ، ويدفن الملك فى دمشق فلا تعلم دمشق أنه دفن بها ، وتستقبل القاهرة موكبا حافلا يحيط فيه الجند بمحفة ، فتظن مصر أن الملك المريض بها ، فتخشع قلوبها لهذا الملك المريض ، وتلهج ألسنتها بالدعاء له ، رحمة به وشفقة عليه ، وما أنسى المصريون الرحمة بالضعفاء ولا الشفقة على المرضى على أية صورة كان هؤلاء الضعفاء وأولئك المرضى .

وحين تنتهى تلك الحيلة الرخيصة إلى نهايتها يذاع على الناس فى دمشق ومصر : أن الملك قد مات ، فيقبل الناس فى دمشق والقاهرة معزين فى ملك مات ، مهنئين بملك آت .

ما من شك فى أن هذا دلّك على بوادر الشر ، وعرّفك بأن له خبيئا فى النفوس ، يستتر ليجد الثغرة إلى الظهور ، ولقد كان فى رأس كل مولى من هؤلاء الموالى من هذا الشر جذوة ، والأيام بأحداثها وفرصها تضرم هذه الجذوات كلها ، ما استعر منها قبل غيرها اشتعل ليهيج فتنة وليحرك محنة ، ولقد عرفت كيف انتزع قطز الملك من يدى ابن أيبك ، ثم كيف انتزع بيبرس الملك من قطز ، وقد آن لك أن تعرف سبب انتزاع الملك من يدى محمد بن بيبرس ، أو قد آن لك أن تعرف من هذا الذى انتزع الملك من يدى محمد بن بيبرس .

فهذا العصر الذى ضم قطز وضم بيبرس ضم مولى آخر هو قلاوون ، وكما مسّ الرق قطز ومسّ بيبرس ، مسّ كذلك قلاوون ، وكما خان قطز وخان بيبرس خان قلاوون ، وكما كانت خيانة قطز وخيانة بيبرس لها صفة من الحق ، كذلك كانت خيانة قلاوون لها صفة من الحق .

وأحب لك قبل أن تعرف كيف خلع قلاوون عن الملك محمد بن بيبرس ، أحب لك أن تعرف أن محمد بن بيبرس كان زوجا لابنة قلاوون .

وهكذا دخل قلاوون على هذا الملك حين زوّج ابنته من محمد بن بيبرس من باب ودخل هو من باب آخر .

وحين انقسم الموالى على محمد - كما مرّ بك - ورجحت كفة الموالى ، كان قلاوون على رأس المخالفين ، وكان هو الذى يملى الشروط على محمد ، وهو الذى خلع محمدا ليجعل مكانه أخاه بدر الدين .

وكان عمر بدر الدين حينئذ حوالى سبع سنين ، من أجل ذلك أقام قلاوون نفسه وصيا على هذا الصبى الصغير .

وهكذا دخل قلاوون إلى هذا الملك من باب ثالث ، ولقد كان فى مقدوره حين خلع محمدا أن يضع نفسه مكانه ، ولكنه فعل ما فعل قطز من قبل حين أراد أن يلبس خيانته صفة من الحق ، كما قلت لك ، فخلع كبيرا ليولى صغيرا ، وليقيم نفسه إلى جانب هذا الصغير .

ولقد كان قطز أجرأ من قلاوون ، وكانت خيانته أقرب إلى الحق من خيانة قلاوون ، فلقد رآها قطز محنة تحيط بالبلاد ، ورأى مَلِكه الصغير لا يقوى لها ، فخلعه لِيَلى هو مكانه .

ولكن قلاوون أثارها فتنة ، ما نشك فى ذلك ، وجعل مقاد هذه الفتنة فى يديه ليبلغ بها ما يريد .

ولقد كان لقلاوون من صهر محمد إليه ما يجعله يقف إلى جانبه لا عليه ، ولكنه أراد أن يلبس الخيانة ثوبا من الحقيقة فوقف من صهره هذا الموقف .

وحين عزل قلاوون صهره .. منعته هذه المصاهرة من أن يمعن فى إيذائه ، إبقاء منه على راحة ابنته ، فأعطاه الكرك وما إليها .

وخرج محمد إلى الكرك غير ناس ما كان من قلاوون ، فمدّ يده بالعطاء إلى من يقصده من المماليك ، يريد أن تكون له بهم قوة .

ويحس قلاوون ما كان من صهره ، وما كان عن ذلك التدبير ببعيد ، فيرسل إليه من يسمه ، لا تعنيه فى هذه الحال راحة ابنته ليثبت هو ملكه ؛ فإذا محمد ميت وإذا الزوجة والبنت حزينة على زوجها حزنا عميقا ، مبعدة عن أبيها بعدا بعيدا ، وإذا هى يغلبها الحزن فلا تقوى له ،

فتموت بعد زوجها بتسع سنين ، فلقد مات زوجها سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وماتت هى سنة سبع وثمانين وستمائة .

وحين خلا قلاوون ببدر الدين .. جعل الأمر أولا بينهما شركة ، فيما يبدو ، ولكنه كان له كله فى الحقيقة ، فلقد بدأ قلاوون أمره حين بدأ مع بدر الدين يكتب اسمه على وجه من السكة ويكتب اسم بدر الدين على الوجه الآخر ، وكما يخطب لبدر الدين على المنابر يخطب لقلاوون على المنابر .

وهكذا بدأ قلاوون حياته مع بدر الدين شركة فى كل شىء ، لم يترك له من شئون الملك الظاهرة شيئا لم يشاركه فيه ، ولكن شئون الملك الأخرى غير الظاهرة فقد كانت لقلاوون كلها ، لم يترك قلاوون لبدر الدين منها شيئا .

ولكن قلاوون على هذا لم يرضه ما أُعطى ولم يقنعه ما أخذ ، ورأى الأمور أيسر من أن يكلف نفسه لها هذا الجهد وهذا التفريط فيما فرط فيه ، فإذا هو يشمر لإبعاد هذا الصبى الصغير كما أبعد من قبله أخاه الكبير ، وإذا هو يجمع إليه الأمراء والقضاة والأعيان يشهدهم على خلع الصغير ، كما جمعهم إليه من قبل يشهدهم على خلع الكبير ، وكما رضى القضاة والأمراء والأعيان الأولى .. رضوا أيضا الثانية .

وأكبر الظن أن شهود الأمس كانوا هم شهود اليوم ، فلم يكن قد مضى بين الأولى والثانية غير أشهر ، فلقد خلع الأخ الأكبر فى السابع عشر من ربيع الآخر ، وفى هذا اليوم جلس الأخ الأصغر ، وفى الحادى والعشرين من رجب خلع الملك الصغير ليجلس قلاوون مكانه على العرش ، وما جلس هذا الملك الصغير على العرش إلا ثلاثة أشهر وستة أيام ، كان فيها سلطانا غير سلطان ، وكأنه جاء ليمهد السبيل لقلاوون ، ولقد مهّده مشكورا أو مذموما ، فما كان يملك غير أن يفعل ما أريد به .

ويجلس قلاوون على عرش مصر ليلقى المماليك ثائرين عليه ، وليلقى على رأس هؤلاء الثائرين نائبه على الشام سنجر ، وكان نائب الشام هذا قد أعلن نفسه ملكا على الشام وتلقب بالملك الكامل .

وتقع الحروب بين الملك المنصور قلاوون ، وبين الملك الكامل سنجر ، يخرج قلاوون بعسكر مصر ، ويخرج سنجر بعسكر الشام ، يلقى الإخوان ، يحارب بعضهم بعضا ، ويقتل بعضهم بعضا ، وما لهذه وتلك خُلِق جند مصر وجند الشام ، وإنما خلق هؤلاء وهؤلاء فى ظل الدولة العربية الموحدة ليكونوا يدا واحدة وحربا على ذلك العدو الذى كان لا يزال رابضا فيما وراء الحدود فى العراق والجزيرة والموصل وإربل وآذربيجان وديار بكر وخوزستان والعجم ، أعنى التتار والروم ، فلقد كانت تلك البلاد بأيدى هؤلاء الأعداء ، وكان العرب لا يزالون فى حاجة إلى جمع الصفوف ، وتوحيد الكلمة ، ليأمنوا شر هؤلاء أو ليزيحوا هؤلاء من أرضهم .

ولكن أحوال الدولة العربية المفككة لم تكن تملى غير هذا من خلاف .

ولقد كرت جيوش مصر على جيوش الشام ، وكرت جيوش الشام على جيوش مصر ، يقتل هؤلاء من هؤلاء ، ويقتل هؤلاء من هؤلاء ، إلى أن كاد أن يكتب النصر لقلاوون على سنجر .

وكاد سنجر بعد أن أمعن فرارا فى البلاد أن يسلم أمره إلى قلاوون ، فإذا التتار يهبون قاصدين الشام ، وإذا الجيوش المصرية التى كانت قد خرجت تلاحق سنجر تستعد لمواجهة التتار .

وما هبّ التتار هبتهم تلك إلا حين علموا باختلاف الكلمة بين سنجر وقلاوون ، وحين خالوا أنهم قد يكسبون سنجر إلى جانبهم ويستعينون به على قلاوون .

فكّر التتار فى ذلك حين هبوا هبتهم تلك ، ما فى ذلك شك ، وفكر المسلمون فى أنه لو تحقق للتتار ما أرادوا .. كانت الطامة الكبرى ، وكانت الهزيمة المنكرة .

ومن قبل أن يرسل التتار إلى سنجر يطلبون منه ما يريدون ، أرسل المصريون إلى سنجر يحذرونه ما قد يكون ، ويقولون له : إن هذا العدو قد دهمنا لا عن سبب إلا الخلف بيننا ، وقبيح أن يصاب الإسلام بسوء ، والخير فى أن نجتمع معا على دفع العدو .

وسنجر الذى خرج على قلاوون ما كان له أن يخرج على ذلك الرجاء ، وإلا عاش سبة ومات سبة .

ثم كان هناك شيء آخر ألان سنجر لذلك الرجاء ، فأنت تعلم أن سنجر كان قد انتهت حاله إلى التسليم ، كما مرّ بك ، وحين كاد يذل .. استنهضه هؤلاء الراجون برجائهم ، فتعلق سنجر بهذا الرجاء ، وانضم بعسكره إلى عسكر قلاوون ليكونوا معا حربا على التتار .

ويكتب الله النصر للمسلمين على التتار ، ويخرج التتار من الشام فارين لا يلوون على شيء ، ويتم الوفاق بين قلاوون وسنجر ، على أن يأخذ سنجر شيئا وينزل عن شيء .

ثم كانت بعد ذلك وقعات وحروب بين التتار والمسلمين ، واجه فيها المسلمون تلك الحروب وكلمتهم موحدة ، وصفوفهم مجتمعة ، فكانت لهم على التتار فى تلك الحروب أيام وأيام ، خرج منها المسلمون منتصرين ، وخرج منها التتار مخذولين .

غير أن الأيام التى أصلحت ما بين قلاوون وسنجر قلاوون عادت فأفسدت ما بينهما ، وانتهى الأمر بهما إلى أن قوى قلاوون فأملى ما يحب على سنجر ، وضعف سنجر فأجاب قلاوون إلى ما طلب .

وامتد سلطان قلاوون ، وضم إليه ما حوله ، ونال من خصومه وأعدائه ، فقسا على بعضهم لِيَلين ، ومدّ يده بالعطاء لبعضهم الآخر ليذل .

غير أن الأيام لم تمهله طويلا فألح عليه المرض ، وحين ألح عليه المرض ضعف ، فاستسلم للموت فى السادس من ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة بعد أن حكم نحوا من اثنى عشر عاما ، ترك بعدها عرش مصر لِيَلِيَه من بعده الملك الأشرف خليل .

– ١٢ –

ولقد مهد قلاوون لابنه الأشرف قبل أن يموت ، وكان قلاوون بعد أن آل ملك مصر إليه ، أو بعد أن انتزع ملك مصر ، يريد أن يجعل هذا الملك إرثا فى أبنائه ، فأقام فيه وهو حى ابنه الصالح على ، ولكن هذا الابن لم يلبث أن اختطفه الموت فى حياة أبيه فأخلى بذلك السبيل لأخيه الأشرف .

وما يعنينا ما يقوله المؤرخون من أن قلاوون كان غير راغب فى أن يولى خليلا الملك من بعده ، فما نظن الأب الذى جاد بهذا الملك يعطيه لابن من أبنائه .. يعود فيبخل به على ابن له آخر ، وما نظن أن الأشرف كان على صورة تبغض أباه فيه بغضا يمنع الأب عن أن يرى هذا الملك ممتدا فى أبنائه ، ولكن الذى نظنه ، إن صح ما يقوله المؤرخون .. أن شيئا من التنافر كان حين أراد الأب أن يولى الابن ، وصحب هذا شىء من القيل والقال ، جرى على لسان الوالد والولد فظنه الناس إباء من الوالد لا رجوع فيه ، ولو فطن الناس لعرفوا هذا الإباء على حقيقته ، ولعرفوه إباء يستحيل رضا فى طرفة عين ، ولقد استحال هذا الإباء رضا فى طرفة عين وأصبح الأشرف وليا لأبيه على هذه الديار ، ولاه أبوه إياها غير مكره ولا مضطر ، وجلس الأشرف على عرش مصر ، وكان الثامن من ملوك الأتراك الذين وُلُّوا هذا العرش .

وحين خلص للأشرف هذا الملك بعد وفاة أبيه خرج ينفذ ما كان أبوه قد بدأ فيه من حروب مع الفرنجة ، وكانت له فى تلك الحروب جولات نال فيها من الفرنجة ونال الفرنجة منه ، ولكن ما ناله الأشرف من الفرنجة كان أكثر مما ناله الفرنجة منه .

وكان للأشرف بعد ذلك ما يكون للسلاطين عادة من نيل من الأعداء وتقريب للأصدقاء ، يفعلون هذا وذاك عن هوى فى الكثير من الأحيان ، ويفعلونه عن حق فى القليل من الأحيان ، وكثيرا ما يجُرّ هذا الذى يفعله الملوك عن هوى - عليهم وبالا كثيرا ، وهكذا جر هذا الذى فعله الأشرف - عن هوى - عليه ذلك الوبال ، فإذا هو يحيط به نفر من الأمراء فى مكان قد اختاره للصيد واللهو ، وإذا هؤلاء الأمراء يشهرون عليه سيوفهم ، وإذا واحد منهم اسمه بيدر ، وكان نائب السلطنة ، يتقدم من الأشرف ويضربه بالسيف ضربة يقطع بها يده مع كتفه .

وإن الذى أطمع بيدرا فى أن يفعل ما كان .. هو الذى أطمع هؤلاء الملوك الأتراك الذين مروا بك ، فى أن يفعلوا ما فعلوا ، فما شهر بيدر السيف على الأشرف ليثأر للشعب من ظلم نال به الأشرف من الشعب ، ولكنه حين شهر هذا السيف يضرب به الأشرف .. كان يريد أن يزيح الأشرف من مكانه ليجلس هو مكانه .

ولقد علم هذه من بيدر أمير إلى جواره ، كان من بين الأمراء الذين اجتمعوا مع بيدر لقتل الأشرف ، وحين رأى هذا الأمير ، وأحب أن أسميه لك باسمه ، وقد يطالعنا بعد حين ، فلقد كان اسم هذا الأمير حسام الدين لاجين .

فحين رأى حسام الدين من بيدر ما فعل ، وكان يعلم نيته ويعلم قصده ، تقدم منه وهو يقول له : من يريد ملك مصر والشام لا تكون هذه ضربته ، وشهر سيفه يضرب به الأشرف ضربة وقع بها الأشرف على الأرض .

وحين فعل حسام الدين هذا بالأشرف أفسح السبيل أمام الأمراء الذين كانوا معه .. فبادر كل منهم يفعل بالأشرف ما عنّ له ، فإذا هم يمثلون به تمثيلا يعف القلم عن أن يذكر شيئا منه ، ولكنها شهوة الحكم تعمى وتصم ، ثم هو الطمع الدنس يزيد القلوب عمى وضلالة ، ثم هو الفساد المفسد بعد الطمع الدنث يحمل أصحابه على أن ينسوا الرحمة كلها فلا يذكرون منها شيئا .

وحين فرغ الأمراء من قتل الأشرف ، والتمثيل به .. التفوا ببيدر ينادون به سلطانا . ويركب بيدر ويركب معه الأمراء طالبين القاهرة ، ليطالعوها بهذا السلطان الجديد .

والقاهرة التى صبرت لهذه الفوضى حين بدأت .. صبرت لهذه الفوضى حين امتدت .. تحب أن يأكل بعضها بعضا ، ولا تحب أن تأكلها هى هذه الفوضى .

ولكن بيدر لم يبلغ القاهرة ، ولم يأنس بهذا الملك الذى أراده ، وما استمتع به غير خطوات قضاها فى الطريق على ظهر جواده قاصدا القاهرة ، فلقد خرج عليه فى هذا الطريق قبل أن يقدم إلى القاهرة ، جماعة من عسكر الأشرف وعلى رأسهم أمير آخر ، أحب لك أن تعرف اسمه ، فقد يطالعنا هو الآخر بعد ذلك ، فلقد كان اسم هذا الأمير حسام الدين الأستادار .

وحين لقى الأستادار بجنده جند بيدر كانت الهزيمة على ببيدر ، وإذا جندا لأشرف وعلى رأسهم أميرهم الأستادار يفعلون ببيدر ما فعله بيدر بالأشرف ، فيقطعون يده كما قطع هو يد الأشرف ، ثم يقطعون رأسه ، ويحملون هذا الرأس على رمح ، يقصدون القاهرة .

وهكذا على هذه الصورة دخل بيدر القاهرة ، لم يدخلها ملكا فى موكب ، وإنما دخلها رأسا على رمح .

والقاهريون صابرون لهذه الفوضى .. قانعون بما قدروا لها وأنها سوف يأكل بعضها بعضا .

وحين انتهى جند الأشرف إلى هذا .. التفوا بأخ للأشرف صغير ، هو الناصر محمد بن قلاوون ، فأجلسوه على العرش مكان أخيه الأشرف .

وهكذا جلس الأشرف على العرش سنة تسع وثمانين وستمائة .. وخرج عن هذا العرش مقتولا سنة ثلاث وتسعين وستمائة ليجلس عليه أخوه محمد .

- ١٣ -

ولقد كان محمد ، يوم أن ولى عرش مصر ، أو يوم أن ولاه الأمراء عرش مصر ، صبيا فى التاسعة من عمره ، وحين ولِىَ محمد أبْعَدَ وقرّب ، وعزل وولّى ، أو قل فُعل ذلك كله باسمه ، فلم يكن الصبى الصغير يملك أن يفعل من ذلك كله شيئا ، غير أنه باء بإثم ذلك كله وبخيره ، إن كان ثمة خير فيما فعل باسمه .

ولقد كان ولىّ هذا كله الذى صدر باسم هذا الصبى الصغير .. لمصر أمير من أمراء الأتراك ، كان هو نائب السلطنة بمصر ، وكان اسمه كتبغا .

ولقد مضى كتبغا هذا يحكم مصر باسم هذا الملك الصغير ، الأمور كلها إليه يمضيها كما يشاء ، ثم يمهرها باسم الملك الصغير ، يعطى ويأخذ ، وما من شك فى أنه كان يدبر لأن يأخذ ولا يعطى ، شأن غيره من نواب سبقوا ، مرّ بك حديثهم ، كانوا أمناء على السلاطين الصغار حين حكم هؤلاء السلاطين الصغار ، ثم إذا هم يخلعون الأمانة عن أعناقهم ، ويتنكرون لمن كانوا أمناء لهم ، ويستبدون بالملك دونهم ، ثم لا يتورعون أن يخلعوا أو يقتلوا .

وما نشك فى أن كتبغا الذى بدأ نائبا لمحمد هذا الملك الصغير ، والذى

بدأ راعيا له ، كان يطمع هو الآخر فى أن يستأثر بالملك دون هذا الصغير ، ولقد بدأ حياته مع هذا الملك الصغير يدبر له فى ظاهر الأمر .. وهو يدبر لنفسه ، وحين قَتل كتبغا من قتل من أمراء .. قتلهم باسم الخلاف على هذا الملك الصغير ، فى ظاهر الأمر ، وباسم الخلاف عليه فى باطن الأمر .

ولقد مرّ بك خبر هذا الأمير الذى شارك فى قتل الأشرف ، والذى ذكرناه لك هناك لنذكره لك هنا ، ألا وهو حسام الدين لاجين ، الذى ذكرنا لك كلمته هناك لنذكرها لك هنا ، حين قال لبيدر قاتل الأشرف ، وهو يضرب الأشرف بسيفه : من يريد ملك مصر لا تكون هذه ضربته .

فلقد نجا هذا الأمير من أن يقتل ، ونجا من أن تقع عليه يد كتبغا ، وظل يفر من هنا إلى هناك ، حتى إذا ما أمن شيئا قوى شيئا ، وحين قوى شيئا خافه كتبغا وعاد كتبغا يريد أن يسالمه ليأمن ، وما نظن كتبغا كان يريده سلما دائما مع حسام الدين لاجين ، ولكنه كان يريده سلما إلى حين .

على هذا صالح كتبغا حسام الدين ، ولهذا سعى كتبغا لدى الملك الصغير ، وكان قد شبّ شيئا ، ليزيل ما فى نفسه على حسام الدين لاجين .

وكما أنسى كتبغا ما فعله حسام الدين لاجين أنسى الملك الصغير أيضا ما فعله حسام الدين لاجين ، وهل كان يملك الملك الصغير إلا أن ينسى حتى مالا يليق به أن ينساه ، ولكنه كان صغيرا فى كل شىء ، صغير السن ، صغير العقل ، صغير الفعل ، وحين تجتمع هذه كلها فى ملك حكم الناس باسمه وحكّموه هم .. فيكون محكوما شبه حاكم .

وهكذا عاش الملك الصغير ، وحين رضى هذا الملك الصغير عن قاتل

أخيه ، أو حين أرضاه كتبغا عن قاتل أخيه . أحب هذا الملك الصغير أن يظهر رضاه كاملا عن قاتل أخيه ، فأهدى إليه وأنعم عليه .

ولو وقف هذا الملك الصغير عند الرضا ، فلم يُهد ، ولم يعط ، لسكت الناس عنه ولم يقولوا شيئا .

ولقد كان حريا بالناس أن يسكتوا عنه لا يقولون شيئا ، إذ كان عليهم حين غفروا له رضاه أن يغفروا له إنفاقه ، فما صدر الرضا كما لم يصدر الإنعام عن أمر الملك الصغير أو عن خياره ، وإنما صدر هذا وذاك عن أمر كتبغا وخياره .

والشيء الذى لم يغضب له الملك الصغير غضب له جند هذا الملك الصغير ، والفرق كبير بين صلة هؤلاء الجند بالملك الأشرف المقتول وبين صلة الملك الصغير محمد بالأشرف ، فلقد كان هؤلاء جند فحسب ، يأجرهم كل ملك ، وكما يكونون مع هذا .. يكونون مع ذاك ، ولكن محمدا كان أخا للأشرف وكان الأشرف أخا له ، وما يرعاه الجند عيب أن لا يرعاه الأخ ، ولكن هكذا أنسى الأخ وذكر الجند ، فإذا هم يثورون ، وإذا هم يخرجون على هذا الملك الضعيف .

ولعله كانت من وراء ذلك فتنة أراد أن يفيد منها أمير من الأمراء ، متحينا هذه الفرصة ، فرصة ضعف الملك واستكانته .. فأثار الجند باسم هذا الضعف .. وباسم هذه الاستكانة ، ليخلص الأمر له .

فنحن نعرف أن الجند إن ملكوا العاطفة .. فلا يملكون الوعى الذى يدبرون به لثورة ، ولقد كان كتبغا قويا حين قضى على هؤلاء الثائرين ، أو حين قضى على هذا الثائر الذى أثار هؤلاء الثائرين ، وإذا هو تغريه هذه القوة بخطوة أخرى ، وكانت الخطوة الأخرى هى .. أن ينزع هذا الصغير من ملكه بعد أن قضى على هذا الثائر .

وكان حسام الدين لاجين من وراء كتبغا ، يغريه بذلك ويزين له ما يفعل ، ليرى كتبغا أن حسام الدين يجازيه على ما فعل به حين أحسن إليه وحين أصلح بينه وبين الملك ، إحسانا بإحسان .

وارتاحت نفس كتبغا لهذا الذى أغراه به حسام الدين لاجين ، والنفوس حين تجد ما تغرى به مُلكا أو شبه مُلك ترتاح ، لا تذكر ما عليها وإنما تذكر ما لها ، وهكذا ذكر كتبغا ما له ولم يذكر ما عليه .

وما كان حسام الدين يريد أن يهيىء لكتبغا ، ليبادله إحسانا بإحسان ، وإنما كان يريد أن يهيىء لنفسه ، يريد أن يسخر هذا الذى أحسن إليه ، ثانيا كما سخره أولا ، فلقد سخره أولا فى إرضاء المَلِك عنه ، وها هو ذا يريد أن يسخره ثانيا فى أن يجعله يخلع هذا الملك بيديه ، وكما قتل أخاه الأشرف بيده .. أراد أن يقتل الأخ الآخر محمدا بيد كتبغا ، وكأنه حين جرّب الدخول فى الفتنة علانية فباء بغضبها .. أراد أن يدخل فيها سرا ، ليجعل غيره يبوء بغضبها ، ويخرج هو بغنمها .

وهكذا أفادت التجربة حسام الدين لاجين ، ووجد من صديقه كتبغا رجلا غرا ، من اليسير تسخيره ، ومن اليسير تذليله ، فركبه ينفذ باسمه ما يشاء ، كما ركب كتبغا الملك الصغير محمدا ينفذ باسمه ما يشاء .

ولقد كانت الأمور كلها تغرى كتبغا ، فالملك صغير لا يملك شيئا ، والأمور كلها فى يدى كتبغا ، وها هو ذا حسام الدين لاجين يناصره .

وحين اجتمع ذلك كله فى رأس كتبغا أخذ يسعى فى خلع الملك فجمع إليه القضاة والأمراء يعرض عليهم ما عَنَّ له ، وإذا القضاة والأمراء يرضون ما عرض عليهم كتبغا لا يملكون أن يخالفوا عن أمره ، كما لم يخالف الملك الصغير عن أمره .

كان هذا أسلوب العصر ، من أجل ذلك لم تستقم لهذا العصر حياته ، وإذا الملك الصغير مخلوع عن هذا العرش الذى لم يستمتع بالجلوس عليه غير عام تنقصه أيام ، خُلع عنه ليجلس فيه مكانه نائبه الذى أقيم إلى جانبه ليحميه .

- ١٤ -

وهكذا دخل كتبغا الحُكم ، ودخل إلى الملك ، وإن كنت تحب أن تعرف شيئا عن كتبغا ، فاعرف أنه كان من التتار ، وأنه سُبِىَ فيمن سبى منهم ، فى وقعة كانت بين التتار والمسلمين ، سنة تسع وخمسين وستمائة .

ولقد أخذه الملك المنصور قلاوون فأدبه ثم أعتقه وجعله من جملة مماليكه ، وما زال كتبغا يرقى حتى صار أميرا من أكابر الأمراء ، وإذا هو حين يُقتل الأشرف .. يخرج على رأس الثائرين لمقتل الأشرف .. يريد أن ينتقم لابن مولاه ، وإذا هو حين يقتل قاتل الأشرف .. يرقى درجة أخرى فيصبح نائبا عن الملك الصغير الذى ولاه ، وإذا هو حين يصبح نائبا يطمع فى أخرى أرقى منها ، ويغريه هذا الطمع بأن ينسى أمانته التى صعدت به فى هذه السبيل الصاعدة ، وينسى وفاءه الذى لفّ حبله بحبل هؤلاء الذين أحسنوا إليه ووفوا له .

وما نسى كتبغا حسام الدين لاجين حين خلص له الملك ، وما وجد شيئا يجازيه به غير هذا الذى جازاه به الملك المخلوع ، فكما جعل الملك المخلوع كتبغا نائبا ، جعل كتبغا حسام الدين لاجين نائبا له ، وكما أغرت النيابة كتبغا بسلطانه ، فقد أغرت النيابة حسام الدين بسلطانه كتبغا .

فوضى .. ما كان بمقدور هذا العهد أن يتحلل منها ، يملى بعضها بعضا ، ولا تكاد تنتهى فتنة، حتى تثور فتنة ، فهذه الشرذمة من الأتراك كان أفرادها كلهم طامعين فى الملك ، يدخل أحدهم الحياة جنديا

مملوكا ، ويخرج من الحياة ملكا أو شبه ملك ، لا يكلفه هذا سعى طويل ، فالحياة أمامهم معبدة باسم تركيتهم ، يرقّون بها من الجندية إلى الإمارة ، ويقوون بها على أن يضموا إليهم نفرا منهم .. يصبحون بهم قوة ، ويصبحون بهم قادرين على أن يثيروا شغبا ، وقادرين على أن يحدثوا فتنة ، وقادرين على أن يقتلوا ليبلغوا ما يريدون .

واستقبل كتبغا حياته الجديدة ملكا .. إلى جانبه خليفة للمسلمين ، هو الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد الهاشمى .

ولقد مرّ بك حديث انتقال الخلافة من بغداد إلى مصر ، ومر بك أن هذه الخلافة لم تؤت ثمرتها ، وأنها كانت اسما لا يحمل فعلا ، وكانت رمزا لا ينطوى على حقيقة ، لم يفد العالم العربى منها شيئا ، كما كانت مصر ترجو حين نقلت هذه الخلافة إليها ، فلقد كان الرجاء أن تحكم مصر العالم العربى باسم الخليفة فى مقره الجديد ، فإذا العالم العربى لا يدين بالطاعة للخليفة فى مقره الجديد ، ولم ينطو العالم العربى تحت راية الخلافة فى مقرها الجديد كما كانت ترجو مصر ، وقد حرصت طيلة حياتها الماضية على أن تبقى الخلافة قوية لتبقى كلمة المسلمين متحدة قوية ، فعاشت مصر عمرها توالى مَنْ والى الخليفة ، وتعادى من عادى الخليفة ، تصبر للأذى والمكروه .. حرصا على بقاء الحبل موصولا بالخلافة .

ومصر حين رحبت بالخلافة تفسح لها صدرها ، بعد أن ضاق صدر بغداد بها ، كانت ترجو وتأمل أن تبقى الخلافة لا رمزا فارغا كما آل إليه أمرها ، بل رمزا وحقيقة ، كانت مصر تريد أن تعيد بالخلافة سيرتها الأولى أيام أن كانت الخلافة بالمسلمين قوة ، وكان المسلمون بالخلافة قوة، ولكن الأيام التى جادت بخلفاء أقوياء وبأمة قوية ، عادت فجادت بخلفاء ضعفاء وأمة ضعيفة منقسمة الكلمة .

من أجل هذا .. لم تعط الخلافة – فى مقرها الجديد – ما كان يرجو

منها المصريون ، كما لم يعط المسلمون - فى أنحاء العالم العربى - الخلافة ماكان يرجو منهم المصريون .

ولعل المصريين حين صبروا بهؤلاء الولاة الأتراك .. لم يصبروا لهم عن ضعف وإنما صبروا لهم عن أمل ورجاء ، فلقد كانوا يرجون ويأملون لهذه الخلافة أن تحيا لتحيا كلمة المسلمين موحدة بها ، فنظروا لتلك القضية العامة نظرتهم لها من قبل ، يؤثرونها على قضيتهم الخاصة .

وهكذا كان المصريون كلما خرجوا من تجربة أغرتهم تجربة ، لا يكادون ييأسون حتى يأملون ، وكانوا فى أملهم أقوى منهم فى يأسهم ، لأنهم أمة تؤمن بالحياة ، وتؤمن بالعزة ، وتؤمن بالكرامة ، ومن آمن بهذا كله اطرح اليأس ، وحمل التضحية لا يثنيه مضضها ، ولا يرجعه عنها بلاؤها .

وكما لم يفد العالم العربى من هذه الخلافة فى مقرها الجديد .. لم تفد مصر من هذه الخلافة فى مقرها الجديد ، وكان الذى أفاد منها .. هم هؤلاء الولاة الأتراك ، أفادوا منها تأييدا لظلمهم وعسفهم ، وأفادوا منها إقرارا لعدوانهم وبغيهم ، فكان إذا عدا منهم عاد ، أو بغى منهم باغ ، وجد الخليفة إلى جانبه ، يؤيد هذا البغى ويقر ذاك العدوان .

وكما احترم المصريون الخلافة فى قوتها احترموها فى ضعفها ، وكما أطاعوها حين استقامت راضين ، أطاعوها حين لم تستقم قلقين ، ولكنها طاعة على كل حال ، لم يستطيعوا أن يتحللوا منها ، لأنهم يخشون أن يجرهم التحلل من شيء إلى التحلل من أشياء ، وكانوا يخشون إن هم تنكروا لأمر من أوامر الخليفة أن يجرهم هذا إلى التنكر لأوامر الخليفة كلها ، ثم إلى التنكر للخلافة ، من أجل ذلك .. صبر المصريون للخلافة حين حادت ولم تستقم على الطريق ، وتركوا لهؤلاء الولاة الأتراك يفيدون منها كما شاءوا ، ومن أجل ذلك صبر المصريون لهؤلاء الولاة الأتراك لأنهم

رأوهم مؤيدين باسم الخلافة ، وما كان من شيء أبغض إلى نفوس المصريين من أن يعزى إليهم نكوص أو تخلف عن أمر الخلافة .

ولقد عرفت أن كتبغا حين أصبح سلطانا .. أعطى حسام الدين لاجين النيابة عنه ، جزاء وفاقا بما وفّى به له ، وجزاء وفاقا لما أشار به عليه من خروج على مولاه .

ولقد أشرت إليك فيما مضى أن حسام الدين لاجين لم يفعل هذا حبا فى كتبغا ، وإنما فعله حبا لنفسه ، فلقد مهد لكتبغا ليوفر على نفسه عناء وليكون أقرب إلى النجح .

وحين ضمن حسام الدين لاجين هذا التمهيد ، وحين رأى الأمن ورأى الفرصة وثب بالسلطان كتبغا ، وقبل أن يثب به قتل نفرا من رجاله - أعنى من رجال كتبغا - ولف حوله رجالا آخرين ، اقتحم بهم مخيم كتبغا على غرة ، فإذا كتبغا ضعيف لا يقوى بمن حوله على حسام الدين بمن معه .

فركب كتبغا فرسا له وفرّ إلى الشام ، وحين فر كتبغا إلى الشام خلا الجو لحسام الدين لاجين ، فأقام نفسه على مصر سلطانا ، ولقب نفسه بالملك المنصور .

وما ملك كتبغا أن يفعل بعد ذلك شيئا ذا بال ، بل سرعان ما أذعن بالطاعة لحسام الدين ، وسرعان ما أذعن الناس معه بالطاعة لحسام الدين ، وما نظن الخليفة إلا أيد الملك الجديد .. كما أيد الملك المخلوع ، وأخذ أجره من الملك الجديد .. كما أخذ أجره من قبل من الملك المخلوع ، لا ندرى كم كان ، ولكنا ندرى أنه كان إفساحا له فى أن يحيا ، وإرخاء له فى أن يعيش فى بسطة ورغد .

ومضى كتبغا وما حكم مصر غير سنتين وأياما ، تاركا عرش مصر ليخلفه عليه غادر جديد غدر به . كما غدر هو بمن قبله .

ولم تختلف نشأة حسام الدين لاجين عن نشأة هؤلاء الموالى الذين سبقوه ، فلقد كان مملوكا كما كانوا هم مماليك ، وكما اشتراه سادة نشّئوهم وأفسحوا لهم الطريق إلى الحكم ، اشتراه هو سيد من السادة نشأه وهيأ له السبيل إلى الحكم .

فلقد اشتراه المنصور قلاوون ، وبعد أن رباه أعتقه ، وبعد أن أعتقه رقاه وجعله من جملة أتباعه ، ثم بعد ذلك جعله نائبا له على قلعة دمشق .

ومضت الأيام تفسح لحسام الدين ، ولقد مر بك تآمره مع بيدر على قتل الأشرف ، ثم اختفاؤه خوفا من أن يناله الجزاء ، ثم تمهيد كتبغا له وتأمينه إياه وتقريبه من الناصر محمد بن قلاوون ، ثم تآمره مع كتبغا على الناصر محمد بن قلاوون ، ثم ما كان من كتبغا إليه حين جعله نائب سلطنته ، بل قيم مملكته ، ثم ما كان من حسام الدين من نكران للجميل وعدوان على كتبغا واستخلاصه للملك منه .

وكان هذا المولى حسام الدين .. هو السلطان الحادى عشر من السلاطين الأتراك فى مصر ، ولى عرشها سنة ست وتسعين وستمائة ، وحين ولى هذا العرش .. فعل ما فعل غيره من قبل ، فولى وعزل وأنعم وأساء وعفا ، وعاقب ، غير أن حسام الدين كانت وحشته من الأمراء من حوله أكثر من الأنس بهم ، ومن غدر خاف الغدر ، ومن خاف الغدر استوحش ، ومن استوحش اشتط فى تأمين نفسه ، ومن يشتط فى تأمين نفسه لا يملى عن عقل ، فإذا حسام الدين حين أراد أن يحيط نفسه بالأمن أحاطها بالخ ، ، وإذا هو حين أراد أن يغلق أبوابا للشر .. فتح على نفسه أبوابا كثيرة لذلك الشر .

فلقد استوحش حسام الدين من الأمراء ، فقبض على الكثير منهم ، كما

قبض على الكثير من غيرهم ، فإذا هو حين ظن أنه قد أمن .. أثار حوله خوفا كثيرا ، ولو أنه ملك أن يقنع فيرضى .. لا أن يعاقب فيسخط ، لملك الأمن كله .

فلقد قيل إن الأمراء حين التفوا به يعينونه على كتبغا .. شرطوا عليه شروطا ، فقد طلبوا إليه حين يلى .. ألا يسيىء الولاية ، فلا يقدم صغيرا على كبير .

فإذا حسام الدين حين ولى .. قد أنسى تلك الشروط ، وإذا هو يقدم مملوكا له - يدعى : منكوتمر -على الأمراء ، وإذا هذا المملوك يكاد يستأثر بالأمر دون السلطان ، وإذا هذا المملوك يغلو فى استبداده ويغلو فى استئثاره ، وإذا هو حين يجد بيد واحد من الناس مرسوما أو توقيعا لم يشر فيه إلى اسمه وانما باسم السلطان وحده ، أخذ ذلك المرسوم أو ذلك التوقيع ، من يد صاحبه ومزقه على ملأ من الناس ، أو رده على السلطان .

كان هذا الذى يحكيه المؤرخون عن حسام الدين مظهرا من مظاهر إخلال حسام الدين بشروطه ، حين قدم هذا الصغير على الكبار ، كما كان مظهرا لضعف حسام الدين .. ضعفا لا يسكت عليه ، وضعفا يطمع فيه الناس ، ويشجع الخائفين منه على الثورة به .

وهكذا أنهى هذا المولى منكوتمر حياة حسام الدين عجلة ، وأثار الناس عليه عجلين ، وإذا الأمراء قد أجعموا أمرهم على قتل حسام الدين ، وإذا هم يدخلون عليه وهو يصلى العشاء ويقتلونه ، وإذا حسام الدين قد خرج من الملك مغدورا به كما دخله غادرا بصاحبه .

وإذا هؤلاء الأمراء كما قتلوا حسام الدين يقتلون مولاه منكوتمر ، وإذا هم يطلبون الناصر محمد بن قلاوون ، هذا الملك الصغير الذى كان قد خلعه كتبغا مستعينا بحسام الدين ليجلسوه على عرش مصر .

وما حكم حسام الدين غير سنتين وأشهرا ثلاثة ، ما نظنه أدرك أن يفعل فيها شيئا غير النيل من خصومه وما كاد ، فلقد ثار به خصومه وقتلوه ، وخرج من الدنيا لا يعرف النّاس عنه غير أنه غدر وغُدر به .

– ١٦ –

وهكذا قدر للملك الصغير المخلوع بالأمس أن يعود إلى الملك اليوم ، وكان بين أمسه ويومه أربعة أعوام تزيد أشهرا ، قضى بعضا منها فى قلعة الجبل ، وبعضا منها بالكرك ، إلى أن كتبت له تلك العودة ، وعاد ليحكم مصر ثانية ، يتوج هذا الحكم الخليفة الذى توج من قبل حكم كتبغا ، وتوج من بعده حكم حسام الدين ، رضى هذا الخليفة لنفسه ، ورضيه الناس له ، لم يطلب الخليفة على هذا مزيدا ، ولم يطلب الناس من الخليفة مزيدا ، ولكن المصريين الذين صبروا لهذا كله كانوا يطلبون للخليفة مزيدا على هذا كله ، فأرْخَوْا لصبرهم ينتظرون ، لعل الأيام تسعفهم بهذا المزيد الذى يرجونه لهذا الخليفة ، لتحيا الأمة العربية حياة جديدة موحدة مجموعة .

وكان الملك الجديد قد اشتد عوده ، وأصبح فتى فى الرابعة عشرة من عمره ، وكما كان عطف المصريين عليه حين خلع عظيما ، كان استقبالهم له عظيما ، عظّم هذا العطف عند المصريين يوم خلعه أنه كان صبيا وكان ضعيفا ، وما أعطف القلوب على من لا حول لهم ولا قوة ، وعظم هذا العطف فى قلوب المصريين حين استقبلوه راجعا ، ما كان من غدر رجلين انتزع أولهما الملك من هذا الصغير غادرا به ، وانتزع ثانيهما الملك من هذا الغادر غادرا به ، فكان هذا المعنى وذاك المعنى عظتين زادتا قلوب المصريين إيمانا بالجزاء العادل ، فزادهما هذا الإيمان عطفا ، فإذا هى تستقبل هذا الملك العائد بالبشر والترحيب .

وحين أمسك هذا الملك العائد بزمام الملك فى يديه رماه القدر

بمحنتين ، محنة كلفته الكثير من بذل فى الأرواح والمال ، ومحنة كلفته النزول عن هذا الملك والخروج منه كما دخل إليه .

فلقد ثار التتار من جديد ، يهيجونها حربا ، جمعوا لها الكثير من عتاد ورجال ، فإذا هم يقوون على المسلمين ، وإذا هم يشتتون جموعهم ، وإذا المسلمون يفرونفرون عنهم خائفين مذعورين ، وإذا هذا الفرار يلقى فى قلوب الأهلين فى المدن هنا وهناك رعبا لا يقل عن رعب المحاربين ، وفزعا لا يعدله فزع ، وإذا السلطان هو الآخر يتعرض لما تعرض له الجند والقادة ويفر فرارهم ويفزع فزعهم .

ولكن هذه الهزيمة التى منى بها المسلمون لم تلبث أن عادت نصرا ، حين لقى المسلمون التتار مرة أخرى ، فنالوا منهم أضعاف ما نال التتار من المسلمين ، وسقوهم بالكَأس التى سقوا بها ، وهكذا مرّت هذه المحنة مُرَّة فى أولها .. حلوة فى آخرها ، واطمأن الملك بعد فزع ، وأمِن بعد خوف .

ولكن المحنة الثانية لم تكن حربا بينه وبين عدو تكلفه العتاد والمال ، وتكلفه التضحية بالأرواح ، ولكنها كانت حربا بينه وبين أمير من أمرائه كلفته ضيقا وحرجا وعناء وبرما ، فإذا هو يائس متخاذل لا يقوى لهذا كله ، ولا لشىء من هذا كله .

ولعل الراحة التى أخلد إليها هذا الملك الصغير أعواما أربعة تزيد أشهرا ، فرغ فيها لحياة هادئة وادعة مطمئنة ، لا يحمل أعباء ولا يذوق عناء ، لعل تلك الحياة القارة عوّدته أن يهرب من كل ما يجلب ضيقا ويجر حرجا ، فما إن انبرى له هذان الأميران سلار وبيبرس فيدخلان عليه فى شئون ملكه ، ويحولان بينه وبين نفاذ أمره ، حتى أضجراه ، وكاد أن يملى عليه ضجره أول الأمر ما يمليه الضجر على الملوك الأقوياء من خلاص ممن يضيقون بهم ، ويدخلون فى أمرهم ، فأخذ هذا الملك الصغير يدبر للخلاص من هذين الأميرين .

ولقد أعانه الشعب المصرى معونة صادقة ، وظاهره على أمره ، وخرجت جماعاتهم فى الأسواق تهتف باسمه حياة ، وتهتف باسم خصومه موتا ، ولكنه على هذا لم يفد من ذلك العون ولا من تلك المظاهرة ، وسرعان ما عاد يائسا ضجرا قلقا برما ، تملى عليه تلك الحياة الوادعة التى ذكرتها لك هذا اليأس وذاك الضجر والقلق والبرم ، وإذا هو ينفر من هذا الملك ولا يريد أن يحمل شيئا من أعبائه ، على الرغم من التفاف الشعب حوله ، وتأييده له ، وإذا هو يخرج من هذا الملك طائعا ويسلمه إلى هذين الأميرين طائعا .

ولعل شيئا آخر غير هذا قد أملى على هذا الملك الصغير اليأس والضجر ، فلقد تملك الحياة الوادعة أن تملى هذا اليأس على الناس حين تصغر آمالهم وحين يصغر ما يطمعون فيه ، وحين يفقد الناس العون ويفقدون النصير ، ولقد ملك هذا الملك الصغير أملا كبيرا وملك طمعا كبيرا ، وملك الناسَ من حوله معينا ونصيرا ، فكان لا بد له حين ييأس من سبب آخر يقوى على أن يغلب هذا كله فى نفسه .

وما من شك فى أن تلك الحياة الوادعة مهدت لهذا اليأس فى نفس الملك الصغير ولم تمل عليه اليأس ، وما من شك فى أن تلك الحياة الوادعة أرخت لعقله أن يتدبر ، وأرخت لفكره أن يتأمل ، وما من شك فى أن تفكره وتدبره .. كشفا له عن فوضى محيطة لا يقوى عليها إلا مخاتل خادع غادر ، وكانت تلك الحياة الوادعة قد هيأت هذا الملك الصغير للين ولم تهيئه لعنف ، وهيأته لسلم ولم تهيئه لغدر ، فإذا هو أعجز عن أن يجارى الخاتلين الغادرين ، وإذا هو تعز عليه نفسه أن يهون ، ولا يعز عليه ملكه أن يضيع ، وإذا نفسه أعز عليه من ملكه ، وإذا هو يخرج بنفسه ويترك ملكه .

وهكذا هيأت تلك الحياة الوادعة لهذا اليأس ، وأملت تلك الفوضى

الضاربة ، وإذا الفوضى الضاربة أعصى من أن يشارك فيها من أَلِفَ الأمن وعرف الدعة ، من أجل ذلك .. لم يقو على هذا .. ذلك الملك الصغير ، وإذا هو يقول لهؤلاء الذين التفوا به من الأمراء يريدونه على أن ينزل عن هذا العرش : إن كان غرضكم فى الملك فما أنا متطلع إليه ، فخذوه وابعثوا بى إلى أى موضع أردتم .

وهكذا رأى هذا الملك الصغير الحياة على أى لون كانت .. خيرا من هذه الحياة ، ورأى هذا الملك هذا المُلك المضطرب أثقل من أن يطمع فيه عاقل ، ورأى حال هؤلاء الأمراء أعصى من أن تستقيم لمصلح ، فترك هذه النار المضطرمة يأكل بعضها بعضا .

وكما رأى هذا الملك الصغير هذه الحياة رآها المصريون الذين أرادوا أن يناصروا هذا الملك الصغير ، وحين يئس هذا الملك الصغير من إصلاح هذه الحياة يئس المصريون معه ، ولكن الملك الصغير ملك أن يخرج عن الأرض التى أحس عليها الضيم ، لأنها لم تكن أرضه ، وما كان المصريون يملكون أن يخرجوا عن هذه الأرض التى رأوا الضيم يغشيها .. لأنها أرضهم ، وعليهم أن يكشفوا عنها هذا الضيم ، غير أنهم رأوها فتنة يأكل بعضها بعضا ، فلم يشاءوا أن يدخلوا فيها لتأكلهم فيما تأكل ، وكانوا يؤثرون أن يسلموا وتسلم الأمور ، فآثروا هذا الذى رأوه وارتضوه .

وهم حين ناصروا هذا الملك الصغير كانوا يريدون أن تجرى الأمور أمنا على نظام مرسوم لا يكون معه غدر ، ولا يكون معه اضطراب ، ولا يكون معه اعتداء ، فما ناصروا هذا الملك الصغير إلا لذلك ، فهم كانوا يرونه واحدا من هؤلاء الأفراد ، ولكنهم كانوا يرونه رمزا لسلطان يريدون له أن يستقر .. لتستقر حالهم ، وتنتظم أمورهم .

وما استطاع هذا الملك الصغير أن يخرج من هذا الأسر الذى فرضه عليه الأمراء الأتراك إلا بحيلة ، ولقد كان الأمراء الأتراك يقدرون تعلق

المصريين به ويخافون إن خرج هذا الملك وعاش بعيدا عنهم أن يثيرها فتنة عليهم ، وكان هؤلاء الأمراء يؤثرون أن يخرج هذا الملك الصغير عنهم ويؤثرون أن ينالوا منه نيلا يريحهم ، وأن يروه مقتولا ، وما من شك فى أن الذى منعهم من هذا الذى أرادوه .. خوفهم من فتنة بدت لهم مظاهرها فى تلك المظاهرة التى أعلنها المصريون ، ولكنهم على هذا أخذوا يدبرون لما يريدون ، وما من شك فى أن الملك الصغير أحس منهم هذا ، من أجل ذلك احتال ليخرج ، وادعى أنه يريد الحج ، وجازت عليهم الحيلة ، وخرج عنهم بعياله .

ولقد ودّعه المصريون أحر وداع ، يبكون ويأسفون وكأنهم يحسون أنه خارج عنهم إلى وجهة أخرى غير الحج ، فما كان المصريون بعيدين عما يحاك حول هذا الملك الصغير من دسائس ومن تضييق .

وحين خرج هذا الملك الصغير أحس أنه خارج إلى غير عودة ، ولهذا دبّر الملك الصغير .. ولهذا خرج ، وإذا هو يقصد إلى الكرك حيث كان أولا ، ليعيش هناك كما عاش أولا .. بعيدا عن هذه الجلبة ، وعن هذه الفوضى .

وحين بلغ الأمراء وصول الملك الصغير إلى الكرك استيقظ فيهم الخوف ، وحين استيقظ فيهم الخوف .. حاولوا أن يفعلوا ما يؤمنهم ، ولقد وجدوا هذا الأمن فى أن يردوا الملك الصغير ولا يتركونه بعيدا عنهم ، فأرسلوا اليه يغرونه بالحضور ، وأرسل هو إليهم يأبى عليهم هذا الحضور ، وكان أخذ ورد ، كشفوا فيه عن نيتهم ، وكشف هو فيه عن نيته ، وإذا هو يرفض هذا السلطان رفضا ، ويقول لهم : أنا لا أبغى السلطان وأنتم على هذه الحال ، فدعونى أنا فى هذه القلعة منعزلا عنكم ، إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره .

إلى هذه الحال انتهى هذا الملك الصغير ، يؤثر الموت على أن يلقى هؤلاء الأمراء على صورهم تلك مرة ثانية ، إلا أن يؤذن الله بتغير جديد .

وحين انتهى هذا إلى الأمراء الأتراك .. أخذوا ينظرون ليختاروا من يبايعون ، فإذا هم يختارون للملك أحد الأميرين اللذين سميتهما لك ، وهما : سلار ، وبيبرس ، ولقد اختاروا لذلك الملك سلار ، ولكن سلار كان يخشى ويخاف ، فرد على الأمراء ما أرادوه ، ولكن بيبرس لم يخش ولم يخف ، كما خشى سلار وخاف ، ورضى أن يكون ملكا على مصر .

– ١٧ –

ولقد ألفت أن تسمع منى كلمة عن نشأة كل مولى من هؤلاء الموالى الذين بدأوا مماليك وانتهوا ملوكا ، ولعلك تحب أن تسمع منى هذه الكلمة عن بيبرس .

فلقد كان بيبرس من مماليك الملك المنصور قلاوون ، ويقول المؤرخون : إنه كان من أصل جركسى ، وإنه خطا من الرق إلى الإمارة كما خطا غيره ، وبقى على ذلك أيام مولاه قلاوون ، إلى أن كانت أيام الأشرف خليل بن قلاوون ، فإذا هو يغدو من أكابر الأمراء ، وحين يقتل الأشرف ويصبح أخوه محمد سلطانا ، يغدو بيبرس .. القائم على بيت السلطان ، يتولى شئونه كلها ، وحين يَخلع كتبغا محمد بن قلاوون ويلى الملك مكانه ، يقبض على بيبرس .. ويحبسه حينا ثم يفرج عنه ، وحين يقتل حسام الدين لاجين كتبغا ويجلس مكانه .. يخرج عليه بيبرس فيمن خرج ، وإذا حسام الدين لاجين مقتول ، وإذا بيبرس ومعه نفر من الأمراء يطالبون بعودة محمد بن قلاوون للملك ، وحين يعود محمد بن قلاوون إلى الملك ، يذكر هذه لبيبرس .. ويعيده لوظيفته التى كان عليها من قبل ، أى قائما على بيت الملك ، يعنى بشئونه كلها ، ويُطغى هذا بيبرس .. فإذا هو مع أمير آخر هو سلار – كما مر بك – يتآمرون على محمد بن

قلاوون ، ويخرج محمد من مصر إلى الكرك زاهدا فى الملك ، ويرغب الأمراء فى تولية سلار الملك ، ويخاف سلار هذا الملك فيصدف عنه .. ليَليَه بيبرس .

مر بك هذا الحديث مفصلا ، وأنا أوجزه هنا لك مجموعا لتذكر مع تلك الأحوال أحوال المماليك الأتراك ، التى يكاد بعضها يشبه بعضا ، وتكاد تكون كلها صورة واحدة ، صورها أوَّلهم .. وجاء مَن بعدهم يحكونها لا يخالفون عنها فى قليل أو كثير ، رق ثم إمارة ثم غدر ثم ملك .

وكما كان الأولون من هؤلاء المماليك كان بيبرس ، وكما غدر هؤلاء الأولون من المماليك غدر بيبرس ، وكما خرج هؤلاء الأولون من المماليك على أسيادهم خرج بيبرس ، فهو الذى نادى برجوع محمد بن قلاوون إلى الملك .. ليضيق عليه بعد حين ، وينفرد هو بالملك ، نادى بذلك حين لم يملك أن ينادى بنفسه سلطانا ، لم يناد به إخلاصا لمحمد بن قلاوون .. بل إخلاصا لنفسه ، لأنه كان قد رسم هذا الطريق الذى عبّده ليلى محمد ، لم يشأ أن يعبده بيده هو ، حتى إذا ما استوى الطريق أمامه خلّى عنه محمدا .. ليضع هو قدميه عليه .

وفى الثالث والعشرين من شوال سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة .. جلس بيبرس على عرش مصر ، وكما بارك الخليفة الملوك السابقين .. بارك بيبرس ، وما كان الخليفة يملك غير هذه الوظيفة يمضيها مأجورا مشكورا ، وأصبح بيبرس بعد هذا ملك مصر ، وأصبح يلقب بالملك المظفر .

وكما فعل الأولون من المماليك حين يلون السلطان - من إبعاد وتقريب وعزل وتولية - فعل بيبرس ، وكما أغضب هؤلاء الأولون من المماليك بالذى فعلوه إخوانهم من الطامعين فى هذا الملك ، أغضب بيبرس بالذى فعله هؤلاء الطامعين ، ونكاد نقول إنه لو لم يفعل شيئا ما يغضب هؤلاء الموالى عليه .. لا التمسوا هم للخروج عليه سببا ما ، فلقد كان

الخروج على السلاطين أسلوب تلك الحياة وكانت الحياة ممتلئة بتلك الأسباب لا تعدم سببا .

ولقد كان حول سلار الذى أحجم عن أن يدخل الملك مماليك يؤيدونه ، وكان حول بيبرس الذى رغب فى الملك مماليك يؤيدونه ، وحين لم ينل الملك سلار .. وناله بيبرس ، كادت الفتنة تقع بين هؤلاء المؤيدين لسلار وبين هؤلاء المؤيدين لبيبرس .

وكما كان هناك فى تلك الحياة القلقة المضطربة هؤلاء المماليك السلارية ، وأولئك المماليك البيبرسية ، كان ثمة مماليك آخرون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، يشترى ميلهم ، ويخاف خروجهم وخلافهم .

ولقد دخل هؤلاء المماليك المأجورون تلك الفتنة يناصرون بيبرس .ولا يناصرون سلار ، ما نظنهم أحبوا بيبرس كما لا نظنهم كرهوا سلار ، ولكنا نظنهم باعوا أنفسهم لبيبرس حين دفع بيبرس الثمن غاليا ، ولم يبيعوها لسلار حين فاته أن يدفع هذا الثمن الغالى ، فحين عرض هذا الملك على سلار ، أو قل حين دفع بيبرس سلار إلى هذا الملك وهو يريد أن يبدى أنه غير طامع فيه ، كان يضمن أن سلار سوف يشترط شروطا ، وكان يضمن أن هؤلاء المماليك الذين اشتراهم سوف لا يقبلون هذه الشروط .

ولقد وقع ما قدره بيبرس ، فحين دفع إلى هذا الملك سلار .. اشترط سلار ، ولم يقبل المماليك ما اشترط سلار ، وكادوا يثيرونها عليه فتنة ، وإذا سلار ينهزم بشروطه ، ويجد أن تلك الهزيمة أشرف له مما لو انتصر هو وانهزمت شروطه ، ودخل الملك مغلوبا على شروطه .

فلم تكن النفوس قد انحطت إلى هذا الدرك من المهانة ، لا سيما نفس رجل يطمع فى أن يكون سلطانا ، ويطمع فى أن يكون ذا قوة .

وما نشك فى أن سلار ندم على أنه اشترط ، وما نشك فى أن بيبرس

كان من وراء سلار يغريه بأن يشترط ، وقد يكون بيبرس فعل ذلك بنفسه ، وقد يكون دفع رجلا من أوليائه ليفعل هذه بسلار ، وسواء أكانت هذه أم تلك ، فلقد اشترط سلار ، ولقد أبا المماليك على سلار ما اشترط ، ولم يدخل سلار إلى هذا الملك الذى كان يطمع فيه ويدبر له .

وحين خذل سلار لم يشأ أن يخذل صاحبه الذى كان يدبر معه الدخول إلى هذا الملك ، فما أحب سلار أن يخرج صاحبه من هذا الملك كما خرج هو ، وما أحب سلار أن يفوت هذا الملك صاحبه فيحرم هو نيابة عن الملك كان يطمع فيها بعد أن فاته أن يكون ملكا .

من أجل ذلك التفت سلار إلى المماليك الذين أبى عليهم شروطهم ، يقول لهم بلغة الزاهد فى الملك : أنا ما أصلح للملك ولا يصلح له إلا أخى هذا ، وأشار بيده إلى بيبرس ، ونهض قائما إليه ، وتسارع الجميع إلى بيبرس يبايعونه .

ولقد أتقن بيبرس الحيلة ، فإذا هو يمتنع عن المماليك ، وإذا هو يصدف عن هذا الملك الذى سعى اليه ، وكان هو من قبل يسعى إليه ، ولكنه حين رفض قبل ، ولم يكن بين رفضه وقبوله غير قليل ، مخافة أن يكون وراء تدبيره تدبير ، ويخرج الملك من يده كما خرج من يد سلار ، فإذا هويصبح ملكا ، وإذا هو يلبس لباس السلطنة ، وإذا هو يخرج على فرسه والأمراء بين يديه وسلار معهم ، يعبرون الشوارع من باب القلعة إلى الديوان .

ولقد شاء بيبرس أن يمضى فى الحيلة إلى نهايتها حتى لا يشك فيه صديقه ، فجلس على كرسى الملك يبكى بحيث يراه الناس ، لا ندرى أكان بكاء الندم ، أم بكاء التغرير ، أم بكاء الفرح ، ونكاد نجزم أنه لم يكن بكاء الندم ، ولكن كان بكاء التغرير والفرح .

وحين جلس بيبرس على العرش لم ينس أنه أبعد عنه طامعا فيه ، وكان شريكه فى السعى إليه صاحبه سلار ، فلم يشأ أن يقسو عليه قسوة ثانية فيخرجه من الأمر كله ، ثم ما هو بضامن إن فعل أن يثيره عليه ، ثم ما هو بضامن من إن أثاره عليه السلامة .

وحين فكر بيبرس فى السلامة .. فكر فى أن يضم إليه صاحبه على شيء فى تلك الغنيمة ، وبعد أن يكون هذا الشيء دون نيابة السلطان .

ولكن سلار الذى رفض الملك يرفض هذه النيابة ، إمعانا فى الإباء ، والنفوس حين تأبى تشتط ، ويعميها الشطط عن التدبير لأمرها ، ولقد كاد أن يعمى الشطط فى الإباء سلار ، وكاد سلار أن يرفض هذه النيابة .

ولكن بيبرس - كما قلت لك - كان يحب السلامة لنفسه ، وحين رفض سلار .. ازداد خوف بيبرس على تلك السلامة ، فازداد تعلقه بسلار ، فلم يترك سلار على إبائه وزاد فى إلحاحه ، وهو يقول له على مشهد من الأمراء : إن لم تكن أنت نائبا .. فلم أعمل أنا سلطانا .

قال هذا بيبرس ليغرى الأمراء بسلار ، حتى لا يجد سلار بدا من أن يقبل ، وهكذا كاد ملك مصر أن يهوى ، وكاد ملك مصر أن يكون تجارة بين هؤلاء المماليك يحكمون فيه دون أهله ، وليس لأهله فيه مشورة .

وقبل سلار أن يكون النائب ، ولبس خلعة النيابة ، ومضى الاثنان اللذان احتالا ليدخلا إلى هذا الملك ، يحكمان مصر ، هذا ملك وذاك نائب .

وكما لم تصف الحياة بين ملك ونائب لم تصف الحياة بين بيبرس وسلار ، فإذا هما بعد قليل خصمان ، وإذا اجماع الأمراء على بيبرس ينقلب إلى خلاف عليه ، وإذا سلار الذى أعان صديقه على إخراج محمد بن قلاوون من الملك يعود فيعين محمد بن قلاوون على الرجوع إلى الملك ،

واذا الأيام تمضى تؤيد محمد بن قلاوون وتضعف من بيبرس ، وإذا الناس ينضمون إلى محمد بن قلاوون وينفضون عن بيبرس ، وإذا بيبرس حين يحس الفزع يفزع إلى الخليفة .. يريد أن يستعين به على الناس ثانيا ، كما استعان به على الناس أولا ، وإذا هو يستكتب هذا الخليفة عهدا جديدا بالولاية ، وإذا هذا الخليفة يكتب هذا العهد الجديد بعد أن قبض ثمنه ، يدعو الناس إلى تأييد بيبرس والخروج على محمد بن قلاوون .

لم يكتب الخليفة هذا العهد كلمة وكلمة ، وإنما كتبه كلمات .. يكيل لبيبرس المدح والثناء ، ويكيل لمحمد بن قلاوون الذم والهجاء ، نقطع لك من ذلك العهد الخليفى جملة لتشاركنا الرأى ، فاقرأ معى شيئا مما كتب الخليفة أبو الربيع سليمان العباسى حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وإنى رضيت لكم بعبدالله الملك المظفر ركن الدين بيبرس نائبا عنى لملك الديار المصرية والبلاد الشامية ، وأقمته مقام نفسى لدينه وأهليته وكفاءته ، ورضيته للمؤمنين ، وعزلت من كان قبله بعد علمى بنزوله عن الملك ، ورأيت ذلك متعينا علىّ ، وقد استخرت الله تعالى ، ووليت عليكم الملك المظفر ، فمن أطاعه فقد أطاعنى ، ومن عصاه فقد عصانى ، ومن عصانى فقد عصى أبا القاسم بن عمى ﷺ . وبلغنى أن الملك الناصر - يعنى محمد بن قلاوون - شق العصا على المسلمين ، وفرق كلمتهم ، وشتت شملهم ، وأطمع عدوهم فيهم ، وعرّض البلاد الشامية والمصرية إلى سبى الحريم والأولاد وسفك الدماء ، وأنا خارج إليه بمحاربه حتى يفىء إلى أمر الله تعالى ، وقد أوجبت عليكم يا معاشر المسلمين الخروج تحت لوائى .. اللواء الشريف .

إلى هذا الدرك انحط الخليفة ، وفى هذا الهراء وقع الخليفة ، من أجل ذلك لم يَعْنَ الناس بالخليفة ، ولم يقم الناس وزنا لكلام الخليفة ، وأصبحت كلمة الخليفة لا يؤبه لها ، وهى التى كانت يعنو الناس لها .

ولقد قرئ هذا العهد على المنابر ، يريد بيبرس أن يكسب به تأييدا ، ويكسب به نصرا ، ويكسب الناس معه ، ويصرفهم عن محمد بن قلاوون ، فإذا هو يسمع الناس حين يبلغ القارئ - قارئ هذا العهد - إلى ذكر الملك الناصر محمد بن قلاوون ، يقولون : نصره الله ، لا يقولونها مرة إنما يكررونها مرة ومرة ، وإذا هو يسمع الناس حين يبلغ القارئ ، قارئ ذلك العهد إلى ذكر اسمه - أعنى ذكر بيبرس - يقولون : لا ، ما نريدك .

وهكذا كان جواب الناس على ذلك العهد الخليفى ، وهكذا كان احترام الناس لذلك العهد الخليفى ، لم يأخذوا منه بشئ ، ولم يسايروا فيه الخليفة على شئ ، وإذا القاهرة تموج بفتنة ، وإذا هذا كله يبلغ محمد بن قلاوون بالكرك ، فيرى نفسه قويا بالناس على الخليفة وعلى بيبرس ، فيخرج بمن معه وبمن لحق به ليدخل مصر .

ويبلغ ذلك بيبرس ، فيضطرب عليه أمره ، لا يرى فيمن حوله معينا يعين ، ولا مشيرا يشير ، بغير أن ينزل عن هذا الملك ليرده إلى صاحبه .

وكان بيبرس قد انتهى ضعفا ، ولم تعد فيه قوة ، فاستجاب وتهيأ للخروج ، فدخل إلى خزائن الدولة فأخذ من المال ما أحب ، وخرج تصحبه عدة من مماليكه يبلغون سبعمائة مملوك .

وحين نذر به العوام ، وعرفوا أنه هارب ، هان عليهم وزالت من قلوبهم خشيته ، فخرجوا فى إثره يشيعونه بعبارات ينفسون بها عما فى أنفسهم ، وإذا هم لا يجدون فيما يلفظون ما يشفى تلك الأنفس الموتورة ، فتمتد أيديهم إلى ما على وجه الأرض من حصى وحجارة يقذفونه بها ومماليكه ، إمعانا فى الكشف عما يضمرون من سخط ويكنون من كراهية .

ولا يملك المماليك - الذين معه - أنفسهم فيغضبون ، ويهمون بأن يعودوا إلى العوام لينالوا منهم بسيوفهم ، ويملك بيبرس نفسه ، ويرى الأمر

لا تغنى فيه سيوف مماليكه ، وقد تنقلب ثورة جامحة تلتهمه هو ورجاله ، فصبر للأذى وأخذ فى أن يحتال لتخلص له حياته ، وتهديه حيلته إلى أن يشترى رضا هؤلاء العوام بشىء من الذهب الذى خرج به ، ولا ضير عليه أن ينزل عن بعضه ليضمن أكثره ، يظن أن العوام اليوم كما كانوا بالأمس يغريهم الذهب ، وقد أنسى بيبرس .. أن الذهب الذى يغرى الأنفس حين ترضى وإن قل ، تصدق عنه النفس وإن كثر حين تصخب ، والنفوس الساخطة لا يعينها متع الحياة وإن جل ، ولكن يعنيها أن تنفس عما بها ، ترى ذلك حظها من الحياة ، لهذا لم يلتفت العوام إلى ما نثر المماليك من ذهب ، ولا إلى ما نثر بيبرس من ذهب ، وما تطلعت إليه أعينهم ولا امتدت إليه أيديهم ، ولكن داسته أرجلهم ، ومضوا فى إثر بيبرس وفى إثر مماليكه يلعنون ويسبون ، وإذا هم يكادون يحيطون بهذا الملك الفار ، ويكادون يضيقون عليه .

ويبلغ الخوف مبلغه من نفس بيبرس ومن معه ، ويخالون الفتنة الصغيرة أوشكت أن تنقلب فتنة كبيرة ، ويأخذ الخوف سبيله إلى نفوسهم ، والنفوس إذا خافت جزعت ، وإذا جزعت خرجت عن وعيها ، وهى حين تخرج عن وعيها بين حالين ، إما إلى جبن تستكين فى ظله ، وإما إلى وثبة يمليها طيش .

ولقد كانت الثانية .. فطاشت عقول هؤلاء المماليك وطاش معها عقل بيبرس ، وإذا هم يستلون جميعا سيوفهم يشهرونها على العوام .

ولقد قاوم هؤلاء العوام شيئا ، ولكنهم لم يكونوا كثرة ، ولم تكن معهم سيوف ، ولقد كانوا كلهم عزلا ، فلم يلبثوا غير قليل حتى ارتدوا ، وخلص منهم بيبرس .

وحين يبلغ سلار خروج بيبرس عن مصر هاربا .. ينادى بمحمد بن قلاوون ملكا . وهكذا يضمن سلار لنفسه حياة جديدة ، وقد كادت حياته الأولى أن تنتهى بانتهاء حياة بيبرس .

فلقد كانا معا حربا على محمد بن قلاوون ، وهما اللذان دبرا لإخراجه ، وحين فطن سلار إلى أن الأمر لن يستقيم لبيبرس طويلا ، فكر فى أن يخرج على بيبرس ، وكم كان حريصا على أن يستأثر بالملك دونه ولكنه أحس الأمور تجرى على غير ما يهوى ، وأحس أنه مغلوب على أمره إن فعل ، لا بيد بيبرس وتدبيره ، ولكن بيد آخرين وتدبيرهم ، كانوا قد بدأوا يتحركون لإعادة محمد بن قلاوون .

ولقد كان سلار يملك الأمر كله دون بيبرس ، لم يترك لبيبرس منه شيئا ، لا يقضى بيبرس فى أمر وإن صغر ، بل يرد كل ما يعرض عليه إلى سلار ، حتى عيب بذلك فاشتهر عنه هذا الضعف الشائن ، وكان بيبرس على هذا راضيا ، ولكن سلار لم يكن - بهذا الذى نال واستأثر - راضيا ، وكان يحب أن يكون السلطان له حقيقة ومظهرا لا مظهرا فحسب ، ولكنه وجد الأمور - كما قلت لك - تجرى على غير هواه ، فتحول عما يطمع فيه إلى ما يطمئن به حياة ويطمئن به بقاء ، فكان من الداعين لمحمد بن قلاوون ينادى به ملكا .

وما هنأ بيبرس بماله ، ولا قرّ فى مكانه ، وإذا هو بعد حين قليل مأسور ، وإذا هو مردود إلى مصر بما حمل ، وإذا هو بين يدى سلطانها محمد بن قلاوون يعنفه ويؤنبه ، وإذا هو ذليل مخذول يسترحم ويستعطف .

ولكن النفوس حين تؤذى كثيرا قلّ أن ترحم ، وقلّ أن تعطف ، كلما استمالهاالعطف شيئا .. صحا فيها الألم شيئا ، فغلبت صحوة الألم صحوة العطف ، فإذا النفس ثائرة مغلوبة على عطفها بألمها ، وإذا هى أسرع إلى الانتقام منها إلى الصفح .

وهكذا كانت نفس محمد بن قلاوون تحمل كثيرا من الألم ، فلم ينفد فيها بكاء بيبرس ولا استرحامه ولا استعطافه ولا تذلله ولا قنوعه ، وإذا

محمد بن قلاوون يشمر للانتقام من بيبرس على الوجه الذى يرضى نفسه ، فأمر به فخنق بوَتر ، حتى كاد يتلف ، ثم خلى عنه ليرى أثر العذاب فيه ، وليعود هو فيشفى نفسه التى لم تكن قد اشتفت بعد ، فيأخذ فى سبه وشتمه ، حتى إذا ما رأى أنه اشتفى عاد فأمر بخنقه ثانية ، وكانت نفسه قد هدأت فترك الخانقين يمضون ، وإذا بيبرس بعد قليل ، ميت ، وإذا هو بعد قليل يحمل ليدفن خلف قلعة الجبل .

وهكذا انتهت حياة سلطان دخل إلى الملك غادرا ، وخرج منه مغدورا به .

– ١٨ –

وعاد الناصر محمد بن قلاوون ليَلى مصر للمرة الثالثة ، يرحب به سلار الذى كان منذ حين قد خرج عليه مع بيبرس ، وحين أفلت الملك من سلار واستأثر به دونه بيبرس ، رأى سلار الأمور لا تكاد تستقيم له على الرغم من أنه غدا نائب سلطان ، فلقد وجد الشعب هذه المرة على صحوة ولم يعد يغفل الأمور ويهملها الأهمال كله ، بل لقد وجد له مشاركة حيّة فى الفتنة التى كادت تطل برأسها ، والتى جلس الناصر محمد بن قلاوون فى الكرك يجمع لها ويهيىء ، وسلار يعرف الفتن ويعرف ما وراء هذه الفتن من أطاحة بالرؤوس ونيل من الأبدان ، لا سيما إذا كانت هذه الفتنة يقويها حق مثل هذا الحق الذى عاش به الناصر محمد بن قلاوون ، ويقويها شعب يؤمن بهذا الحق ، من أجل ذلك نكل سلار ولم يمض طويلا فى المسيرة مع بيبرس ، وإذا هو يميل إلى الجانب الذى رأى معه الحق والشعب لينجو برأسه وليسلم له بدنه .

وأمثال هؤلاء الناس المتهمين فى ضمائرهم .. المتهمين فى أنفسهم .. يحسون الريبة فيما يفعلون ، ويحسون أن الناس من حولهم فيهم يشكون ، وهم من أجل ذلك مغالون فيما يظهرون ، ليردوا الناس إلى يقين بعد شك ، فإذا هم يزيدونهم شكا على شك .

ولقد حكوا أن سلار حين خرج بيبرس عن مصر مقهورا ، وحين استعد محمد بن قلاوون لدخول مصر ظافرا ، أحب سلار أن يُظهر بأنه على الولاء للسلطان الداخل ، وعلى النكر للسلطان الخارج ، يحسب أنه خادع الناس وخادع السلطان ، فإذا هو بعد هذا كله لم يخدع إلا نفسه ، فالموتورون ، وكان الناصر محمد بن قلاوون منهم ، أكثر ما تستيقظ عقولهم حين يملكون أسباب الثأر ، فإذا هم يزنون الناس بميزان دقيق ، والشعوب أيقظ ما تكون حين تملك أسباب القوة ، فهى عندها تملى عن حق ، لأنها قد أمنت أسباب الخوف ، وما أفسد الخوف بعقول الشعوب ، فالخوف حين يدخل على نفوس الشعوب .. يُخرج العقل من الرؤوس ، فلا تملى الشعوب حين تملى مع الخوف إلا عن غير عقل وعن غير أناة ، فإذا هى ملكت القوة .. ملكت العقل وملكت الأناة ، فلا تخدع ولا تلين فى حكمها ، وكثيرا ما يكون هذا الحكم قاسيا كل القسوة .

ولقد أنساناهذا الاستطراد أن نحكى ماحكوا عن سلار ، فلقد حكوا له أنه جمع المحابيس بعد أن أطلق سراحهم ، وخرج بهم ينادى وينادون معه بالسلطان الناصر .

أرأيت إلى هذا المخدوع كيف يحاول أن يخدع السلطان ، وأن يخدع مع السلطان الناس ، وأن يخدع بعد السلطان والناس نفسه .

وكان بعد سلار رجل آخر ماكنا نحب له أن يتورط فيما تورط فيه سلار ، فلقد كان هذا الرجل أعز على النفوس من سلار ، لأنه كان ينطق باسم المسلمين كافة ، وينطق باسم الدولة العربية كلها ، لايعنينا أنه كان يملك ذلك كله فعلا أو اسما ، ولكن يعنينا أن هذا كله كان إليه اسما لافعلا ، وكنا حريصين على ألا يضيع هذا النصف الباقى ، فيفوت على الدولة العربية هذا الرمز الجامع لكلمتها ، ويفوت على مصر ذلك الاسم الذى كنا حريصين على أن يزداد قوة وينضم إليه نصفه المفقود فتعيش

بنصفيه معا ، فتكسب الدولة العربية حين تظلها خلافة قوية ، وتكسب مصر حين تجد هذه الخلافة القوية قد انتقلت من بغداد إلى القاهرة ، وتملك مصر بتاريخها الطويل الذى صمدت فيه للأحداث من أجل الدولة العامة ، ومن أجل أن تقوى تلك الدولة العامة ، هذا التاريخ الطويل الذى كانت مصر فيه لاتملى إلا عما ترى فيه الرضا كل الرضا للخلافة ، والأمن كل الأمن للخلافة ، فعانت كثيرا وضحت كثيرا ، أنسيت نفسها وذكرت الخلافة فهان عليها كل ذلك العناء ، وخفّت عليها كل تلك التضحيات .

بهذا التاريخ الطويل المملوء بالتضحية كانت مصر لا شك ستفيد من هذه الخلافة التى انتقلت من بغداد إلى القاهرة ، لا فائدة تعود عليها هى وحدها ، بل فائدة لها وللدولة العربية العامة ، بل ما كنا نشك فى أن تلك الفائدة كان النصيب الأكبر منها سيرجع إلى الدولة العامة ، والنصيب الأصغر منها سيرجع إلى مصر . يملى علينا ذلك التاريخ الطويل الذى قطعته مصر فى ظل الخلافة ، حريصة على أن تكون وحدة جامعة ، حريصة على أن تكون دولة متماسكة ، لا فرقة بينها ولا تشتت .

لقد كان هذا كله فى عنق ذلك الرجل الذى كنا نحرص على ألا يهبط إلى ما هبط إليه سلار ، ولكنه كان قد فسد بفساد هؤلاء الرجال من حوله ، وأنسى خير ما له وذكر شره ، وأغرته الحياة الدنيا كما أغرت هؤلاء ، وضعف أن يعيش بضمير نبيل ونفس قوية .

وهكذا النفوس إذا فسدت وأغرتها الحياة ، وكما أنسى الضمير وأنسى النبل وأنسيت الأنفس وأنسيت القوة .. عاشت هذه النفوس هينة ذليلة ، تصغر بين يدى الأحداث ، ولا تقوى لها .

ولقد حدثتك حديث الخليفة سليمان وكتابه الذى كتبه يدعو فيه لبيبرس ، ويصرف فيه الناس عن الناصر محمد بن قلاوون ، وكيف كان هذا الكتاب شيئا يثير النقد ويدعو إلى الخزى .

وكان موقف هذا الخليفة مع الناصر محمد بن قلاوون – حين عاد ليحكم للمرة الثالثة – يدعو هو الآخر إلى نقد أكثر وخزى أكبر .

فلقد تقدم من الناصر يدعو له ويؤيده ، وهو الذى سماه خارجا منذ حين قليل ، كما جعل بيبرس من سلالة بنى العباس ، وليست هذه وتلك بهينة على من يحمل اسم الخليفة وينطق باسم الخلافة ، وما إخال هذه السقطات إلا قد فوتت على الخلفاء حقهم الإسمى بعد ما فقدوا حقهم الفعلى ، وما إخالها إلا فوتت على مصر ما كانت تطمع فيه من إعزاز للخليفة اسما .. ليعود إليه بعد ذلك الإعزاز الاسمى الإعزاز الفعلى .

ولكن هذه الخلافة ما كان يرجى لها خير حين هانت ببغداد هوانا طويلا ، حين أفقدها هذا الهوان مهابتها فى النفوس ، وهى حين فقدت مهابتها فى النفوس عاد عليها ذلك بهوان جديد ، هوان أذل وأعنف ، عانى من جرائه هؤلاء الخلفاء الإسميون ذلا كبيرا ، فلقد عاشوا يُؤمرون ولا يأمرون ، ويوليهم السلاطين ، ولا يولون هم السلاطين .

وأحب أن أحدثك شيئا يتصل بحياة أبى الربيع هذا الخليفة ، فهو من هذا الهوان الذى أحدثك عنه ، فإنهم يحكون أنه لما مات والد أبى الربيع هذا فى الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، وكان ذلك أيام سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية ، كان قد أوصى بأن يكون الخليفة من بعده ابنه أبو الربيع ، وكان الخليفة الراحل يحمل اللقب الذى كان يتمتع به الخلفاء من قبل فى بغداد إبان سلطانهم الإسمى والفعلى ، فكان لقبه : الخليفة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن على الهاشمى العباسى ، فأنت ترى أن هذا الخليفة الضعيف لم يحرم شيئا اسميا كان يستمتع به الخلفاء السابقون ، فهو خليفة وأمير للمؤمنين ، وهو بعد هذا لم ينس أن يضيف إليه لقبا من تلك الألقاب التى كان يضفيها على أنفسهم الخلفاء السابقون .

ويحق لك أن تسأل : وأين كان مقر هذا الخليفة صاحب تلك الألقاب الكثيرة ؟ أكان ينزل حيث ينزل السلطان ؟ ثم أكانت تحيط به الأبهة التى كانت تحيط بالسلطان ؟

يحدثنا المؤرخون أنه كان ينزل حيث ينزل رجل متميز بعض التمييز من الشعب ، وأن مسكنه كان بالكبش خارج القاهرة ، وأنه لم يكن يستمتع بجاه يزيد كثيرا على جاه رجل متميز بعض التمييز من الشعب .

ولكن الخليفة على هذا كان يستمتع بشىء من التقدير الدينى ، شأنه فى ذلك شأن رجل من رجال الدين ، له ما لهم من تقديس تحمله النفوس ، وليس له ما لهم من علم يكبرون به فى النفوس .

من أجل الأولى .. أحاط الناس بنعشه حين دفن فى تربته إلى جوار السيدة نفيسة .

وكان ابنه أبو الربيع سليمان حين مات أبوه أحمد يبلغ من العمر عشرين سنة ، فلقد بلغ مع تلك العشرين أن يكون خليفة للمسلمين بعد أن أوصى له بذلك أبوه .

وما كانت تلك الوصاية لتمضى إلا إذا أجازها سلطان ذلك الأوان ، لقد كانت شيئا اسميا كما كانت الخلافة شيئا اسميا ، يحسبه الخلفاء الاسميون حقيقة فيتصرفون فيه توصية وتنازلا ، ولو عرفوا كنه الأشياء لسكتوا عن أن يوصوا ، ولخرجوا من دنياهم دون أن يذكروا عن هذا شيئا ، ولكنهم كانوا قد تعلقوا بهذه المظاهر يحسبونها حقيقة واقعة ، ومضوا يتصرفون فيها هذا التصرف الذى لا يكون إلا مع حقيقة فعلية .

ولقد نظر السلاطين إلى هذه المظاهر الاسمية نظرتين كانوا معهما هم المفيدين ، كانت أولاهما ما طمع فيه السلاطين من تأييد أرادوه على أيدى هؤلاء الخلفاء ، فهم كانوا يعلمون أن الخلافة كانت لاتزال لها بقية فى

النفوس العامة ، وأن من كسب تأييدها كسب قلوب العامة ، ثم هم كانوا يخافون شيئا من الشر حين لا يملكون هذا التأييد ، فأحبوا أن يغلقوا هذا الباب من الشر ، وقد وجدوا أن الخلافة لا تكلفهم عناء كبيرا ، ولا تكلفهم إلا أن ينفقوا إنفاقا يسيرا ، ولا تكلفهم إلا أن يقيموا إلى جوراهم خليفة يمضى ما يحبون .

بهذه النظرة الأولى نظر الناصر محمد بن قلاوون إلى الخليفة الراحل وإلى الخليفة الجديد ، فقد أيده الخليفة الراحل حين كان حيا ، وأحب أن يؤيده الخليفة الجديد ، وهو يعلم أن هذا التأييد لن يقدم فى الأمر شيئا ، وأنه سلطان لا يضيره أن يؤيده الخليفة الجديد أولا يؤيده ، ولكنه باب من الشر - كما قلت لك - يحب السلاطين كما يحب الناصر أن يتركوه مفتوحا ، وفى استطاعتهم أن يغلقوه .

من أجل تلك النظرة .. أرسل الناصر إلى الخليفة الجديد قبل أن يشيع موت الخليفة الراحل ، ولقد فعل الناصر هذه فلم يشع موت الخليفة إلا بعد أن أحضر إليه هذا الخليفة الجديد ، وإلا بعد أن أشهد عليه أنه ولّى الناصر محمد بن قلاوون جميع ما ولاه إياه والده وفوضه إليه .

وحين فعل هذا الخليفة الجديد .. أطلقه الناصر ليعود إلى بيته ثم أشاع موت الخليفة الراحل .

تلك هى النظرة الأولى التى كان ينظر بها السلاطين إلى الخلافة ، وتلك هى الفائدة الأولى التى كان يفيدها السلاطين من الخلافة ، وهى لم تكن بعد غير هذا المظهر من التأمين الذى حرص عليه السلاطين ، وما أحبوا أن يفلت من أيديهم ،كما أحبوا ألا يناله أحد غيرهم ، فيشوش عليهم ذلك سلطانهم .

أما النظرة الثانية التى كان ينظر بها السلاطين إلى الخلافة ، والتى لم تكن هى الأخرى غير نظرة إفادة ، فإن هؤلاء السلاطين على هذا العوزا

أن الناصر كان مترددا فى تولية أبى الربيع سليمان الخلافة ، ولم يقم لتلك التوصية التى أوصاها الخليفة الراحل وزنا ، ولم يلتفت إليها ، وأنه أرسل إلى قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد الشافعى يستشيره فى أمر سليمان أيصلح للخلافة أم لا ؟ وما نظن الناصر كان ينظر إلى صلاح سليمان إلا من الجانب الذى يعنيه .. لا من الجانب الذى يعنى الناس ، وفى الحق .. لقد كان الناصر حريصا على ما يفيده هو من الخلافة لاما يفيده الناس من تلك الخلافة ، وما نظنه سأل قاضى القضاة إلا عن هذه .

وعلى الرغم من شهادة قاضى القضاة لسليمان فلقد ظل الناصر أياما لا يولى هذا الخليفة الجديد الخلافة ، حتى إذا ما اطمأن واستوى على عرشه .. بعث إلى أبى الربيع فجىء به ، وأحضر بين يديه ، وحين جاء وأحضر بين يديه .. خلع الناصر عليه خلعة الخلافة ، ولقّبه بالمستكفى ، وكانت الخلعة جبة سوداء وطرحة سوداء .

وبعد هذا .. أجرى الناصر على الخليفة المستكفى راتبه الذى كان مقررا لوالده وزاد فيه شيئا .

هذه هى النظرة الثانية إلى الخلافة ، وكان السلاطين ينظرون إليها وظيفة من الوظائف التى يملكون إقامة الناس فيها ، شأنها شأن غيرها من وظائف الدولة .

ولقد رأيت معى من هذا العرض المفصل الذى قصدت إليه كيف كانت الخلافة ، وكيف كان موقف السلاطين منها ، ولكنها على كل حال كان إنتقالها إلى مصر كسبا من الكسب ، لو أتيح لها أن تعود إلى سيرتها الأولى ، وأتيح لها أن تكون قوة ، وأتيح لها أن تلتف البلاد العربية حولها التفافها من قبل ، ولكن هذه الخلافة بدأت هكذا ضعيفة ، ومضت ضعيفة ، وسوف نسايرها لنبلغ بك إلى نهايتها لتعلم كيف كان مصيرها .

ولنعد بك إلى الحديث عن الناصر محمد بن قلاوون فى ولايته الثالثة على مصر ، فلقد كان خروجه من دمشق قاصدا مصر .. هو يوم خروج بيبرس من مصر .. قاصدا إطفيح ، وكان ثمة فرق بين دخول الناصر وخروج بيبرس ، ولقد سقنا إليك شيئا عما لقى بيبرس فى خروجه من مهانة واحتقار ، ونزيدك شيئا عن دخول الناصر مصر وأنه استقبل استقبال السلاطين الفاتحين ، وهرع إلى لقائه الأمراء والقواد وعلى رأسهم سلار ، الذى كان ثانى اثنين شيعاه منذ قليل حين خلع عن عرش مصر ، ووقف الشعراء بين يدى الناصر ينشدونه شعرا كثيرا ، نعى منه حين نطالعه أن نفوس المصريين كانت متعلقة بالناصر ، ودفعها تعلقها بالناصر إلى الضيق ببيبرس .

وما أحست تلك النفوس للناصر شيئا كثيرا يجذبها إليه ويدعوها إلى التعلق به من مآثر وأعمال جليلة ، تجمع الرعية حول ملكها ، ولكن تلك النفوس أحست فى الناصر شيئا تحس مثله معها ، فلقد أحست أنه مظلوم ، وكانت هى الأخرى تحس أنها مظلومة ، فجمع بينهما الظلم بذلك الرباط القوى ، والمظلومون إخوة وإن باعدت بينهم أسباب ، من أجل ذلك تعلق المصريون بالناصر يجمعهم وإياه هذا السبب من الظلم الذى ذاق مرارته الناصر وذاقوا هم مرارته ، ولقد أنسوا مع هذا السبب الجامع أن الناصر لم يكن بعيدا عمن ظلموهم واستبدوا بالأمر دونهم ، ولكنهم أنسوا هذا وذكروا أنه مظلوم ، فإذا هم مجذوبون إليه متعلقون به ، وما عبر الشعراء حين عبروا وهم يهنئون الناصر إلا عما يحسون هم لأنفسهم ، وما هنأوا - حين هنأوا - إلا أنفسهم وهم يحسبون أنهم يهنئون الناصر ، وأنت حين تستمع إلى قول شمس الدين محمد بن على بن موسى وهو يهنىء الناصر ويقول :

الملك عاد إلى حماه كما بدا ومحمد بالنصر سرّ محمدا

إلى أن يقول :

الحق مرتجع إلى أربابه   من كف غاصبه وإن طال المدى

فهذا الشاعر ما فتىء يذكر حقه وحق الشعب المصرى المظلوم المغتصب منه حتى عدا سريعا عن تهنئة محمد إلى الكلام عن الحقوق المغتصبة ، وهو يعنى حق الشعب المغتصب يتمثله فى حق الناصر المغتصب .

وخف إلى السلطان الناصر الناس يهنئونه ، وعلى رأسهم الخليفة أبو الربيع سليمان .

ولقد حدثتك عما كان من الناصر إليه ، والذى يعنينى هنا وأنا أتحدث عن المهنئين لا عن هؤلاء الأمراء والكبراء الذين سعوا لتهنئة الناصر ، بل هذا الشعب الذى انساق انسياقا يملى عليه شعوره ، ويملى عليه حسه ، وتملى عليه عاطفته ، يرحب بالناصر ويهنئه ، يرى فيه مثلا للانتصاف ، ومثلا لرجوع الحق إلى أهله ، يسأل الله للناصر البقاء ، وهو لا يعلم أنه يسأل الله هذا البقاء لنفسه ، إذ كان يرى فى عودة الناصر رمزا لعودة الحقوق إلى أصحابها ، من أجل ذلك .. أحب عودة الناصر وأحب بقاءه .

وكان الناصر بين اثنتين تمليان عليه ، لا معدى له عن أن يستجيب لهما :

الأولى : حق هذا الشعب عليه ، فلقد كان لزاما على الناصر أن يبادل هذا الشعب وفاء بوفاء ، وإلا كان عاقا وكان ناكرا للجميل .

والثانية : حق نفسه عليه ، فلقد كان لزاما على الناصر أن يحتاط لنفسه ممن حوله على صور مختلفة من الحيطة ، تختلف عنفا وتختلف لينا ، يستجيب فى ذلك إلى نفس موتورة لا ترضى إلا بالوتر ، وإلى نفس خائفة لا تستقر إلا مع الحذر ، وحسبه تلك التجارب بمحنها التى مرت به ، وما أولاه ألا يقع فى مثلها .

وكان الناصر فى الأولى غيره فى الثانية ، فهو فى الأولى كان لا يعطى عن عقله كله ولا عن نفسه كلها ، ولا عن إحساسه كله ، فما كان الناصر مصريا من المصريين يحمل عقلهم فيعقل مما يعقلون ، أو يحمل نفسهم فيعمل ما يعملون ، أو يحمل إحساسهم فيرى ما يرون ، وإنما كان رجلا دخل عليهم الحياة مغتصبا لحياتهم ، يرى حياته غير حياتهم ، لا يعنيه إلا أن يحيا ، ويعنيه من حياتهم أن يكونوا على الخضوع له والاستسلام ، يشترى منهم ذلك الخضوع وهذا الاستسلام بالعنف أن أمكنه العنف ، أو بالرضا إن أفلحت الخديعة ، ولا يعنيه شىء غير هذا ، لا يعنيه أن ينظر لأمرهم أو أن يدبر لشأنهم ، وما يجىء منه من ذلك النظر أو ذلك التدبير يجىء عفوا ، يريده هو لنفسه أولا ، ويصيب منه المصريون أن أصابوا فضلة ينالونها عرضا .

ولقد كان الناصر حين استقبل حياته الثالثة مع المصريين يحس هذين الشيئين ، يحس هذا الشىء الأصيل الذى ولد به ونشأ عليه ، ويحس هذا الشىء الذى دانه به المصريون حين وفّوا له وغمروه عطفا .

فلقد كان لزاما على الناصر أن يستجيب لهذين الشيئين ، ولكن الأول منهما كان فيه فطرة ، والثانى عارضا من العوارض التى تعرض للناس فى حياتهم فتحركهم إلى خير أو شر ، قد يمضون على هذا الخير طويلا ، وقد يمضون على ذلك الشر طويلا ، ولكنهم على كل حال لايصدرون فى هذا الخير وذاك الشر عن الطبع ، وهم من أجل ذلك سرعان مايتحولون .

والملوك غير الناس فى هذا ، إذ قلما تلقى الملوك شاكرين للرعايا عواطفهم النبيلة ، وقلما تلقى الملوك باقين على هذا الشكر وتلك المجازاة ، فهم غير الناس .. يرون هذا الوفاء من الرعايا ضربا من الخضوع المفروض عليهم ، إن أحسن الملوك الظن بأنفسهم وبرعاياهم ، ويرونه ضربا من الذلّة التى يجب أن يفرضوها هم على الرعايا إن أساء الملوك الظن بأنفسهم وبرعاياهم .

وماندرى على أى لون كان الناصر من بين الملوك ، أكان ممن يحسنون الظن بأنفسهم ، أو ممن يسيئون الظن بها ؟ ولكنه على كل حال فعل شيئا من أجل هذا الشعب الذى أحاطه بعطفه وفتح له قلبه .

ومانراه فعل كثيرا أو كبيرا مما يرد إلى الشعب وجوده الحى ، أو يفسح السبيل أمامه إلى وجود حى ، فما مد الناصر يده ليجعل من الشعب قواده وأمراءه ، وهو الذى ذاق من أمرائه وقواده ، وماأفسح السبيل أمام الشعب ليخطو الشعب إلى أمد له وغاية ، وكان كل مافعله الناصر ليجزى هذا الشعب على وفائه ونصره أنه نظر إلى الجسور والترع فعمرها ، يريد نفسه أولا ، ويريد الشعب معه ثانيا ، وأنه تخفف شيئا فى الجباية التى كان المصريون يعانون منها كثيرا ولا يكادون يذوقون من جهدهم معها إلا العرق والضنى ، وأبطل نصف السمسرة ، وكان من يبيع شيئا بمائة درهم يقتطع منه درهمان ، يؤخذ منهما درهم للسلطان ودرهم للدلال ، كما أبطل رسوما كثيرة كانت مفروضة على الناس ظلما فيما يلبسون ويأكلون ويملكون ، فكان على الملح رسوم ، وعلى أفراح الناس رسوم ، وعلى مآتمهم رسوم ، وعلى السجناء فى سجونهم رسوم ، وعلى المسافرين فى البحر رسوم ، يستوى فى ذلك الفقير والغنى .

فلقد أبطل الناصر هذا وشيئا غيره رأى أن يكسب به عطف الشعب الذى كشف له عن عطفه ، وكان الشعب مضيقا عليه كل الضيق ، معسوفا به كل العسف ، فحين فرج الناصر عنه شيئا من ضيقه ، وأزاح عنه بعض مايشكو من عسف زاد الشعب الناصر عطفا وزاده حبا وزاده ولاء ، يريد أن يفسح للناصر الطريق لكى يمضى إلى غاية أبعد .

غير أن الناصر لم يمض إلى مابعد هذا ، فلقد كان أكثر شغلا بهمه الثانى ، ونعنى به هم نفسه ، شغله هذا الهم كثيرا فعناه انتقاما وثأرا ، لاتكاد تطلع عليه شمس إلاوهو يدبر لثأر ، ولايكاد ينطوى عام إلا وقد

انطوت معه ضحايا ، وعبر الناصر اثنين وعشرين عاما يشفى نفسه مما قد أوذيت به نفسه .

ولقد مر بك مافعله الناصر بالخليفة أبى الربيع سليمان حين جاء هذا الخليفة يهنئه مع المهنئين ، ولقد فعل الناصر مثلها مع القاضى على بن عبد الظاهر ، وكان هو الذى كتب عهد بيبرس عن الخليفة ، وزاد الناصر فسبه ، كما عنف الناصر بقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، وكان قد أفتى بقتاله ، كما هم بأن يقتل ابن المرحل ، وكان قد هجا الناصر بأبيات ذكر له الناصر منها قوله :

مـاللصبى ومـا للملـك يكفلـه شأن الصبى فى غير الملك مـألوف

ولقد كان الناصر مع هؤلاء هينا ، لأنه عرفهم لايملكون رأيا ، وإنما يملَى عليهم فيقولون ، وكما يكون السلطان يكونون ، والتفت إلى غيرهم ممن يملكون الرأى ، ويملكون الفتنة .

وبدأ الناصر يدبر للقبض على عدد من الأمراء ، فدعاهم إليه ووكل بهم مماليكه فقبضوا عليهم جميعا ، وحين قبض عليهم سجنهم ، وولى مكانهم أتراكا غيرهم ، لم ينظر إلى ذلك الشعب الذى والاه فيختار منه ، لأنه ظل على الرغم مما كان من الشعب إليه يرى هذا الشعب مغلوبا ، ويرى نفسه غالبا ، وبعيد أن يأنس الغالب بالمغلوب .

ويحس الناصر أنه قد قوى شيئا وأمن شيئا ، فبدأ يفكر فى الخلاص من سلار ، وكان سلار من قبل ذلك بقليل يحس بأنه على الرغم مما فعل من توبة بعد إساءة لم يملك قلب السلطان ، ولم يستطع أن يزيل منه الكراهية له ، من أجل ذلك سأله أن يعفيه من الإمرة والنيابة ، وخرج سلار من القاهرة بعد أن أنعم عليه الناصر بالشوبك لتكون له يقيم فيها ، على أن يعود إلى القاهرة إن جد للسلطان سبب يدعوه به .

وماكان سلار حين شرط على نفسه ينوى أن يبر بهذا الشرط ، ولكنه اختلق هذا الشرط ليتيح لنفسه الخروج عن القاهرة سالما ، ثم ماكان سلار يغيب عليه مايريده السلطان به حين دعاه إليه ، من أجل ذلك لبث سلار يفكر ، ولقد هم بأن يهرب إلى مكان ماغير مصر ، ولكنه رأى السلطان قد ضيق عليه ، فلم يجد بدا من أن يذهب إليه ، حين وقع سلار فى يدى الناصر قبض عليه وحبسه فى القلعة .

وكان الناصر يطمع بهذا الذى فعل فى شيئين : يطمع فى أن يأمن غدر سلار ، ولقد جرب عليه ذلك ، ويطمع بعد هذا الأمر فى مال كثير كان سلار قد اكتنزه .

ويعنينا هنا أن نكشف لك عن ذلك المال المكتنز .. لتعرف كيف كان يعيش هؤلاء الأمراء ، وكيف كان يعيش الناس من حولهم ، غنى مفحشا تراه للأمراء ، وفقرا مدقعا تراه للناس .

والمؤرخون يروون أن الناصر وقع على سرب لسلار ، كان سلار يخفى فيه ماله ، فوجد فيه سبائك من ذهب وفضة ، ووجد فيه جربا فى كل جراب عشرة آلاف دينار ، ويحكى المؤرخون أيضا أن الناصر حمل من ذلك السرب أكثر من حمل خمسين بغلا من الذهب والفضة ، هذا غير سبع وعشرين خابية قد ملئت ذهبا وجواهر ، زنة هذا كله نحوا من عشرة قناطير .

وماكان هذا بكثير على رجل كان يملك أن يغلب الناس على أرزاقهم ، وكان دخله مع كل يوم من غلة أملاكه مايبلغ ألف دينار .

ولقد أمعن الناصر فى إيذاء سلار إلى أن مات ، فلقد حبسه ثم منع عنه الطعام والشراب فى الحبس ، وحين عضه الجوع وأضناه العطش .. ورفع

مغطاة ، وحين اقبل عليها سلار وجد فى طبق ذهبا وفى طبق فضه وفى طبق لؤلؤا وجواهر ، فارتد يعلم أن الناصر أراد أن يؤذيه فى نفسه بعد ماآذاه فى بطنه فانطوى على هم ، وانضم إلى هم بطنه هم نفسه ، وهم النفس تدفعه تعلات ، وهم البطن لاتدفعه إلا لقمات ، وأنى بسلار بتلك اللقمات ، فإذا هو آخر الأمر لايجد بين يديه إلاحذاءه ، وإذا هو يضع هذا الحذاء فى فيه يريد أن يتبلغ به إن أمكنه التبلغ ، وإذا الحراس يدخلون عليه ليروا إلى أية غاية انتهى ، فإذا هم يجدونه قد لفظ أنفاسه والحذاء فى فيه .

وهكذا مات سلار وهو يشتهى لقمة ، وكان فى مخازن غلاله يوم أن مات مايربى على أربعمائة ألف إردب ، إن صح مايقوله المؤرخون .

وحين يخرج الناصر من شر قديم ، هو شر سلار ، يدخل فى شر جديد هو شر بكتمر ، وكان نائب سلطنة للناصر .

فلقد أخذ بكتمر يحرض على خلع الناصر ، ويدعو لموسى بن على بن قلاوون

ولكن هذا الشر الجديد لم يمض طويلا ، فلقد علم به الناصر وهو لايزال فكرة تدار فى الرؤوس ، فوقع على أصحابه كلهم ، وكاد أن يقتلهم كلهم ومعهم بكتمر ، ولكنه مالبث أن عفا عنهم .. لكثرة مابكوا ولكثرة مابكى معهم كثيرون .

ولكن الناصر كان قد جرب الفتن ، ولاسيما فتن هؤلاء الموالى الأتراك ، وعلمته التجربة أن مثل هذه الفتن مايقضى عليها السلم ، وأن مثل هذه القلوب التى تدبر للفتن لايصلحها العفو ، كما علمته التجربة أن يكون ماكرا وأن يكون محتالا ، وعلمه مكره كما علمه احتياله أن يكون بمأمن عن تحريك القلوب عطفا على من يريد أن يوقع به انتقامه ، من أجل هذا

المكر وذلك الاحتيال عدل الناصر عن أن يقتل بكتمر ومن معه ، حين وجد قلوبا كثيرة مشفقة ونفوسا كثيرة واجدة ، فإذا هو يعفو ، وإذا هو يكسب بعفوه هذه القلوب وتلك النفوس ، وإذا هو يرخى لنفسه لينال من خصمه دون أن يحرك قلوبا أو يثير نفوسا .

ولقد دبر الناصر لقتل بكتمر ، وإذا بكتمر يطويه الخفاء فى جوفه طيا ، وماعلم أحد كيف انطوى ولاعلم أحد كيف غاب .

ومضى الناصر بعد ذلك يفعل بأنصار بكتمر مافعل ببكتمر ، وإذا هو يكاد يخلص منهم جملة .

وماسكت الموالى الأتراك عن الناصر ، ولاسكت عنهم الناصر ، بل لقد عاشوا له شاغلين وعاش هو مشغولا بهم ، يقرب ويبعد ويعطى ويمنع ويسجن ويطلق ، ويقتل ويعفو ، لم ينفض من ذلك يدا إلى أن مات .

واتصلت بهذه الفتن فتن أخرى كادت تفسد مابين المسلمين والنصارى من حب وإخاء ، فلقد تعرضت القاهرة لحريق كبير ظل يأكل فيها خمسة عشر يوما والناس لايقوون عليه ، على الرغم من تجمعهم جميعا له .

ومايكاد هذا الحريق يخمد حتى يهيج حريق آخر ، ثم حريق بعد حريق ، كلما خمد حريق هاج حريق .

ويلقى الناس تبعة ذلك على رجال من النصارى ، لاندرى لذلك أسبابا ، ولاندرى لذلك مايؤيده ، ولكنا ندرى أن تلك النار التى هاجت فى أحياء القاهرة .. هاجت نار مثلها فى قلوب أهل القاهرة ، وكاد أن يقع معها شر كبير بين أهل البلد الواحد ، وكاد السلطان ومن حوله أن يزيدوا هذا الشر بين أهل هذا البلد الواحد .

وإن دلنا هذا على شىء .. دلنا على أن هذا البلد الواحد كان يعانى بلبلة وكان يعانى جورا ، ولقد أفسدت هذه البلبلة كما أفسد هذا الجور

على الإخوة نفوسهم ، والإخوة حين تفسد نفوسهم يخرج بعضهم على بعض متلمسين لذلك الخروج أسبابا ، ولقد وجد هؤلاء الإخوة حين خرج بعضهم على بعض - إن صح مارأوا - الدين سببا .

ولسنا ندرى بعد ذلك كم أتلفت تلك الحرائق وكم خربت ، كما لسنا ندرى كم أتلفت تلك الفتن ، وكم عرضت للتلف ، ولكنها على ذلك كانت كثيرة وكانت عظيمة .

- ٢٠ -

والذى قدمته لك عن سلار وجشعه واستئثاره بمال العباد ، أسوق لك مثله عن رجلين آخرين عاشا فى عهد الناصر وتحت ظله ، لم يقلا عن سلار جشعا واستئثارا بأموال العباد ، لتعرف كيف كانت تعيش مصر .

لقد كان أول الرجلين .. رجل يدعى النشو .. ونشأ النشو هذا أول مانشأ كاتبا للأمير بكتمر إذا الدنيا تقبل عليه ، وإذا هو بعد قليل يصبح ناظر الخاص للناصر .

وحين ملك النشو هذا المركز بيساره ملك الناصر بيمينه ، فمضى يجمع باسم الناصر الغلات والأموال . يعطى للناصر بيد ويأخذ هو بيد .

وحين أرضى الناصر ملك أن يرضى نفسه ، وإذا هذا الرضا وذاك الرضا يكلفان الناس شططا ويكلفانهم رهقا .

وماسكت الناس عن النشو فلقد هموا أن يقتلوه ، غير أن الأجل أخطأ ليلقى أجلا أمرّ ،

ولقد ارتفعت الأصوات بالضجيج منه ، ولكن أُذن الناصر كانت صماء ، لأن النشو كان داهية ، ولأن الناصر كان بما ينال على يديه راضيا ، وخرج الناس عن الضيق بالنشو إلى الضيق بالناصر ، وجرت ألسنة الشعراء تهجوهما معا ، من ذلك قول شاعرهم :

أمعنت فى الظلم وأكثرتـــــه وزدت يـــانشـــو على العـــالم

ترى من الظـــالم منكم لنـــا فلعنــــة الله على الظـــالم

والشاعر لاشك يقصد النشو ويقصد معه الناصر، ولكن الناصر ظل لا يقضى فى أمر النشو بشىء يريح الرعية .

وما لم يفعله الناصر استجابة لهذا الشعب المظلوم، فعله استجابة لمملوك له اسمه يلبغا، وكان هذا المملوك قد اشتكى علة، فقام الناصر إلى جواره، لأنه كان يحبه وكان شغفا به، ولأمر ما ينقل هذا المملوك إلى السلطان فى تلك الحال التى قد تهيأت فيها نفس الناصر للاستجابة، عن النشو ما يسىء إليه ويشكك الناصر فى أمره، وإذا الناصر يستجيب ليلبغا، وإذا هو يقبض على النشو، ويقبض على أخ له، ويقبض على أقارب لهما .

وما إن ينتهى هذا إلى الناس حتى يخرجوا جميعا تاركين دورهم وحوانيتهم مهللين فرحين، يرقبون فى النشو وأهله ما يرجون، ولقد أراح الله الناس من النشو، وأراحهم من عسفه .

والمؤرخون يروون أن الناس وقعوا على الكثير من مال النشو، حملوه إلى السلطان، فإذا هو شىء كثير ما بين ذهب وجواهر لا يكاد يحصيه عدّ ولا يبلغه وزن، والنشو على هذا عاش حياته يتظاهر بالفقر ويشكو العوز ليستر أمره ولا يدع العيون تتطلع إليه، ولقد عاش الناصر به مخدوعا، ولكن الناس لم يخدعوا به .

وثانى الرجلين مملوك يدعى تنكز، كان من مماليك الناصر، وكان أول من رقاه الناصر إلى المراتب السنية، فلقد ولاه الناصر أول ما ولاه نيابة الشام، ثم أمعن الناصر فألزم نواب حلب وحماة وحمص وطرابلس وصفد بألا يكاتبوه، إنما يكاتبون أولا تنكز، ثم يكتب تنكز إلى

السلطان ، ولقد رضى بذلك من يحب الحياة من الأمراء ، وأبى ذلك من يؤثر الكرامة من الأمراء ، فأما من أحب الحياة منهم فقد فاز برضا تنكز ورضا السطان فعاش أميرا كما كان ، وأما من آثر الكرامة على الحياة فقد أغضب تنكز كما أغضب السلطان ، فخرج من الإمارة مغضوبا عليه .

وبقى تنكز على تلك الحال يرخى له الناصر فيزيده ودا ويزيده تقربة ، ويرخى تنكز للناصر فيزيده ولاء ويزيده إهداء ، يقبل تنكز على الناصر المرة بعد المرة تاركا ولايته ليلقى الناصر فى القاهرة ، وهو فى كل مرة يلقى كريم وفادة ويعطى جليل رفادة .

ولعل الذى جمع ما بين الناصر وتنكز وأكد هذه الصلة وزاد فمهد لتنكز أن يذهب إلى القاهرة مرات كثيرة تاركا ولايته .. هى صلة النسب التى ربطت ما بين الناصر وما بين تنكز .

فلقد كان الناصر قد تزوج بنتا لتنكز ، وكان له منها ابن هو صالح بن محمد بن قلاوون ، فلعل هذه الصلة أيضا هى التى جعلت الناصر لا يصبر على غياب تنكز عنه ، وجعلته لا يقضى أمرا دونه ، وجعلته يستمع إليه فى شئون الأمراء والناس .

غير أن هذا الصفاء عاد فاستحال نفرة ، فإذا الناصر غاضب على تنكز ، وإذا تنكز يخاف الناصر .

وما كانت هذه النفرة شيئا غريبا على أسلوب هذا العصر ، فلقد كان هؤلاء الأمراء أصدقاء ما تساووا ، فإذا ما علا أحدهم غرس الحقد فى قلوب سائرهم ، وإذا ما ملك أحدهم نظر بعين الريبة إلى كل من تجتمع إليه أسباب الحياة من جاه ومال ، يراه منافسا له على سلطانه .

وهكذا كان الناصر ، فحين انبسطت أسباب الحياة لتنكز جاها ومالا بدأ يغضب عليه ويحقد ، وإذا تنكز بعد قليل مقبوض عليه ، وإذا هو مأسور .

ويفد إلى الناصر هذه المرة ليلقى الناصر، ولكن على حال أخرى، فلقد رآه الناصر فردا مغضوبا عليه، ولم يلقه أميرا مرحبا به، وإذا هو تحصى عليه أمواله التى جمعها فى ظل الناصر وفى ظل إرخاء الناصر له، فإذا هى أشياء يفرد لها المؤرخون صحفا من كتبهم ليكتبوا فيها ما حازه تنكز من أرزاق العباد، وإذا هى شىء كثير من مال وعقار وعتاد وجواهر.

فهذه الحال وتلك، حال النشو وحال تنكز، التى رأيت فيهما كيف جمع النشو وكيف جمع تنكز، وكيف كان النشو وكيف كان تنكز مطلقى اليدين فى أرزاق الناس يجمعان ما يشاءان دون رقابة ودون حساب.

هاتان الحالان تعطيانك فكرة عن حال الناصر مع رجاله، إن رضى أرخى لهم فجمعوا ما يحبون، وإن غضب ضيق عليهم فصادر ما يملكون، لا يعنيه الشعب المكدود وأرزاقه المسلوبة، ولكن يعنيه هؤلاء النفر القليلون من حوله يشغل بهم، وهم به يشغلون.

وما يعنينا أن الناصر حين ترك الحياة ليلقى ربه أنه قد خلف عمارات كثيرة، ولكن يعنينا أنه لم يهيىء لشعبه حياة مستقرة، بل تركه نهبا لأطماع الطامعين، وعاش هو مشغولا بأمرائه، مشغولا بجواريه، مشغولا بوصيفاته اللاتى زدن على ألف ومائتين وصيفة، كما يقول المؤرخون.

— ٢١ —

وحين يودع الناصر الحياة فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، يستقبل ابنه أبو بكر الحياة – أعنى الملك – وأعنى ملك مصر، وحين يملك الملك يملك لقبا ينضاف إلى اسمه فيصير اسمه: أبا بكر المنصور، وكان الثالث عشر من هؤلاء الملوك الأتراك الذين حكموا مصر.

وهكذا كتب لهذا البيت – أعنى بيت قلاوون – أن يتصل بالملك، وأن يرث هذا الملك ابن عن اب وأخ عن أخ، وابن عم عن ابن عم، وهكذا ظل

هذا البيت يحكم مصر حكما موصولا نحوا من مائة عام تزيد نحوا من سبعة أعوام أو ثمانية .

فقد آل حكم مصر إلى تلك الأسرة يوم أن انتزعه جدها الأول قلاوون من ولدى بيبرس السعيد ثم العادل ، واستأثر هو به يجعله له ليكون من بعده فى أبنائه وأبناء أبنائه ، يخلع بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا ، ولكنهم على هذا حكموا ، واتصل حكمهم ، وتوالى على مصر منهم ستة عشر ملكا ، لم ترمهم الأيام بطامع فيهم خلال تلك الفترة الطويلة ، إلى أن كان آخرهم الصالح حاجى ، فيغلبه على أمره برقوق سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، ويستأثر بالملك دونه ويقطعه عن تلك الأسرة .. أسرة قلاوون .

ولكنى قبل أن أنتقل بك إلى الحديث عن برقوق ، أحب أن أجمل لك الحديث عن أبناء قلاوون ، من أبى بكر إلى الصالح ، أجل أحب أن أجمل لك تاريخ ثلاثة عشر ملكا حكموا مصر نحو من أربعين عاما تزيد قليلا ، حكم منها الأشرف شعبان نحوا من أربعة عشر عاما ، وحكم منها الناصر حسن نحو من عشر سنين .

فها أنت ذا ترى معى أن نحوا من أحد عشر ملكا حكموا بعد هذين - أعنى الأشرف شعبان والناصر حسن - نحوا من ثمانية وعشرين عاما ، وهذه الكثرة من الملوك مع هذه القلة من الأعوام تكشف لك عما كانت عليه الحال من قلق واضطراب ، وهذا ماأحب أن أجمله لك قبل أن أبلغ بك إلى برقوق .

وحين أحدثك عن هؤلاء السلاطين والسلطنة لن أنسى أن أحدثك عن الخلفاء والخلافة ، ولكنك لن تجد حديث الخلفاء والخلافة كثيرا ، فلقد كان الخلفاء قلة قليلة ، يطوى عمر الواحد منهم أعمارا ، وكانوا على هذه القلة لايكلفون أنفسهم عناء الدخول فى حياة الدولة إلا بالقدر الذى يؤذن لهم به .

وأنا لهذا بادىء بهذا القليل لأمضى فى الكثير، ولكى لاأقطع بهذا القليل ذاك الكثير الذى أحب أن أسوقه لك موصولا .

ولقد كنت ذكرت لك وأنا أحدثك عن الناصر ماكان منه إلى الخليفة المستكفى أبى الربيع سليمان ، بعد ماكان من أبى الربيع سليمان إلى الناصر ، ولقد علمت من هذا الذى ذكرته لك أن أبا الربيع سليمان أسرف فى بيع نفسه ، حين مالأ بيبرس علىٰ الناصر ، ولقد أسرف الناصر فى التهوين من شأن الخليفة حين عاد إلى الحكم .

ومانظن الخليفة إلا عاش بعيدا عن الناصر ، ومانظن الناصر إلا عاش مبعدا للخليفة . فلقد أخرجه الناصر إلى قوص .

وحين مات الخليفة بقوص كان قد أوصى بالخلافة من بعده لولده أحمد ، وأشهد على ذلك أربعين عدلا ، وكتب ذلك قاضى قوص .

وكانت مثل هذه للخليفة يفعلها ، يوصى وتقبل وصايته ، حين يكون الأمر سلما بين الخلفاء والسلاطين ، ولكن أبا الربيع سليمان أنسى مابينه وبين الناصر ، وخال بالذى فعل من اشهاده أنه مُمْضٍ وصاته ومنفذ ماأراد ،

ولو أن لِمَيّتٍ أن يعلم .. لعلم أبو الربيع أن الناصر لم يأبه لتلك الوصية ، ولم يأبه للشهود بما شهدوا ، ولم يأبه للقاضى بما أثبت .

وإذا الناصر يمعن فى استهتاره ، وإذا هو يدعو إليه ولدا ماجنا مستهترا من هذا البيت الخليفى ، كان ابن عم لأحمد ، وكان اسمه إبراهيم .

ويدخل قاضى القضاة فى الأمر ، ينصح للسلطان ألا يفعل ، ويأبى السلطان إلا أن يفعل ، وإذا ابراهيم خليفة ، وإذا هو مبايَع ، وإذا هو يحمل لقبا من تلك الألقاب ، وإذا هذا اللقب الذى حمله إبراهيم : الواثق .

وماسكت عامة أهل مصر عما سكت عنه قضاتها ، وماكان يملك العامة غير أن يبرموا بما كان ويضيقوا به أنفسا ، يدفعهم هذا البرم وذاك الضيق إلى أن ينفسوا عن أنفسهم نوعا من التنفيس ، وكان ذلك التنفيس الذى أرضى نفوسهم أن أطلقوا ألسنتهم تتندر بالواثق .

لاندرى كم قال المصريون متندرين ، ولكن المؤرخين يحفظون من ذلك الكثير الذى تندروا به ، من ذلك تلقيبهم الواثق بالمستعطى ، يعنون أنه كان يستعطى من الناس ماينفقه .

ومامللك هذا الخليفة الهين أن يمسك أمره ، كما لم يملك السلطان أن يمسك الألسنة عن أن تتندر بالخليفة ، فخرج عن الخلافة ليقول فى أمرها المنصور أبو بكر السلطان الجديد ، بعد ماقضى فى أمرها أبوه الناصر هذا القضاء الذى مر بك .

ويقضى أبو بكر المنصور ، وإذا هو يعيد إلى الخلافة أحمد ، أو قل يمضى وصية أبى الربيع فيعيد أحمد .

ولكن السلاطين حين ملكوا أمر الخلفاء كله ، ملكوا أن يملوا عليهم مايريدون وملكوا أن يؤخروهم عن الأمر كله ، بعد أن كانوا قد أفسحوا لهم شيئا ، وأعطوهم شيئا .

فإذا الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد يجلس حين يجلس الجالسون بين يدى السلطان متخلفا ، تنحط درجته إلى الثالثة حيث يجلس من لاشأن لهم ، وكان الخليفة من قبل ذلك يسمو عن السلطان درجة حين يجلس ، وكان الخليفة لايقوم للسلطان حين كان يسمو عنه درجة ، فإذا هو يقوم للسلطان حين هبط عنه درجتين .

ولكنه على هذا كان راضيا ، لأنه كان يطلب الدنيا ، ويطلب أيسر مافى الدنيا ، وهو الطعام الذى يقيم أوده .

هذا هو القليل من حديث الخلفاء والخلافة الذى أردت أن أبدأ به ، لأمضى معك فى ذلك الكثير الذى أحب أن أثنّى به .

ولقد مضى المنصور أبو بكر فى ذلك الطريق الذى مضى فيه سلاطين الأتراك من قبله ، لايعرف دولة ، ولكن يعرف مُلكا ، ولايعرف شعبا ، ولكن يعرف حفنة من المرتزقة حوله يخافهم ويرغب إليهم ، وحين يخاف يملى عن خوف .. فيقسو معاقبا ، أو يداور معطيا ، وحين يرغب لايعرف إلا البذل والإنعام .

والشعب مغلوب على أمره فى الحالين يعانى الضر فيهما ، فما خرج مع خوف السلطان إلا بما يسىء إليه ، ولاخرج مع رغبة السلطان إلا بما يسىء إليه ، وهكذا كان الشعب غارما فى الحالين .

ولم تخل حياة المنصور أبى بكر من حذر ورغبة ، وكلاهما يحمل على الإسراف ، يظن السلطان بهذا الإسراف أنه قد أرضى خوفه وأرضى رغبته ، فإذا هو قد حرك خائفين وحرك راغبين ، وماأعجز السلطان على أن تقوى على هذا وذاك يده الباطشة ويده المنعمة .

وإلى هذا انتهى المنصور أبو بكر ، وإذا هو يعجز عن أن يواجه الحياة على هم ، وإذا هذا الهم يدفعه إلى اللهو دفعا لينسى ، فإذا هو سكّير وإذا هو ماجن .

ولقد أمكن المنصور بهذه التى أراد أن ينسى بها همه خصومه ، فإذا هؤلاء الخصوم قوة لايقوى عليها المنصور أبو بكر ، وإذا هو مخلوع ، وماحكم غير تسعة وخمسين يوما ، وإذا هو بعد خلعه ينفى إلى قوص ليقيم بها شهرين ، ثم ليقتل بعد هذين الشهرين .

وحين خلع الخالعون المنصور أبا بكر ، لم يكن من بينهم من يجمع الأمر إليه ، فجمعوا أمرهم على صغير من هذا البيت ، لم يكن قد جاوز

الخامسة إلا بقليل ، وكان هذا الصغير أخا للمنصور أبى بكر ، وكان اسمه كجك .

والغريب أن هذا الاسم الأعجمى معناه بالعربية : صغير ، وإنا لا ندرى أكانت تلك تسمية أولى صادفت موقعها ، أم كانت تسمية متأخرة أطلقت على هذا السلطان حين ولى صغيرا .

ولقد أنسيت أن أحدثك عن رجل كان على رأس الخارجين على المنصور أبى بكر ، بدأ حياته مع أبى بكر ثانى اثنين يدبران له ملكه ، ومضى تباعد تلك الأيام القليلة بينه وبين أبى بكر ، فإذا هو خارج عليه وإذا هو خالعه .

وهذا الرجل الذى ساند المنصور أبا بكر ، وخلع المنصور أبا بكر ، كان من هؤلاء الرجال الذين امتلأت بهم هذه الحقبة .

ولعلك الآن تتطلع إلى معرفة هذا الرجل الذى بدأ صديقا وانتهى عدوا ، ولم يكن أوله ينبىء بآخره ، ولكنى مع هؤلاء المماليك لا أومن بأولاهم ، مع تلك التجارب الكثيرة التى سقتها لك من قبل ، وأنت حين تقرأ عنى أولى هذا الرجل « قوصون » ، وتقرأ عنى أُخراه ، سوف تؤمن معى بما أومن به .

فالناصر قبل أن يموت أوصى بولاية العهد لابنه المنصور أبى بكر ، والناصر قبل أن يموت كان قد ضمّ إليه مملوكا اسمه بشتك ، وأفسح له إلى أن بلغ فوق ما كان يأمل ، وحين مات الناصر كان فى هذا البلاط السلطانى رجلان يعتد بهما : بشتك هذا ، ثم قوصون .

وكان كلاهما قوى ، وكلاهما طامع ، من أجل ذلك دخل هذان الاثنان فى حياة السلطان المنصور أبى بكر يدبران له أمره ، كما قدمت لك .

ولكننى على هذا أحب أن أزيدك شيئا يتصل برجلنا قوصون ، فإياه أعنى .

فلقد كان بشتك لا يرى المنصور جديرا بالسلطنة ، على الرغم من عهد أبيه إليه ، وكان يرى أخاه أحمد الذى يلى الكرك ، أجدر بهذا منه .

وحين يرى بشتك .. يرى قوصون غير ما يراه بشتك ، فما رأى بشتك إلا ما يمهد به لنفسه ، وما يمهد به بشتك لنفسه غير ما يمهد به قوصون .

من أجل ذلك خالف قوصون بشتك ، ووقف إلى جانب المنصور أبى بكر يدافع عنه .

ولقد أراد بشتك المُلك لنفسه حين أراد أن يقصى عنه المنصور أبا بكر ، وأراد قوصون المُلك لنفسه حين أراد أن يثبت فيه المنصور أبا بكر .

عرف هذا بشتك عن قوصون ، وعرفه قوصون عن بشتك ، غير أن قوصون كان أذكى شيئا من بشتك ، فمال إلى صاحب حق معهود إليه ليكسب بمناصرته للحق تأييد الشعب ، ويكسب ذكرا طيبا .

ولقد كان لقوصون ما أراد ، فإذا هو كاسب هذا التأييد ، وإذا هو كاسب هذا الذكر الطيب ، ولقد أعانه هذا التأييد وذاك الذكر الطيب حين همّ أن يخلع المنصور بعد أن اجتمع على المنصور ما يشينه .

وما من شك فى أن المنصور فعل من ذلك الشائن شيئا ، فزاد قوصون على ذلك أشياء ، ليكسب الشعب كسبا آخر ، فيكسبه كارها للمنصور .

ولقد كان قوصون إلى ذكائه ذا دهاء ، فلم يظهر ميله إلى مناصرة الحق ، ومناصرة ولى العهد ، إلا بعد أن أظهر زهده فى الملك ، وأنه دون ما يطالب به ، يريد بذلك أن يصرف بشتك عن مثلها ، إن كان فى نفس بشتك مثلها ، ويريد أن يذهب بشك بشتك فيه ، إن كان ثمة شك فى

نفس بشتك ، ويريد بعد هذا وذاك أن يسمع الشعب عنه أنه رجل .. للحق يعيش ، وللحق يعمل .

والذى يرويه المؤرخون عن قوصون فى ذلك يزيدنا بدهاء قوصون علما ، فلقد رووا عنه أنه قال لبشتك ، حين همّ بشتك أن يعدل عن المنصور أبى بكر إلى أخيه ، وهو يعلم أنه يريد أن يمهد لنفسه ، فلقد رووا عنه قوله : ما أنا للسلطان بأهل ولا أنت للسلطان بأهل ، فلقد كنت أنا أبيع الخبز ، وأهل البلاد يعرفون عنى ذلك ، وكنت أنت تبيع البوزا - هذا الشراب المعروف اليوم باسم البوظة - وأنا اشتريت منك ، وأهل البلاد يعرفون عنك ذلك .

هذا ما رواه المؤرخون عن قوصون وهو يصرف بشتك عن أمره ، وما قصد قوصون بهذا القول إلا أن يهون من بشتك قبل أن يهوّن من نفسه ، وما قصد بهذا القول قوصون إلا أن يشيع ذلك فى الناس ليذكروه إن كانوا قد أنسوه ، وما على قوصون بعد ذلك إلا أن يُنهض نفسه بعد أن كبا بخصمه .

هذا هو قوصون ، وهذه هى أولاه مع المنصور أبى بكر .

وما كادت الأمور تستقر للمنصور وتستقر لقوصون مع المنصور ، حتى اعتقل بشتك ، وحتى قتله .

وحين خلا قوصون بالمنصور ، أو خلا بأمر المنصور ، أخذ يدبر لخلعه ، يضم إلى ما يشيع عنه شيئا يشبه هذا الذى يشيع عنه ، فإذا الناس مجمعون على حب قوصون لماضيه وكره المنصور لحاضره ، وإذا المنصور مخلوع ثم مقتول كما مر بك ، وإذا الصغير كجك على ملك مصر فى ظل قوصون ، وإذا قوصون صاحب أمر مصر يمضيه باسم كجك وإذا هذا الصغير كجك لا حول له ولا قوة ، يمضى الأمور كلها قوصون ، والصغير فى يده آلة .

ولقد أمعن قوصون فى الاستهتار وأمعن فى السخرية ، لم يكفه أن يكون صاحب السلطان ، فإذا هو .. إذا أراد أن يمضى شيئا .. جعل فى يد ذلك الصغير قلما ، والصغير لا يعرف كيف يمسك القلم .

يصف لك تلك الحال شاعر من شعراء مصر فى ذلك الآوان فيقول :

سلطاننا اليوم طفل والأكابر فى ... خلف وبينهم الشيطان قد نزغا
فكيف يطمع من مسّته مظلمة ... أن يبلغ السول والسلطان ما بلغا

فها أنت ترى كيف وصف الشاعر المصرى الشعب ، وكيف وصف السلطان والشعب عاجز عن أن يرد عن نفسه عجزا ، لم يجد الشاعر المصرى له مثيلا إلا فى حال ذلك السلطان الذى لم يعد يملك عن أن يرد عن نفسه بغيا ولا ظلما .

وما بلغ ذلك قوصون فى يسر ، بل لقد اشتراه بالكثير من مال يجمعه من كدّ الشعب ليكسب به ولاء الموالين ، واشتراه بالكثير من قسوة يمليها عليه خوفه ، ويمليها عليه حبه للمُلك ، فيعنف بمن تحت يده فى غير رحمة ولا هوادة قتلا ونفيا وتشريدا .

ولكن قوصون على هذا كان أعجز عن أن يرضى الموالين كلهم ، وكان أضعف من أن يخلص من المعادين كلهم ، وكان مع عطائه وعقابه يخلق جيلا جديدا من المعادين ما بين طامعين لم ينالوا مزيدا ، وراغبين يتلبثون يوما موعودا .

وكان الشعب إلى هذا ضائقا بقوصون ، ينكر على قوصون عدوانه على السلطان الصغير ، لا دفاعا عن هذا السلطان الصغير ولكن دفاعا عن نفسه ، فما كان هذا السلطان الصغير يعنى الشعب فى كثير أو قليل ، ولكنه رآه صورة من ألمه ، وصورة من ظلمه ، فهب يدفع عن ذلك الرمز الذى يحكى ما يعانيه كله وما يحسه .

ويصبح قوصون فإذا عليه خارجون ، وإذا الشعب مع هؤلاء الخارجين ، ويقوى قوصون على هؤلاء الخارجين وعلى الشعب مرة ، فيقتل من يقتل من الخارجين ، ويقتل من يقتل من الشعب .

ولكن قوصون لم يقو على الخارجين كما لم يقو على الشعب المرة الثانية ، فإذا هو محصور فى بيته ، يطل من شباكه ليشهد العامة وهم ينهبون ويخربون ، وإذا هو بعد هذا مقبوض عليه ليمضى إلى السجن الذى مضى إليه من قبل صاحبه بشتك ، وإذا هو بعد هذا مقتول .

ولقد وقع الشعب على شىء كثير من ذهب وفضة وجواهر كانت فى بيت قوصون ، وحين شفا العامة نفوسهم من قوصون ظمئت تلك النفوس لتثأر من أصحاب قوصون ، فإذا العامة ينتشرون فى أنحاء القاهرة وأرجائها يقعون على كل من يظنون أنه كان موصولا بقوصون .

ولقد كادوا فى ثورتهم تلك الجامحة أن يأخذوا بالظن كثيرين ، وكادوا أن يطهروا البلاد من كثير من الموالى ، لولا أن هؤلاء الموالى استيقظوا فزعين وتنبهوا فزعين ، فإذا هم يقفون للعامة ليردوهم عن إمعانهم فى التنكيل .

وما كان الشعب مغاليا حين أنكر على قوصون عدوانه على السلطان الصغير ، فلقد رأى فى السلطان الصغير رمزا لظلمه .

وما كان الشعب مغاليا حين تتبع الموالى يقتلهم وينهب دورهم ، يسوى بين من كان قوصونيا وغير من كان قوصونيا ، لأنه رآهم كلهم رمزا لظالميه .

ومضى قوصون عن عزه الذى كان مضرب الأمثال إلى لحده مع التراب . وما غلا شاعر مصر حين قال :

قـوصـون قـد كـانت لـه رتبـة يسمـو على بـدر السمـا الـزاهر

ثم ما كان غريبا على المصريين حين غالوا فأطلقوا ألسنتهم فى قوصون وصوروه صورا مختلفة ، فصوره صانعو الحلوى صورا كما يشاءون ، وقال زجالوهم فيه كما يشاءون ، من ذلك قول أديب منهم :

شخص قـوصـون رأينــا فى العـــلاليـــق مسمّر
فعجبنـــا منـــه لمـــا جـــاء فى التسمير سكر

- ٢٣ -

وخلا عرش مصر لسلطان جديد من أبناء قلاوون ، هو أحمد الـذى كـان على الكرك ، والـذى كـان يطمع بشتـك فى أن يـوليـه ، لـولا أن وقف لـه قوصون

وكان الـذى دبر لمجىء أحمـد هو الـذى دبر لخلع قوصون ، أو قل لخلع السلطان الصغير ، فما كان الملك لقوصون خلصا ، ولكنه كان يملـك بـاسم هذا السلطان الصغير .

ولقـد خلع هـذا المـدبر لتلـك الثورة ، ولم يكن غير مـولى من المـوالى يدعى أيدغمش - السلطان الصغير - وخلع معه قوصون .

ولقـد عرفت كيف كـان مصير قوصـون ، وأحب لـك أن أن تعرف كيف كـان مصير هـذا السلطـان الصغير ، فلقـد بقى بعـد خلعـه فى ظـل والـدتـه يعيشان معا عيشة ضنكا ، وإذا هو بعد أعوام قليلـة قـد دس لـه السم ليموت على فراشه ، وما كان عمره عندها غير اثنتى عشرة سنة .

واستقبلت القاهرة السلطان الجديد أحمد ، أخا السلطان الراحل كجك .

وهكذا عاش أولاد الناصر محمد بن قلاوون تجارة فى أيدى الراغبين فى الملـك ، يشترون منهم من يملكـون أن يحكمـوا بـاسمــه ، إذ كـــان هـؤلاء الراغبون فى الملـك أضعف من أن يحكموا بـاسمهم ، وأجبن من أن يقـدمـوا

على تلك الخطوة الجريئة ، لذلك أيسروا على أنفسهم ، يأخذون بالهين الرخيص .

وكما هان أمر الراغبين فى الملك .. هان الملوك أنفسهم ، فإذا الحال بيع وشراء وانتهاز فرص وانتهاب ثروات ، والشعب بين هذه الفوضى الضاربة يُضرب على غير هدى ، يميل ميلة هنا وميلة هناك ، وهو حين يميل هنا أو هناك لا يناصر هذا أو ذاك ، بل كان ينفس عن نفسه بهذا أو ذاك ، يرى هنا صورة من ألمه فيلتف بها ممعناً فى السخرية ، لا يريدها هى ، ولكنه يجدها الإبرة التى تنكأ قرحته ، ويرى هناك صورة من ظلمه فيلتف بها ممعناً فى عطفه ، لا يريدها هى ، ولكنه يجدها البوّ يحرك صدر الأم .

وكما لعب تجار الملك بمن سبقوا أحمد .. لعبوا بأحمد ، فإذا هو تتنازعه رغبات ، وتتنازعه أهواء ، وإذا هو يصدر عن تلك الرغبات وهذه الأهواء ، وإذا هو صورة مضطربة تحكى اضطراب العصر الذى عاش فيه .

فحين ذهب إليه تجار مصر من الأمراء الأتراك يدعونه من الكرك ، زيّن له تجار الكرك من الأمراء الأتراك ، الذين خافوا أن يفقدوا شيئا ، زيّن له هؤلاء التجار - أعنى تجار الكرك - أن يغلظ لتجار مصر - فإذا تجار مصر يكادون أن يغضبوا ، وإذا هم يكادون أن يخعلوه ، وما كانوا قد ولوه ، ولكنهم صبروا يغالبون تجار الكرك .

وحين حضر أحمد إلى مصر التف به تجار الكرك من الأمراء الأتراك يريدون أن يفسدوا على تجار مصر من الأمراء الأتراك صفقتهم ، ويكاد تجار مصر يثورون بالسلطان ولكنهم صبروا يغالبون تجار الكرك .

وحين يغلب دهاء تجار مصر دهاء تجار الكرك ، يخرج تجار الكرك بسلعتهم - وأعنى بها السلطان أحمد - حيث كانت أولا .

ماستطاعوا جمعه من أغنام وبقر وخيول وذهب وفضة .

وكان أسلوب ذلك العصر أسلوب تجارة - كما قلت لك - ثم كان أسلوبا مسفا لاأسلوبا رفيعا ، من أجل ذلك علّم هؤلاء التجار هذا الملك أن يكون مسفا فى جمعه مسفا فى نهبه .

فقلد علّموه قبل أن يرحل .. أن يرسل إلى جوارى أبيه اللاتى يملكن مالا ويملكن جواهر وحليا ، وعلموه أن يرسل إلى واحدة بعد واحدة يعرفها أنه داخل عليها الليلة ، فإذا تجملت بحليها وجواهرها أرسل من يحضرها إليه ، فإذا خرجت عن مكانها أرسل من يأخذ جميع ماعندها ، ثم أخذ هو جميع ماعليها .

هكذا فعل هذا السلطان قبل أن يخرج من مصر ، أوحى بذلك إليه وعلمه إياه تجار ذلك العصر الذين اتخذوا الملوك سلعا تباع وتشترى .

وحين استقر التجار بسلعتهم فى الكرك عز على تجار مصر ماغبنوا فيه ، وحاولوا أن يستردوا تلك السلعة فما أفلحوا ، فإذا هم يخلعون أخا ليقيموا مكانه أخا ، وحين خلعوا أحمد أقاموا مكانه أخاه اسماعيل .

وكما أغرى تجار الكرك أحمد أن ينهب ويجمع .. أغرى تجار مصر إسماعيل أن يبعث فى استرداد مانهب أخوه أحمد ، وكان أحمد قد نهب طائرا من ذهب كان على القبة بالقلعة ، كما نهب غاشية من ذهب ومالا كثيرا .

ولقد عز على أحمد أن يرد مااغتصب ، وعز على تجار مصر أن يتركوه يستأثر بما اغتصب ، فأغروا به إسماعيل ، كما قلت لك ، ولازال إسماعيل بأخيه حتى قبض عليه ، ولكن بعد أن أتلف الكثير ولم يبق فى يده إلا القليل .

قتله ، وحز رأسه ، وحمل هذا الرأس إلى القاهرة .

وهكذا خسرت القاهرة المال وكسبت هذا الرأس الذى لم يشف إلا نفوس هؤلاء التجار ، وهكذا خرج أحمد عن عرش مصر لم يجلس عليه غير ثلاثة أشهر وأياما ، قضى منها بالكرك نصفها .

— ٢٥ —

وجلس إسماعيل على عرش مصر ، أجلسه عليه تجار مصر من الأمراء الأتراك بعد أن غلبهم تجار الكرك من الأمراء الأتراك ، وهؤلاء التجار حين يخلعون أو يولون يتلمسون للخلع والتولية أسبابا ، فهم على إهمالهم شئون الناس كانوا لايزالون يخافون الناس ، إن لم يخافوهم على صباحهم خافوهم على مسائهم ، فما عاش الناس بلهاء أو أشباه بلهاء ، ولكنهم كانوا حينا يعيشون مغضين أو شبه مغضين .

من أجل ذلك خاف هؤلاء التجار الناس ، وراحوا يتلمسون لتجارتهم ، حين يبيعون أو يشترون أسبابا ، وهم حين خلعوا أحمد وجدوا أسبابهم ، أعطاهم إياها أحمد قبل أن يفتشوا هم عنها ، وهم حين أرادوا أن يولوا إسماعيل وجدوا فيه تلك الأسباب ، أو خلقوا له هم تلك الأسباب ، فلقد أشاعوا عن إسماعيل أنه كان صواما قواما ، يصوم يومى الاثنين والخميس ، ويشغل أوقاته بالصلاة وقراءة القرآن .

وما يبعد أن يكون إسماعيل على ماقالوا ، وأنه كان صواما قواما ، يرجو بصيامه وقيامه ملء فراغ فى نفسه ، أو لفت الناس إليه ، تقول هذا لأنا وجدنا إسماعيل حين غدا سلطانا لصلاحه ولقب بالصالح اسماعيل ، إذا هو يخرج عن صلاحه هذا كله جملة وينغمس فى اللهو ويفرط فيه .

والمؤرخون الذين رووا له صلاحه قبل أن يلى رووا له بعد أن ولِىَ

شغفه بالجوارى السود ، ورووا له إفراطه فى حب عوادة اسمها اتفاق ، ورووا له تقريبه لأرباب الملاهى ، ورووا له إقباله على المطربين والمطربات ، ورووا له فى هذا كله مجالس يضيق عنها الوصف تمتلىء بالترف ، وتمتلىء بالسرف .

وحين شغل هذا السلطان بلهوه أفسح للخدم ومن فى منزلة الخدم السبيل إلى الدخول فى أمور الدولة ، يقضون فيها بما يشاء لهم هواهم الفاسد ، فإذا هذه الأمور تباع وتشترى ، والوسطاء فى هذا وذاك الخدم والنساء .

وما انتفع الصالح بصلاحه ، كما لم ينتفع بمجونه ، فلقد أخذ فى صلاحه لا عن خشية يجدها ، ولكن عن نقص يحسه ، ولقد أخذ فى مجونه لاعن نهم يجده ، ولكن عن نقص يحسه ، من أجل هذا لم يذق الصالح لذة الصلاح كما لم يذق لذة المجون ، وإذا هو حين يحمَل إليه رأس أخيه ويلقى به بين يديه ، بعد كفاح طويل ، يفزع ويهلع ويجزع ، وإذا هو يمرض ليموت ، وما حكم غير ثلاث سنين وشهرا وثمانية عشر يوما .

وكما خرج الصالح من الملك دخل أخوه الكامل شعبان إلى الملك ، فلقد خرج الصالح مطعونا عليه ، ودخل الكامل مطعونا عليه ، ولقد مضى الصالح فى الملك ثلاث سنوات تزيد قليلا ، وقضى الكامل فى الملك سنة وخمسين يوما ، ولقد أسرع إلى الصالح الموت .. فخرج به عن ملكه وعن دنياه معا ، وأسرع إلى الكامل الخلع .. فخرج به عن ملكه ليخرج به القتل بعد الخلع عن دنياه ، ولقد مهد مجون الصالح النفوس ، وكانت على أن تثور به لو طال به الزمن ، وحين استقبل الكامل الملك ماجنا .. استقبله الشعب ساخطا ، لأنه كان متهيئا لهذا السخط ، كما قلت لك .

وفى الحق لقد كانت أيام الكامل محنة من المحن التى أصيب الناس معها فى أخلاقهم ، فكما استهتر الكامل استهتر جنوده ، واستهتر الناس ، فلم تعد بعد حرمة مرعية ، وذاق الناس من ذلك بلاء عظيما .

ولكن هذا البلاء الذى فتح - على الناس - بابه الملك الكامل لم يغلق بولاية أخيه المظفر حاجى ، فإذا هذا السلطان الجديد أسوأ سيرة من السلطان المخلوع ، وزاد على السلطان المخلوع ، فقتل من العباد فوق ماقتل سلفه ، لم يرحم ولم يمهل .

والغريب أن الشعب حين ثار به ، وأنزله عن فرسه يبغى ذبحه ، قال لمن حوله : بالله لا تستعجلوا علىّ ، خلّونى ساعة .

والشعب الذى كان يذكر لهذا الظالم استعجاله بمن يقتل .. ذكره به حين هم أن يذبحه ، فقال له : كيف استعجلت أنت على قتل الناس ؟ لو صبرت عليهم لصبرنا عليك .

وهكذا كان القدر عادلا حين أمكن الشعب من أن يذبح من ذبح منه ، وكان عادلا حين أمكن هذا الشعب من أن يقف من ظالمه هذا الموقف الجرىء الشجاع يقول له مايرضى نفسه ، وكان القدر عادلا حين لم يمد فى حياة هذا الظالم السفاك ، ولم يمهله غير عام وأشهر ثلاثة وأيام أربعة عشر .

غير أن الناس لم يكونوا عادلين مع أنفسهم حين لم تعظهم الأحداث ، وحين ربطوا حبلهم بحبل هؤلاء الأخوة أولاد الناصر قلاوون يخرجون بهم من ضيق إلى ضيق ، ولا يفكرون أن يخلصوا من هذا الضيق ، فحبلهم بهم موصول ، يسلمهم كبير إلى صغير ، وما ولا فى صغيرهم خير فى كبيرهم خير .

ولكن العهد كما قلت لك كان يضم أمراء لم يبلغوا أن يستأثروا بالسلطان ، وأن يحكموا مستقلين ، فجعلوا من هذا البيت - بيت قلاوون - بصغاره وكباره ، مادة لهم ، يولون ويعزلون ، ويخلعون ويقتلون تملى عليهم أهواؤهم ، فكانوا هم الكاسبين وكان الغارم الشعب .

ولقد أقام هؤلاء هذا السلطان الصغير حسنا .. ليخلعوه بعد أعوام ثلاثه وأشهر تسعة ، وليقيموا مقامه أخا له ، هو الصالح صالح ، ثم عادوا فخلعوا الصالح صالحا بعد ثلاث سنين وأشهر ، ليعيدوا إلى الملك السلطان المخلوع بالأمس حسنا ، وعاد حسن إلى الملك أو أعيد إلى الملك ليحكم ست سنين وأشهرا ، يمضى بعدها مقتولا .

ويخلو عرش مصر بعد مقتل الحسن ، لمحمد بن المظفر حاجى ، وكان فتى فى الرابعة عشرة من عمره ، ولكنه مايكاد يستقر على كرسى الملك عامين حتى خلع ، وماعدم الذين خلعوه أن يشيعوا عنه مايفحش ويقبح ، وماكان غريبا على سلاطين ذلك العهد أن يكون عنهم مايفحش ويقبح .

وحين يخلع هذا يولى الأمراء الأتراك تجار ذلك العهد صغيرا من هذا البيت - بيت قلاوون - لم يبلغ من العمر إلا عشر سنين ، هو الأشرف شعبان .

ويشاء القدر أن يرخى لهذا الصغير ليحكم نحوا من أربعة عشر عاما ، ولكن هذا العمر الممدود فى الحكم .. لم يعفه من أن يثور به تجار ذلك العصر ، وأن يقتلوه شر قتلة ، ولعلهم أمهلوه حين كان صغيرا لايملك أن يعارض ، فحين بلغ أن يعارض قتلوه .. ليجدوا بين يديهم من لايملك من الأمر شيئا .

وحين أحس هؤلاء التجار حزْن الناس على الأشرف .. أحسوا أن عليهم أن يخففوا عن الناس شيئا ، فولوا مكان الأشرف ابنا له ، هو المنصور على ، وكان عندها صبيا فى السابعة من عمره .

وفى حياة المنصور على .. بدأ يبرز من بين صفوف الأمراء أميران ، هما بركة ، وبرقوق ، وبدأ هذان الرجلان يمهدان لنفسيهما ، ليدخلا فى الأمر ، وليغلبا هذا البيت القلاوونى على أمره .

ولقد أمضى المنصور على فى الحكم خمس سنين وأشهرا ثلاثة تزيد اياما عشرين ، ليس له من الأمر شيء ، تحكم البلاد باسمه ، وحين مات المنصور على .. لم يكن الأمر قد استوى لهذين الرجلين أو لأحدهما ، وهو برقوق ، فأفسح برقوق لقلاوونى آخر أن يلى بعد المنصور على ، وكان هذا القلاوونى الآخر أخا للقلاوونى الراحل ، يعنى أنه كان أخا للمنصور على كما كان ابنا للأشرف .

وهكذا ولى الصالح حاجى الملك فى ظل هذا التحفز من برقوق ، وإذا هو يخلع عن الملك بعد سنة وأشهر سبعة تنقص قليلا ، خلعه برقوق حين قوى على أن يخلعه وجعل الملك إليه .

وانفرد برقوق بالحكم ، وأرخت له الأيام ، فإذا هو يحكم أحد عشر عاما تزيد أياما ، غير أنه كما أخذ الملك أُخذ منه ، فإذا هو ممخلوع ، وإذا الصالح يعود إلى الملك ليحكم ثانية عاما ، يسلم الحكم إلى برقوق ، وحين يمسك برقوق بالحكم هذه المرة لايدعه يفلت منه ، يجعله له ولأبنائه من بعده ، ويفسح السبيل أمام أسرة أخرى تحكم مصر مكان تلك الأسرة القلاوونية .

ولكن هذه السبيل التى عبدّها برقوق ليبلغ الحكم لم تعبد فى يسر ، وكان لذلك حديث طويل ، وكان ابتداء حكم برقوق ابتداء لدولة جديدة فى مصر ، هى دولة الجراكسة التى جاءت بعد دولة الأمراء الأتراك .

وسنحدثك حديث ذلك فى كتاب لاحق يؤرخ لتلك الحقبة الثامنة التى انتهت بضم مصر إلى الدولة العثمانية .

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع : ٨٧/٣٩٦٩

مطبعة نهضة مصر